قضايا الشعر المعاصر

تأليف

أحمد زكي أبو شادي

الكتاب: قضايا الشعر المعاصر

الكاتب: أحمد زكي أبو شادي

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

أبو شادي، أحمد زكي
قضايا الشعر المعاصر/ أحمد زكي أبو شادي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٢٠ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٤ – ٦٨٠ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٨٣٥ / ٢٠٢٣

قضايا الشعر المعاصر





دفاع عن الشعر

دخل عليَّ صاحبي وأنا أقرأ: «إذا ألقت العبودية عصاها في أمةٍ عَميت هذه الأمة عن خيرها وشرها، وسارت في حياتها كما تسير قطعان الضَّأْن، لا تسمع إلا رنين جرس الكبش الأول، عينها في الأرض وفمها في منابت صغار الحشائش، وعصا المستعبِد فوق كتفه يَهُشُّ بها عليها كلما رأى انحرافًا عن الخطة المرسومة لها في حدود رعيها.»

فقال صاحبي: «ما هذا الكلام؟» قلت: «هذا ليس كلامًا فحسب. هذا شعر، وإن شئت فقل: هو شعر منثور!»

فتعجب صاحبي وتساءل: «ومن أي كتاب أو ديوان هذا، عافاك الله؟» قلت: «هو من كتاب «في ظلال الحرية» للدكتور مُحَمَّد بديع شريف، أو من ديوان شعره المنثور؛ فقد جمع في بيانه بين الجزالة الموسيقية والعاطفة القوية ودقة التصوير، وزان كل هذا برسالة مثالية هي رسالة الحرية في وقت قلَّ المنافحون عنها بين الأدباء والشعراء بل ندروا، وجبُنَتْ حتى هذه القلة النادرة عن التعبير عن خواطرها والإفصاح عن إيمانها في الوقت الملائم الحاسم ... لا تعجب إذن عندما أخص مثل هذا الكاتب الشاعر باحترامي، وإذا ما احتفيتُ بشعره.»

فقال صاحبي: «أراك يا أخي عُرضة لخداع المثاليات فتحسبها من عناصر الشعر أو أنها هي الشعر، فهل لك أن تذكر أن الشعر شيء آخر، هو قبلَ كلِّ شيء الخيال الذي ينقلك إلى عالم أثيري غير ما يَشْغَلُ عقلك المفكر؟ ... أرى عينيك تتحدَّياني فاستمع إلى هذا المثال الصادق من الشعر المنثور عن ديوان «النشيد التائه» للشاعرة الفلسطينية الموهوبة «ثُريا عبد الفتاح مَلْحَس»، وهو قصيدتها «الليل»:

طَوَيتُك كما تطوي بتيلات الزهور لونها في صدرها. طويتك خوفًا وأنت لا تدري فسمعت أنفاسَها تعج! ... أنا أخاف عليك من وهج الشمس ... أحبك في الظلام، وعندما يئن الليل، ويمشي الفقير مشردًا في الطرقات، لا مأوى ولا منأى! ... أحبك في عبق الزهور وفوح الياسمين. أخاف عليك من كهْم النهار فأفرش أمامك الورود، وتفرش أمامي الأشواك! ... ثم تغيب في ثنايا الليل، فأسمع الماضي يتقلب! ... أَنظر إلى كتابي أمزقه وأنثر أوراقه، فتذوب بين أناملي؟ ... لا أدري من أين أتيت! ... من بلاد عبقر؟ ولا أدري إلى أين ذهبت! ... أسراب في سراب؟ ... أعطني يا إلهي قوتي ... إن مناجاتك أضوتني ... سمع هزيع من الليل فافترَّ عن ألف فم ... وطلعت الشمس تصرع العشاق، وذوت الأزهار تندِف عصارة السَّحَر! ...»

قلت: «حسنًا يا صاحبي! ولكنك لست أكثر إعجابًا مني بشاعرية «ثريا» أو «نازك» أو «فَدْوى»، وزملائهن من شعراء الخيال الجامح «والسريالية»، سواء أكان ما جاءوا به منظومًا أم منثورًا، ولا خطر من ثنائك هذا على مثلي الذي شق الطريق Free verse للشعر الحر منذ عقود ثلاثة من السنين كما شق الطريق Pink verse للشعر المرسل من قبلُ شاعرُنا الموهوب «عبد الرحمن شكري»، ولكن خطره سيصيب أولئك الشعراء والشواعر، ومن يؤخذون بسحرهم؛ إذ قد يتوهمون أو قد يتوهم البعض أن الشعر محصور في نماذج أشعارهم تلك، وهي نماذج لم أعدم مثيلاتٍ ماهدةً من طرازها في دواويني ومؤلفاتي، فإذا ما دافعتُ عما عداها فإنما أدافع عن الشعر عامة لا عن نفسي؛ عن حقوقه ومجالاته، عن حريته الفنية التي يميل هذا وذاك إلى الافتئات عليها، مع أنه لولا هذه الحرية الفنية لما احتمل النقاد المستقلون الضروب الجديدة من الشعر، إننا لنطرب حقًّا حينما نقرأ مثلًا قصيدة «غفران» من ديوان «قُربان» لشاعرتنا «ثُريا»:

أحس اختفاقًا يزحف من قلبي إلى عيني! أحس تَلَبُّدًا ينسلُّ من دمي إلى

صدري! أُحِسُّ صُخورًا تُجْبَلُ من عظامي تنحدر إلى أذني! أحس روحي ترهقني، تتمطى، تُحطِّمني! فيا رياح اغمريني! ويا يد الإله خلصيني! يا طبيعة اسحقيني! علَّني أعطي للزهور عطرًا، للأرض خِصْبًا، للفراشات لونًا! أحس في نحري اختفاقًا! خلصيني يا يد الإله! اصْلُبي قلبي غفرانًا لقلوب البشر!»

فإن هذا الشعر يعتمد على طاقته فحسب، لا على صنعة أو بَهْرَج أو موسيقى، وهو برهان على صدقية ما نادينا به من قديم عن كفاية اللغة العربية لخدمة الشعر المتجرد مثل كفايتها لخدمة الشعر المتدثِّر بالأزياء الجذابة من موسيقى وألوان وأضواء وظلال، فالشعر شعر في أية لغة بأحاسيسه وارتعاشاته وومضاته وخيالاته، وبحقائقه الأزلية ومثالياته.

وإذا قدرنا ألوان هذا الشعر المتجرد أو المرسل أو الحر أو الرمزي أو السريالي ونحوها، فليس معنى ذلك أننا نبخس الضروب الأخرى من الشعر حقها، أو ندعو إلى إغفالها، كما يدعو إلى ذلك بعض الأدباء الذين لا يقدِّرون أن ثروة أية لغة هي بمجموع آدابها، وأن الخير كل الخير في تنوع ضروبها، لا في حصرها. ومذهب الحصر مضاد للحرية، في حين أن الحرية هي صديقة الآداب والفنون، بل والمعارف عامة، فالإملاء على الشعراء والتحكم فيهم هو أولًا قتل لمواهبهم، ثم قتل للشعر وممكناته، ثم إفقار للغة وآدابها، هذا ما آمنتْ به «أمريكا» في ثقافتها، بل في جميع مرافق حياتها، فوثبتْ إلى الأمام وَثَبَاتٍ جبارةً، وتسلمتْ زعامة العالم الحر.

وهذا ما يجب على العالم العربي أن يحتذيه حتى تصير حرية الشعور والفكر والنظر فيه النبراس الوهاج للتقدم المنشود، وعلى ذلك فنحن إذا مجدنا هذا الضرب أو ذاك من الشعر فلسنا بغافلين عن مزايا الضروب الأخرى، ولا يمكن بأي حال أن ندعو إلى الحد من الحرية أو أن نحارب الإبداع، وإنما نحارب

الضحل والفقر والرجعية والعجز التي تتظاهر بعكس حقيقتها وتجني على الأصالة والعبقرية ونحن لا نتحكم في ميول أي شاعر، وحسبنا أن يكون مخلصًا يهدي إلينا عصارة قلبه ونفثات روحه، ولا يكون مجرد صانع يلعب بالألفاظ والمعاني ويعبث بها وبالناس، فتتناثر هذه الرغوة البراقة وتتزايل على مر الأجيال، كما حدث لشعر كثير لم تسانده العاطفة الصادقة والإيمان الصحيح.

وإذا كنا نؤمن بهذا المذهب الفني الشامل، الذي ينتظم في الواقع مذاهب فرعية، فليس في مذهبنا طبعًا أن نُغْفِلَ «الشعر الكلاسيكي» القديم أو المجدَّد، ولا ما عداه، من فن أصيل، قد ينتقده من لا يعرفه، أو من لا يستطيع أن يجول في مجاله؛ لأن له ذوقًا خاصًّا يلزمه ضُروبًا أخرى، واتجاهات مختلفة، وصِيَغًا معيَّنة.

وإنه لجميل أن يشمل عالمُ الشعر عظائمَ ودقائقَ كثيرةً، ولكن من الشذوذ العجيب أن يستثنى منها الإنسانُ ذاته، في حين أنه ما من أدب رفيع في الشرق أو في الغرب إلا وكان سناده الإنسان ذاته، وما من أدب خالد اعتمد على الأخيلة المزوقة، أو الجامحة فحسب، أو عدَّ الحياة مقصورة على أنانية الأديب ودائرته الضيقة!

لنا أن نحتفي بكل لون من ألوان التفكير والتعبير البشري، وعلينا أن نناهض «الدكتاتورية الأدبية» والفنية؛ لأنها في النهاية بمنزلة سم للأدب والفن؛ كما كانت نظيرتها في القرون المظلمة سُمًّا قاضيًا على العلم.

إننا ندافع عن حرية الشعر المطلقة موضوعًا وتعبيرًا؛ ندافع عن هذا الفن الرفيع الذي متى بلغ الذروة بإنسانيته وبقيادته الجريئة الحرة، كان الرائد لحركات الإصلاح والتطهير والتسامي، خلافًا للشعر المصنوع الهوائي الوصولي، ندافع عن حق الشعر الإنساني المعلِّم المعنف الذي يخاطب «الانتهازية» بقوله: [(١)]

تَقَلَّبي! تلوَّني! يا صُورةَ الحِرْبَاء!

واسْتَمْرِئي الغُنمَ ولو رَتَعْتِ في الدماءِ!

تَقَلَّبي! تلوَّني! يا كعبة «الأبطالِ»!

مِنْ كلِّ غِرٍّ آثمٍ يَجْني على الأجيالِ!

مَا ضيهمُو – مَهْمَا دَنَا – عالٍ من الأحرارِ!

يَكفيهُمو تَمْثِيلهُمْ في جُرأَةِ الفُجَّارِ!

تَقَلَّبي ولْتَغْنَمي برغمِ أَنْفِ النَّاسِ!

يا ما أضَلَّ رُشْدَهُمْ، في ساعةِ القسطاسِ!

تَقَلبي ولْتَسْخَري مِنِّي كما شِئتِ، فما

أرْجُو لِمِثْلي غيرَ طولِ الجُوعِ أو فَرْطِ الظَّمَا!

بأني غريبٌ دائمًا في عالَمِ الدَّهْماءِ

فَلْتَسْخَرِي منِّي، فما مُكنْتِ مِنْ رجائي!

إني وفكري رُبِطَا بِعَقْدِة الحياةِ

كتوءمَيْن اتحدَا في العيشِ والمماتِ!

إني وذِهْني عالَمٌ – مهما بدَا – مَجْهُولُ

وقد يُخَالُ آفلًا، وما له أفولُ!

تقلبي ولتسخري مني ومِن أمثالي

لتغنَمِي سُخري وإنْ أَصْبَحْتُ لا أُبالي!

وندافع عن حق «الشعر المتصوف»، في نِشْدان الجوهر والحرص عليه؛ إذ يقول: [٢]

سِيَّانِ إنْ تُصْغِي — للنُّصْحِ أو تُغْضِي

يا نفسُ فالآتي — مِثْلُ الذي يَمْضِي

العَيْشُ إذْ يَشْفِي — كالعَيْشِ إذْ يُضْنِي

إنَّ الذي يُحْيِي — بَعْضُ الذي يُفْنِي

الطهْرُ لا يُدْنِي — والعُهْرُ لا يُقْصِي

فالكأسُ إنْ تَطْفَحْ — كالكأسِ في النقصِ

الجوهرُ السَّامِي — يَبْقَى بلا رجسِ

كم مُومسٍ تمضي — عذراءَ للرمس!

فافعل كما تَهْوى — يا قلبُ! لا تحذرْ!

إن كنتَ مِنْ تِبْرٍ — ما ضَرَّكَ المَصْهَرْ!

وندافع عن حق «الشعر الوجداني» الحزين في التنبيه إلى واجب الإخاء الإنساني، والدعوة إليه، وسط ضباب اليأس؛ كقوله: [٣]

أنا إنْ مِتُّ أُصَيْحَابي ادفِنُوا — جَسَدِي في بُقْعَةِ المَرْجِ الخصيبْ

حيثمـــا البُلبُـــل يَشْـــدُو مـــائلًا كيفمـا مـالَ بـهِ الغُصْـنُ الرَّطيـبْ

حيثمـــا الجـــدولُ يجـــري باكيًـــا يُسْـــمِعُ المحبـــوبَ أنَّاتِ الكئيـــبْ

حيثمـــا الصَّفْصَـــافُ يَحْـــني رأسَـــه شِـبْهَ مَـنْ أضـناهُ هِجـرانُ الحبيـبْ

حيثمـــا تَرْعَـــى المواشـــي حُـــرَّةً لا تَخَـافُ الغَـدْرَ مـن وَحْـشٍ وذِيـبْ

وإذا شـــئتم مُناجـــاتي اجلســـوا حَـوْلَ قـبري سـاعةً عنـد المَغيـبْ

لا تَنُوحـــوا لِفرَاقـــي حَسْـــرَةً أنا مَـــنْ يَكـــرهُ أصـــواتَ النَّحِيـــبْ

لا تَظُنُّـــوا القَبْـــرَ فيـــهِ غُرْبَـــةٌ لَـيْسَ مَـنْ في صُـحْبَةِ القـبر غريـبْ

عِشـــتُ في الـــدُّنيا زَمـــانًا لم أَجِـــدْ أحـــدًا في النَّـــاسِ أَدْعُـــوهُ قريـــبْ!

وندافع عن حق الشعر الفلسفي في التنبيه إلى غرور الإنسان وخداع الشهرة (٤) إذ يُنْشِدُ:

كَتَبْـــــــتُ في الجَـــــــزْرِ سَـــــــطْرًا علـــــــى الرَّمْـــــــلِ

أَوْدَعْتُـــــــــهُ كُـــــــــلَّ رُوحـــــــي مـــــــع العَقْـــــــلِ

وَعُـــــــــدتُ في المـــــــــدِّ أَقْـــــــــرَا وأسْـــــــــتَجْلي

فلـــــم أجِـــــدْ في الشـــــواطي ســـــــــــوى جهلـــــــــــي!

ندافع عن هذه النماذج وعن مثيلات أخرى عديدة ذات قيم إنسانية، كما ندافع عن حق الشعور الإنساني إطلاقًا في التعبير عن ذاته في أية صورة شاءها تعبيرًا فنيًّا هو ما ندعوه «الشعر»، ونناهض كلَّ تَزَمُّتٍ أو تحكم قُضِيَ عليه في العالم الجديد، لا في الشعر والآداب والفنون والعلوم فحسب، بل في

الأديان أيضًا، وبذلك أتيحت لأمريكا نهضة لم يعرف لها نظير في تاريخ البشرية، تضافرت الفنون والآداب والعلوم والأديان جميعًا على خَلْقها، وتألقت في سماء الحضارة إلهامًا لبقية العالم.

فلما أنهيت حديثي حسبت صاحبي نائمًا؛ إذ كان مغمضًا عينيه طول الوقت الذي اندفعتُ فيه كالجواد الجامح، ولكنه فتح عينيه المشرقتين، وابتسم ابتسامة المؤمن ثم ردد: «آمين!»

الهوامش

(١) عن ديوان «النيروز الحر» «لأحمد زكي أبو شادي».

(٢) قصيدة «سيان» لنسيب عريضة.

(٣) قصيدة «إن أنا مت» لندرة حداد.

(٤) مقطوعة «الشهرة» لجبران خليل جبران.

شعر التسامي

لم يظفر شعر التسامي **Poetry of Sublimation** في القرن العشرين بأثر أفخم من ديوان «الشاعر القروي» لرشيد سليم خوري، الذي طلع على الأدب العربي يُمنًا وبركة في مستهل سنة ألف وتسعمائة وثلاث وخمسين، منتظمًا في الواقع سبعة دواوين متعددة الأغراض، ما بين حماسية واجتماعية ووجدانية وفلسفية وإنسانية، في ضروب من الشعر الوصفي والخيالي والرمزي وسواها، بريشة فنان مبدع تجري الموسيقى والشعر في دمه على سباقٍ.

يقول فيما يقول عن الحب:

ذلك حبي الأول. ذلك الحب العذري الذي أومن به؛ لأني خبرتُهُ. ولا أزال أحار في سره وأجده عجبًا عجابًا كيف كنت أرضى بتلك اللذة الروحية من أجمل الصبايا وأحبهن إلى قلبي! ولماذا كنت إذا لقيت غيرها من النساء يضطرم دمي ويضطرب في عروقي كلجة من نار! الحب الطاهر حقيقةٌ لا ريب فيها أيها الشباب.

ويقول عن شغفه بالطبيعة:

أراني في حياتي أشعَرَ مني في شعري، فما زرت بلدة إلا وشاقني قبل التعرف إلى باطنتها وناسها، أن أرود ما يحيط بها من الأرض الفضاء، مصعِّدًا في الروابي، هابطًا الأودية، سابرًا المغاور، جائسًا الكهوف، باحثًا عن الينابيع! وأشد ما يستهويني تلك الهضاب التي تتوسط الصخورُ تعاشيبَها، كأنها الأغنام رابضة في المراعي الخضر، فإذا ما انحجبتُ عن العيون، واطمأننتُ إلى المعزل البعيد، استخفني السرور، وأطَعْتُ سُنَّةَ الهواء والنور، فرحت أطرح عني ثيابي قطعة قطعة، وأنا أطفر بين التلال هازجًا أنفِّر السائمة.

وإذا طغى الجمال كما في «لبنان»؛ فجمع بين سمو الجبال، ونضرة السفوح، وترقرق الجداول، وزُرقة البحر والسماء؛ ردَّني إلى خنوع يُلصق جبيني بالتراب، ويسكب من عينيَّ وشفتيَّ تسبيحةً رطبةً حارةً! وقد يتجسم شعوري بصلة القربى بيني وبين هذه الأكوان، فأنعطف على الشجرة أعانقها، والصخرة أضمها، والزهرة أناغيها، والمَرْجَة أتقلَّب عليها، وأمد ذراعي إلى السماء أحييها، وأبعث إلى الشمس بقبلاتي على أطراف بناني، والشمس حبيبتي الأولى وفتنتي الكبرى، ليس أبعث لنشاطي الجسدي والذهني من الاستحمام بنورها، ولا ينافس إشراقتها في قلبي غير ابتسامة المرأة الحسناء، وأعتقد أن تشاؤم «المعري» كان بقدر حرمانه من كلتيهما، وقد تسكن نفسي المضطربة في المدينة إلى عشبة خضراء بجانب الطريق فأقف عندها، أو أمشي متمهلًا حذاءها شاكرًا لها إحسانًا غير مقصود، وكم هزني الشتاء العاصف كالربيع الضاحك فإذا اهدودرَ الشُّؤبوبُ صحتُ: لبيك! فنضوتُ عني وقفزتُ إليه وبيدي الليفة والصابونة حتى إذا أشبعت جامح رغبتي في الاغتسال بماء السماء عدت فتنشفت، وجلست إلى مكتبي أشد ما أكون استعدادًا لاقتبال الرؤى ونظمها!

ويقول عن شعوره الوطني:

أمتي أنا مكثَّرًا ووطني أنا مكبَّرًا. إذا اقتطع ذئاب الاستعمار منه قطعة فكأنما أكلوا جارحة من جوارحي، وإذا هدروا عربيًّا ... فكأنما شربوا نغبة من دمي، وكأن كل بلد قوي من بلادي ساعدي مفتولًا، وكل شعب خامل فيها زندي مشلولًا، بل ما أعدُّ ذاتي إلا خلية في جسد أمتي، أنا واحد من سبعين مليونًا من العرب، كل واحد منهم أنا، فينبغي أن أحبهم سبعين مليون ضِعْف حُبِّي لنفسي ... مَنِ افتداهم فكأنما أحياني سبعين مليون مرة، ومن خانهم فكأنما قتلني مثلها، ولذا تراني أصب جامات غضبي على الظالمين وصنائع الظالمين

والصابرين على الظلم، بعنف من يدرأ الموت والعار، لا عن نفسه فحسب، بل عن سبعين مليون نفس كنفسه، محشودة فيه شاغلة عالم الأرض من لانهاية روحه، وقدر الشعور يكون الألم، ومن فقد الغيرة أنكر الغضب، وما استكثر اللعنة إلا من استقل الخيانة، وما ياسرَ السفاحين إلا من استهان بدماء قومه فحسبها ماء كدمه! ...

ويقول عن كيفية نظمه الشعر:

في أي ساعة وأي مكان، في يقظات الليل، في الشارع، في الحافلة، على المائدة، أثناء الحديث، أدوِّن الخاطرة أو البيت. لم أنظم ليلًا من القصائد التي تعجبني غير «حصن الأم» و«تحية الأندلس» ولعلهما خير ما نظمت. أما سائرها فنهارًا في سفراتي، أو في الحدائق العامة، أو الضواحي الهادئة، مندمجًا في الطبيعة، مرسلًا نفسي على سجيتها.

ويقول عن رأيه في الشعر:

إنه أرفع الفنون، وقد يسمو حتى يداني مرتبة النبوة، وللشعر أربابه الموهوبون، فلا يُغني في نظمه أن تكون «سقراط» أو «ميشال أنجلو» أو «الفيروزابادي».

والشاعرية كاللانهاية، لا حُدودَ لها؛ فكلما تعددت جواء الشاعر كان أدل على انطلاق روحه واتساع مملكته. وكل ما يقع ولا يقع تحت الحس في هذا الوجود العظيم يستحق أن يكون موضوعًا للشعر، فالموضوعات قديمة كالزمان، ولا جديد إلا ما يخلقه خيال الشاعر، ويخلعه على موضوعه من فاتن الصور. ثم إن من الشعراء من يضرب المثل فيجمع عالمًا في بيت، ومن يبسِّط الفكرة فيشيِّد قصرًا ذهبيًّا من آجرَّةِ الطين، ومن ينفض مزادة نفسه فيشبع الملايين من جياع الروح.

ويقول عن سبب غلبة «الحماسة» على شعره:

ما كدت أنهض بقادمتيَّ حتى صكت مسمعي أناتُ أمتي ولفحتْ وجهي زفراتُها، فطويت جناحي عند سريرها مخضعًا خيالي لواقعها الأليم، مقدمًا واجب تمريضها على التغريد في الخمائل والتنقير بين الحقول، ولو أني أدركتُ أمتي صحيحة قوية لحلَّقْتُ مع الأسراب في ألف سماء بعد سمائها. لقد سلب اللصوص نصيب أمتي من خبز الحرية والعدالة والحق، وغادروها في وطاء الذل مدنفة تدمِّيها القيود، والحرية والعدالة والحق أسمى المعقولات التي ينشدها الإنسان الراقي، بل أغلى الجواهر الروحية المشعة من صدر الرحمن. لا يحيا قلب بشرى نبيل إلا بقطر نداها، ولا يمكن أن يُتَصَوَّرَ خيرٌ ولا جمال ولا سعادة في هذا الوجود إلا بانعكاس نورها، فما شعري الحماسي إلا ألم صارخ من أغوار نفس أُزعجت عن ذلك المحل الأرفع ومثله العليا، فهي دائمة الحنين إليها والتوجع لفراقها، والسجع بذكراها واستنزال بركاتها وتثبيت ظلالها الفاتنة، وتوضيحها في لوحة الحياة، وما الشاعر الوطني الحمِيُّ في أمة مستعبدة إلا الشاعر الإنساني قبل أي شاعر سواه؛ لأن هذه المبادئ التي يُسَبِّحُ لها ويصلي في محرابها، ويجاهد في سبيلها، ليست معبودة وطنه فحسب، بل هي معبودة الأوطان جميعًا، ولعمري أية قيمة وأي سرور وأي فأل يجد المتبجِّحون بإنسانيتهم المتخدِّرة، في عالم لا حرية ولا حق ولا عدالة فيه؟ ولئن زعموا أن الإنسانية أولى بالتقديم فليورِّثوها أموالهم من دون أبنائهم إن كانوا صادقين، وهَبْ أصاب من قال: «لقد كان في وسعي أن أصير شاعرًا عالميًّا، لولا حصري شاعريتي في أفق الوطنية المحدود»، فإني لست بآسف أني أحببت أمتي وبلادي أكثر من نفسي، وإني حاولت أن أفتدي مجدها بمجدي وخلودها بخلودي. وبعد، فلا يُفْقَهَنَّ من قولي هذا أن الشاعر الحماسي أشعر من سواه، فمن

الشعر الوطني ما هو أتفه الشعر ومنه أنفَسُه، ومقياس الشاعرية إنما هو الإجادة أيًّا كان الموضوع. إن القرازيم لَمُسِفُّون ولو اتخذوا سدرة المنتهى أو سُدَّة العرش عنوانًا لما ينظمون. وما حق الخلود إلا للمجلِّين وإن كانوا كفارًا.

هذا بعض ما يقوله شاعرنا العبقري من ملاحظات سديدة في تصدير ديوانه الرائع الذي تتألق فيه الشاعرية أسمى التألق، فإذا ما انتقلنا إلى قصائد الديوان ومقطوعاته رأينا شعر التسامي – ولا غيره – يطل من جميع بيوتها، ورأينا الأصالة المشرقة تصافحنا وتهدينا.

استمع إلى هذه القصيدة الظريفة ينعي فيها حجب الوجه وكشف الساق، وهي من بواكير شعره:

لِجَـــــدِّ الـــــرُّكْبَتَيْنِ تشـــــمِّرينا	بِرَبِّـــــكِ أيَّ نَهْـــــرٍ تَعْبُرِينـــــا؟
مَضَـــى الخلخـــالُ حـــين الســـاقُ	أمْسَـــتْ تُطَوِّقُهـــا عيـــونُ النَّاظرينـــا
هَـــوَى عـــرشُ الجمـــالِ عـــن المُحَيَّـــا	إلى الأَقْـــدامِ فاســـتْهْوَى العُيُـــونا
كـــأنَّ الثـــوبَ ظِـــلٌّ في صَـــباحٍ	يَزيـــدُ تَقَلُّصًـــا حينًـــا فحِينـــا
تظنـــينَ الرجـــالَ بَـــلا شُـــعورٍ	لأنـــــكِ ربمـــــا لا تَشْـــــعُرِينا
ولـــيس بعاصـــمٍ عقـــلٌ ودِيـــنٌ	فكـــم سَـــلَبَ الهـــوى عَقْـــلًا ودِينـــا!
ومـــاذا يَنفـــعُ التهـــذيبُ نفسًـــا	تحـــاربُ فيـــكِ إبلـــيسَ اللَّعينـــا؟
فيـــا ليـــتَ الحِجـــابَ هَـــوَى فأمْســـى	يـــردُّ السَّـــاقَ عَنَّـــا، لا الجبينـــا
فـــإنَّ السَّـــاقَ أَجْـــدَرُ أن تُغطَّـــى	وإنَّ الوجـــــــهَ أَوْلَى أن يبينـــــا

أرأيت الشاعرية الطليقة والرشاقة في التناول والأداء؟ إنها بعينها المتجلية في

جميع شعره، حتى شعره الثائر.

استمع على سبيل المثال إلى مقطوعته في «فساد الأخلاق»:

زمنٌ يَسُودُ به الحَسُودُ فمن سَعَى فنجاحُه سببٌ لهدمِ نجاحهِ

ساءتْ به الحسناتُ حتى كاد أن يَخْشَى الضليلُ بهِ طُلُوعَ صَباحِهِ

فإذا أردتَ بأن تحقِّر صالحًا يكفيكَ بين الناسِ ذكر صَلَاحِهِ

وإذا مدحتَ فتًى فعَظِّم شَرَّهُ فلقد غدا فَخْرُ الفَتَى بطلاحهِ!

واستمع إلى قصيدته «عند الرحيل»:

نصحتك يا نفسُ لا تطمعي وقلتُ: حَذَارِ! فلم تَسْمَعي!

فإن كنت تستسهلينِ الوداعَ كما تدَّعينَ، إذَنْ وَدِّعي!

رَزَمْتُ الثيابَ فَلِمْ تحجمين؟ ولِمْ ذا ارتعاشُكِ في أَضْلَعِي!

ألا تَسْمعينَ صياحَ الرِّفاقِ وتجديفَ حوذيّنا؟ أَسْرِعِي!

•••

رأيتُ السَّعادةَ أُخْتَ القَنُوعِ وخِلْتِ السَّعادةَ في المَطْمَعِ

ولَمَّا بَدَا لكِ عَزْمِي قَنِعْتِ وهيهات يُجديك أن تقنعي!

•••

خرجتُ أجرُّكِ جَرَّ الكَسيحِ تَئنينَ في صدريَ المُوجَعِ

ولَمَّا غدونا بنصفِ الطريقِ رَجَعْتِ، وليتك لم تَرْجعي!

لَـئِنْ كنـتِ يا نفـسُ مـع مَـنْ أُحِـبُّ   فَلِـــمْ ذا اشــــتياقي ولِمْ أَدْمُعِـــي؟

أظنـــك تائهـــة في البحـــارِ فـــلا   أنـــتِ معهـــم ولسْـــتِ مَعِـــي!

•••

كفــاك اضــطرابًا كصــدر المحـيط   قِفِـــي حيـــث أنـــتِ ولا تَجْزَعـــي

سأقْضِـــي بنفســـي حقـــوقَ العُلَـــى   وأَرجــــعُ فـــــانتظري مَرْجِعِــــي!

واستمع إلى مقطوعته «وكتمت حبك»:

ضـــاقتْ حنـــايا الأرضِ عـــن سِـــرَّ   الهَــوى فَتَنَفَّسَــتْ عــن أَنْجُــم ولآلِ

وكتمـتُ حُبـك فاكتسـتْ مـن وَشْـيِهِ   حُلَــــلُ البيــــانِ نفائسًـــا وغـــوالي

لــولا الصَّــبابة يا «لُمَيــةُ» لم أَضَــعْ   عَـرش القَيَاصِـرِ تحـتَ عَـرْشِ خَيَـالي

أطلَعْــــتِ في فَلَــــكِ الجَمــــالِ   كواكبًـا إِشْـعَاعهُنَّ خـواطرٌ وأمـالي!

واستمع إلى هذه الأبيات من قصيدته «لمياء هاتي العود»:

«لميــاء» هــاتي العُــودَ نبــك صِـبَانَا   راحَ الخريـــــفُ بــــوردنا ونَـــــدَانا

لا، لا، أنا وحْـــدِي الـــذي ثَكـــلَ   الصبَا حاشا لِحُسْنِك أن أقولَ كِلانا

لَكَـــم التمســـتُ البُـــرْءَ مـــن داء   الهَـوَى بالبُعْـدِ عنـكِ فَزِدْتُـهُ إزمـانا

أتكلــفُ الســـلوانَ منـــكِ تكلفًـــا   يُـــدْني العـــذابَ ويُبْعِـــدُ السُّـــلوانا

وأخيرًا استمع إلى هذه «الموجات القصيرة»:

تَكبَّــــرْتَ لمــــا زادكَ اللهُ ثــــروةً   وأَيْسَـرُ خَطْبًـا مـن تكـبُّرك العُـدْمُ

قـد اتخـذَ العلـمُ التواضُـعَ صـاحبًا فصاحبْ رفيقَ العِلْمِ إنْ فاتكَ العِلْم

•••

يا مَـــنْ يَعُـــدُّ علـــيَّ كـــلَّ صـــغيرةٍ إنْ لم تكـــنْ متســـاهلًا كُـــنْ عـــادلا

إنْ كُنْـــتَ مِثْلِـــي ناقصًـــا فاعـــذِرْ وإنْ تَك كاملًا فاعذِرْ لِتَبْقَى كاملا

•••

لَعَمْــرَكَ لــو لم يَنْضُــب المــاء مــا خَلَتْ رُبوعٌ ولم يَعْمُرْ سحيقُ الموارِدِ

ولـو كـان عنـد النـاسِ للنـاسِ رحمـةٌ لمـــا التمســـوها رُكَّعًـــا في المَعابِـــدِ!

•••

إنَ الصـــــــــديقَ لَيْشـــــــــبِه الســـــيفَ المجـــــرَّدَ في يَـــــــدَيَّا

ألقَـــــى بـــــه نُـــــوبَ الزمـــــانَ إذ عَـــــــدَتْ يومًـــــــا عَلَيَّـــــــا

والخـــــيرُ إن أُغْـــــــنَى عـــــــن اســـــتعمالهِ مـــــا دمـــــتُ حيًّـــــا

•••

حســـبتُك خـــيرَ إخـــواني، لهـــذا قصرتُ عليك في الحُبِّ احتجاجي

فـإنَّ الزيـفَ في (الألمـاس) يُخْشَـى ولكـــنْ لـــيس يُخشَـــى في الزُّجـاج!

وبعد، فقَلِّب الديوان كيف شئت لترى عزة النفس وعزة الفن في أرفع الصور، وأنفس الحُلَى والأناقة الفطرية، وأجمل هذه الحُلَى: النزاهةُ، والإخلاص، والتواضع المقترن بالحرص على الكرامة، والشعور بالواجب، والإحساس بالمسئولية دون تبجُّح؛ كزعيم أدبي جليل الخطر، ويقيننا أن هذا الديوان سيخلد في عالم العروبة نبراسًا وهَّاجًا لأجيال وأجيال، وشعارًا نابضًا بحب الحق والحرية!

الشعر المسرحي

حيثما قال الشاعر:

لا عَرَفْتُ الحياةَ إنْ كان فَنِّي	ما بَدَا لي ولستُ أخْلُقُ فَنِّي
أنا بَعْضٌ من الوجودِ، ولكنْ	كُلُّ ما في الوجودِ مِنْ بَعْضِ كَوْنِي

إنما كان يعبر عن إحساس يستبد بكل فنان أصيل، هو الحنين إلى الخلق، والإيمان بالإبداع، والتجاوب الشامل مع الوجود، ليس هذا الإحساس لونًا من الغرور – كما قد يراه الناظر السطحي – وإنما هو تصوف عميق واندماج متناهٍ في الطبيعة، وإن تلون بالإحساس الذاتي والشعور بالطاقة الفنية.

كلما قرأنا أثرًا من الآثار التي توصف بأنها «فنية» مَر بخاطرنا المعنى الشعري السالف الذكر وساءلنا أنفسنا: هل من إبداع بهذا الأثر؟ ما قيمته كفن مجرد؟ هل له أية رسالة قد يعتز ويرقى بها الفن وتسعد الإنسانية؟ وإذا لم يكن هذا ولا ذاك تساءلنا: أثمة خسارة إذن لو أننا فقدنا هذا الأثر فقدًا تامًّا، أو على الأصح لو أنه لم يوجد؛ إذ إن بعض ما يوجد لا يُحَسُّ به؟

كم من كتاب أو رسالة أو قصيدة تعد في حكم الميتة يوم ولادتها لتجرُّدِها من عناصر البقاء، وأولها الجدة الفنية، وغيرها يعيش على هامش الآثار الفنية؛ لأنه بمنزلة شروح لها أو تكرار أو تبسيط! وإنما يخلد ما اتسم بالإبداع الفني، وما احتفظ بقيم أزلية من الحق والجمال.

وهكذا كان موقفنا أخيرًا حينما تلقينا المسرحية الشعرية «هيروديًّا» من تأليف الشاعر يوسف الخال محرر جريدة «الهدى» اليومية في نيويورك.

تقع هذه المسرحية في سبعة وثلاثمائة من الأبيات متعددة القوافي ولكنها من بحر واحد هو الخفيف، وتنتظمها ثلاثة فصول، رُوعيتْ فيها وَحدة الزمان والمكان، أما مصدرها فقصة «الإنجيل» الشريف عن قتل «هيرودوس» ملك الجليل «ليوحنا المعمدان»؛ تلبية لطلب «سالومة» ابنة «هيروديًّا» زوجته الثانية، وكان تزوج من ابنة «الحارث» ملك دمشق ثم أعادها إليه بعد أن وقع في غرام «هيروديا» امرأة أخيه «فيليبس»، فتحدى بذلك شرف السوريين وشريعة موسى، التي تحرم الزواج من ابنة الأخ، وجاء «يوحنا المعمدان» يعلن سخطه على هذه الزِّيجة، فيلقي به «هيرودوس» في السجن، وما يَحول دون قتله إيَّاه إلا خوفُ «هيرودوس» من ثورة الشعب، ولكن «هيروديا» لا تقنع بذلك، ولا يرضيها إلا قطع رأس «المعمدان»، فتغري ابنتها «سالومة» بفتنة «هيرودوس» واستهوائه في ساعة ضعفه وعبثه؛ ليعطيها رأس «المعمدان» على طبق يصحبها في رقصها الخليع، وتنجح حيلتها مع ابنتها، كما تنجح حيلة ابنتها مع «هيرودوس»، فيلبي بعد تردد طلبها في غمرة شرابه، ويعقب ذلك ثورة الشعب وقيام السوريين ضده واضطرار الرومان إلى خلعه ونفيه؛ تهدئة للجماهير.

قرأنا هذه التمثيلية مرتين قبل التفكير في الكتابة عنها، وعُنينا عنايةً خاصة بالتأمل في مستواها الشعري إلى جانب مستواها الدرامي، وفي ذهننا الطريقة التي تناول بها الموضوعَ ذاتَه أدباء غربيون من قبل، كذلك عنينا بمقدمة المؤلف؛ لنتبين منها فلسفته الأدبية وموحيات عمله، فخرجنا من كل هذا بالنتائج الآتية:

(١) رواية «هيروديا» غنم للأدب المسرحي وللشعر العربي المعاصر؛ لأنها تجربة إضافية تزيد من ثروته، كما أنها عرض لإيديالية أصبحت مقدسة لدى العرب جميعًا.

(٢) بعد اطلاعنا على هذه المسرحية لا نرتضي فقدها، وبعبارة أخرى إنها ذات قيمة أدبية أصيلة؛ ففي زوالها خسارة؛ لأنها تسدُّ فراغًا.

(٣) إذا كان يوسف الخال من الشعراء المُقلّين فليس هذا بضائره، وإذا كان من الشعراء البطيئين فليس هذا بمنتقصه، فالعبرة بقيمة العمل لا بعدد المصنفات، ولا بالوقت الذي يَسْتغرقُه وَضْعَها، وقد يشتهر الشاعر بل يخلد بقصيدة واحدة، في حين يلازم الخمول شاعر آخر مكثار، ومن النادر أن يجمع الشاعر بين الكثرة والإجادة، وها هو ذا يوسف الخال قد نظم هذه المسرحية على فترات ما بين سنة ١٩٤٧ في بيروت، وسنة ١٩٥١ في طرابلس الغرب، وسنة ١٩٥٣ في نيويورك.

(٤) موضوع الرواية درامي عنيف، وهو في رأينا يستأهل تَبَسُّطًا، أي معالجة أفسح، وعلى الأخص؛ لأن للمؤلف مثالية قومية، بل إنسانية تمخضت عنها هذه المسرحية. صحيح أن من حقه أن يقول إنه مكتف بهذا القدر من المجال والتناول، ولكن من حيث إنه يريد أن يعرف وقع تأليفه في نفوس النقاد الغيورين النزيهين فهذا رأينا، دون أن نعني بذلك أن الرواية غير كافية للتمثيل، ولكنها في رأينا – بصورتها الحاضرة – أصلح للأوبرا التي لا تتطلب التعمق في تحليل الشخصيات والمواقف، أو للإذاعة المحدودة الوقت عادة، أو للقراءة فحسب.

(٥) تتم ديباجة الشعر ومناحيه على تشيع يوسف الخال لمدرسة سعيد عقل الوصفية الحسية، وهذا ملحوظ منذ بداية الرواية بخطاب «هيروديا» الموجه إلى وصيفتها «تامار»:

ضَمِّخيني «تامارُ»! في جسدي عرس وفي أضلعي هزيج مراح
وهنا في جدائلي سمر الليل وهام الصباح خلف وشاحي
وافرشي فوق مضجعي خصل الورد وصبي الخمور في أقداحي!

ليلـــة هــــذه، تفــــوق ليـــاليَّ ارتمـــاءً علـــى الشَّـــهِيِّ المتـــاح

مـــن عنـــاقي ومـــن تـــرنح أعطـــافي ومـــــن دفء نشــــوتي والتيــــاحي

فانهيـــاري سَــــكْرَى علــــى قـــدم الشــهوة في ذلــة وخفــض جنــاح!

ضــمخيني «تامــار» للطِّيــبِ وَقْــعٌ دونـــــه وقــــع نـــــزوتي وجمــــاحي

واتــركيني للحــب نهــب فراشــات تهــاوت علـــى خـــدود الأقـــاحي

ونـــــوالًا تعـــرت الــــنفس فيـــه واســــتحمت كنشـــوة في الــــراح

فـــإذا مخـــدعي «لهـــيرود» ظـــل في مســــاء وكوكـــب في صــــباح

وزوال الوجــــــود في رعشــــــةٍ حَــرَّى علــى وهْــج قبلــة ملحــاح!

إلى آخر هذا النشيد الجميل المتناوب ما بين «هيروديا» و«تامار»، دع عنك وصف «هيرودوس» لما في خزائنه من نفائس، ودع عنك النشيد الغنائي الفاتن، في مطلع الفصل الثالث الذي تستهله «هيروديا» بقولها:

أومـــأ الفجـــر يا حبيـــب وهـــذا مضــجعي طــال شــوقه لاحتضــانك

فترفـــق بـــه، وراودْ علـــى الـــدفء وخـــذني بغــــامرٍ مـــن حنانـــك!

(٦) على الرغم من الإيجاز وُفِّق الشاعر بخطوطه القليلة إلى التصوير المؤثر كما نرى في المشهد الثالث للفصل الأخير؛ إذ لم يتجاوز عدد أبياته سبعة وعشرين بيتًا، حينما هو خير مشاهد الرواية على الراجح.

(٧) تحتاج مقدمة الرواية إلى تحقيق أدقَّ، فشعراء العربية الذين عنوا بالتمثيليات سواء في أوطان العروبة أو في المهاجر أصبحوا جمهرة،

وليسوا ثلاثة كما ذكر المؤلف الفاضل، ونحن الآن في عصر «الراديو» و«التلفجن» ومن ثَمَّةَ كانت الكلمة المخطوطة المُذاعة معادلة على الأقل للكلمة المطبوعة، وفي مجال التحقيق العلمي لا بد من تقدير المخطوطات أيضًا، فما بالك بآثار موطدة منذ نصف قرن بل أكثر كآثار الشيخ نجيب الحداد رائد الأدب الدرامي، وهو لبناني الأصل وخليق باعتزاز اللبنانيين به، وفي المهجر الأمريكي وحده مسرحيات شعرية متعددة لا يُستهان بها وفي مصر أرخ الدكتور مختار الوكيل في كتابه «رواد الشعر الحديث في مصر» لِمَا فات أديبَنا الألمعيَّ يوسف الخال، وكذلك فعل الأستاذ مُحَمَّد عبد المنعم خفاجي في جملة من كتبه، وفعل النقادة الشهير الأستاذ السحرتي.

(٨) إن الموطدين للتمثيليات الشعرية استعانوا بالسماحة في الأسلوب وبالتحرر النظمي فتوسلوا بالشعر الكلاسيكي وبالشعر المرسل وبالشعر المختلط وبالشعر الحر حسب المواقف والمناسبات، في حين قيد شاعرنا يوسف الخال نفسه تقييدًا شديدًا بدل إرسالها على سجيتها، وكذلك كان يفعل معظم القدامى فأساءوا إلى شعرهم وإلى أنفسهم بمجافاتهم التحرر، ومع ذلك يقول الأستاذ يوسف «الخال»: «... قد تكون «هيروديا» آخر ما سأنتجه من أدب في هذا الأسلوب الشعري العتيق؛ فإنه من العبث الاستمرار في استعمال أساليب شعرية لم تعد تصلح للتعبير الكامل الطليق عن خوالج النفس، ولا أعني القوافي والأوزان فحسب؛ بل اللغة نفسها أيضًا.

فأزمة الحياة العربية إجمالًا هي أزمة لغة كما هي أزمة عقل، ومهما طال الوقوف في وجه الحياة فلا بد عاجلًا أو آجلًا من الانصياع إلى نواميسها، وإلى

أن يتم ذلك يظل الأدب العربي الحديث أدبًا مصطنعًا محدودًا لا يتجاوب مع نفس القارئ ولا يعكس حياته.» وعندنا أنه لا غبار على أي أسلوب يطابق مقتضى الحال، وإنما العيب هو الافتعال والتصنع والنحت المُغالى فيه.

ولا يسعنا في ختام هذه الكلمة إلا أن نقول لشاعرنا الفاضل: «أحسنت»، وإلا أن نطالبه بأخرى من آثاره الشهية، صحيح أن أعلامًا من أدبائنا كالدكتور «فيليب حِتّي» والدكتور فؤاد العقل اشتهروا بآثار معدودة، ولكن كلًّا منها بمقام ألفٍ، وليس بوسعنا أن نكون قنوعين بالقليل من آثار القديرين مهما يجيدوا، فإلى اللقاء يا أستاذ «يوسف» مع كتابك التالي، وإليك تحياتنا وتحيات لغتنا الشريفة.

الارتجال في الشعر

من روائع الشعر العربي آيات ألهمها الارتجال، وقد اشتهرت في كتب الأدب عن طائفة كبيرة من الشعراء؛ «كأبي نواس» و«أبي العتاهية» و«ابن حمديس» وغيرهم، في مواقف دعت إليها الإجازة الشعرية، وإنها في الحق لنوادر من الفطنة والألمعية، أما الارتجال النظمي في حد ذاته فلا قيمة له؛ لأن غاية ما يدل عليه هو الطبع الموسيقي لدى صاحبه، فإذا لم يساند هذا الطبعَ خيالٌ وعاطفةٌ وفكرةٌ، فغاية ما يأتينا بها كلام مرصوف قد لا يخلو أحيانًا من مُلحة أو نُكتة، ولكن شتان ما بين هذا وبين الشعر الصحيح!

ولعل أقوى الشعراء المعاصرين في الطاقة الارتجالية كان شاعر العراق الشهير عبد المحسن الكاظمي، وكان يجمع إلى جانب الارتجال المعانيَ الشعرية البليغة، وكان طويل النفس يملي شعره بسرعة مدهشة، كذلك كان «حافظ إبراهيم» – وقد خبرْنا شخصيًّا الشاعرين – ولكن حافظًا كان يتهيب نشر شعره المرتجل على الرغم من طلاوته وأصالته.

وهذه أمثلة من الشعر الارتجالي نعرفها ونعرف أصحابها شخصيًّا منذ عهد الصبا، وبعضها ضمنوه قصائدَ لهم، قال السيد «مصطفى لطفي المنفلوطي»:

إذا ما سفيهٌ نالني منه نائلٌ ... من الذمِّ لم يُحْرِجْ بموقفه صدري

أعودُ إلى نفسي، فإن كان صادِقًا ... عَتَبْتُ على نفسي وأصلحتُ من أمري

وإلا فما ذنبي إلى الناسِ إنْ طَغى ... هواها، فما تَرْضَى بخيرٍ ولا شر؟

وقال السيد «مُحَمَّد توفيق البكري»:

حُكْمُ الألى يَحكمونَ الناسَ يُضحكني وســوء فِعلهِــمِ في النــاسِ يُبكيــني

ما الذئبُ قد عاثَ بين الضأنِ أفتكُ مـن هـذي الـوُلاةِ بهاتيـك المسـاكينِ!

وقال «خليل مطران»:

قــالوا «لنــابليون» ذاتَ عَشــيةٍ إذْ كــان يَرقُــبُ في السَّــماء الأنْجُمَــا:

«هـل بعدَ فَتْحِ الأرضِ مِنْ أمنِيَّـةٍ؟» فأجابَ: «أنظرُ كيف أفتتحُ السَّمَا!»

وقال «حفني ناصف»:

أَتُقْضَـــى معـــي إنْ حـــانَ حَيْـــني تَجاربي وما نِلْتها إلا بطولِ عنائي؟!

وأبـذلُ جُهـدي في اكتسـابِ معـارفٍ ويَفــنَى الــذي حَصَّــلْتُهُ بفنَــائي؟!

ويَحْـــــزُنُني ألا أرى لِيَ حِيلَـــــةً لإعطائِهــا مَــنْ يَسْــتحقُّ عَطــائي

إذا ورَّثَ الجُهَّـــالُ أبنـــاءَهم غِـــنًى وجاهًــا، فمــا أَشْــقَى بــنِي الحُكمــاء!

وقال الأمير «شكيب أرسلان»:

بالله لا تَنْــدُبُوا قَتْلــي، ولا تَهِنُــوا بَعْدِي، ولا تُغْرِقُوا في النَّوْحِ والحَزَنِ

إنَّ الشــهيدَ لَحَــيٌّ عنــد خالقــهِ وإنمــا المَيْــتُ حقًّــا خــائنُ الــوطنِ!

وقال «مصطفى صادق الرافعي» (ثم بنى على هذين البيتين قصيدة عامرة له):

بِـــلادي هواهـــا في لســـاني وفي دمي يمجِّدهُا قلبي ويَدْعُو لها فمي

ولا خــيرَ فــيمن لا يُحِــبُّ بِــلادَه ولا في حليــفِ الحُــبِّ إنْ لم يُتَــيَّمِ!

هذه نماذج لما وعته كُنَّاشَتُنَا من شعرٍ ارتجالي معاصر، وقد سألنا بعضُ الزملاء أن نذكر نموذجًا من شعرنا الارتجالي فنقول: إن نماذجه مبثوثة ومُشار إليها في دواويننا، ومن هذا القبيل الرباعية التالية بعنوان «اليد الدامية» عن ديوان «الإنسان الجديد»، وكانت مناسبتُها حوارًا وعتابًا مع نفر من المريدين إبّانَ أزمةٍ نفسية:

قــالوا وقــد شــاهدُوا نَــزْفي وعَــضَّ يـدي مِـن العقـوقِ لإيمـاني وإحسـاني:

«ألم يَحِـنْ أن تَعـافَ النـاسَ مُعْتَـزِلًا؟» فقلــتُ: كــلا، فخلِّــي كــلُّ إنســانِ

لَـئنْ سِـخِطْتُ فحسـبي أن أُؤَدِّبَهـم ولـــن أُفـــرِّطَ في بِـــرِّي وإيمـــاني

أوْلَى لَـدَيَّ عُقـوقُ النَّـاسِ أجمعِهـم مِــنْ أن أقابــلَ عُــدوانًا بعــدوانِ!

وقد قرأنا أخيرًا في مجلة «الثقافة» المصرية١ مقالًا شائقًا عن «الارتجال في الشعر» بقلم الأديب عمر عبده القاضي، زكّى فيه شاعرية عبد العزيز السعدني من شعراء «الثقافة»، وهي التي نوه بها من قبل الشاعرُ «أحمد أحمد العجمي»، ثم خص ببقية مقاله شاعرًا آخر من شعراء الارتجال هو «محمود مُحَّد بكر هلال».

ولا ريب أن شعره المرتجل أو شبه المرتجل لا يخلو من طرائفَ، وبعضُه نظم خَبَري، ومنه ما يسمو نفسُه به كقصيدته في «فلاح مصر» التي استهلها بقوله:

أيُّهــا الكــادحُ الشــقِيُّ المُعَــنَّى آنَ للشــعب أن يــرَى مــا تمــنَّى

ومنه ما يترقرق بالظرف كقصيدته في أزمة تموين البترول بمصر التي تذكرنا بشعر أسعد رستم.

ومهما يكن من شيء فالارتجال في الشعر ظاهرة فسيولوجية فحسب؛ أي إنها في ذاتها ليست معيارًا للتفوق الفني ما لم يصاحبْها بالفعل ذلك التفوقُ الفني دون جهد، وهذا أمر نادر.

الهوامش

(١) العدد المؤرخ السادس من أكتوبر سنة **١٩٥٢**.

شعر النفاق والتسلية

أمَّا أن هناك شعرًا للتسلية فأمر مفروغ منه، بل إن كثيرًا من الشعر العربي يقصد به إلى التسلية فحسب. وعلى وجه التحقيق، هذا شأن الكثير من الشعر العربي الحديث بصفة خاصة، وقد تدلى جانب منه وتدنس بالانحطاط الجنسي، وما كان هذا شأنَ الشعر العربي إبان عظمة العرب بما يعنيه هذا الوصف من تعريف صحيح.

وأما أن هناك شعرًا للنفاق، فهذا أيضًا صحيح، وهذا وصف ينطبق على الكثير من الشعر العربي الذي يطأطئ للطاغوت ويشريه النفوذ، فيمتهن الكرامة الإنسانية، ويقف ضد حقوق الشعب، ويناوئ المثل العليا.

ومن الخطأ أن تظن أن الأثر الأدبي شيء وشخصية الأديب شيء آخر، وأن أدب الصنعة والنفاق يمكن أن يعيش مستقلًّا وينسى أمر صاحبه، فتاريخ الإنسانية ضد هذه النظرية تمامًا، وهذا هو «البحتري» الشاعر المشهور تُنوسيَ الكثيرُ من شعره الذي أملاه النفاق – على الرغم من أن صناعته الفنية واحدة ممتازة في جميع شعره – ولم يعش من قريضه مردَّدًا محبوبًا إلا ما أحست الإنسانية بإخلاصه فيه، مثل سينيته المشهورة التي استهلها بقوله:

صُـنْتُ نفسـي عمَّـا يُـدنِّسُ نفسـي وترفَّعْـتُ عـن جَـدَا كُـلِّ جَـبْسِ

وتماسـكتُ حـينَ زعـزعني الدهـ ـرُ التماسًـا منـه لِتَعْسِـي ونكسِـي

هــذا أيام كــان يــؤمن بهــذه الأنفــة وعــزة الــنفس الأبيــة.

أو مثل تهنئته «للمتوكل على الله» بعيد الفطر:

بالـــبِرّ صُـــمْتَ وأنـــتَ أفضـــل	صـــائمٍ وبسُـــنَّةِ اللهِ الرَّضـــيَّةِ تُفْطِـــرُ
فـــانعَمْ بيـــومِ الفِطْـــرِ عَيْنًـــا، إنَّـــهُ	يـــومٌ أَغَـــرُّ مـــن الزَّمـــانِ مُشَـــهَّرُ
أَظْهَـرْتَ عِـزَّ المُلْـكِ فيـه بِجَحْفَـلٍ	لَجِـبٍ يُحَـاطُ الـدينُ فيـه ويُنْصَـرُ
خِلنـا الجبـال تَسـيرُ فيـه وقـد غَـدَتْ	عُـدَدًا يسـيرُ بهـا العديـدُ الأكثـرُ
فالخيـلُ تَصْـهَلُ والفـوارسُ تَـدَّعي	والبـيضُ تَلمـعُ والأسـنَّةُ تَزْهَـرُ
والأرض خاشـعةٌ تَميـدُ بثقلهـا	والجـوُّ معتكـرُ الجوانـبِ أغبَـرُ
والشَّـمسُ طالعـةٌ تَوَقَّـدُ فِي الضُّـحَى	طَـوْرًا ويُطفئُهـا العجـاجُ الأكـدرُ
حتى طَلَعْـتَ بِضَـوْءِ وَجْهِـكَ فـانجلَى	ذاك الـدُّجَى وانجـابَ ذاك العِثْيَـرُ
فـافتنَّ فيـكَ النَّـاظرون، فإصْـبَعٌ	يُـومَى إليـكَ بهـا وعـينٌ تَنْظُـرُ
يَجِـدُونَ رُؤْيتـكَ الـتي فـازوا بهـا	مِـنْ أَنْعُـم الله الـتي لا تُكْفَـرُ
ذكَـروا بطلعتِـكَ النَّـبيَّ، فهلَّلـوا	لمَّـا طلعـتَ عـن الصُّـفوفِ وكـبَّروا
حـتى انتهيـتَ إلى المُصَـلَّى، لابسًـا	نُـورَ الهُـدى يبـدو عليـك ويَظهـرُ
ومَشَـيْتَ مِشْـيَةَ خاشِـع متواضِـع	لله لا يُزْهَـى ولَا يَتَكَـبرُ
فلـوَ انَّ مُشْـتاقًا تكلَّـفَ فـوقَ	مـا في وُسْـعِهِ لمشَـى إليـكَ المِنْبَـرُ!
أَبْـدَيْتَ مِـنْ فَصْـلِ الخطـابِ	بِحِكْمَـةٍ تُنْـبِي عـن الحـقِّ المُبـينِ وتُخْـبِرُ
وَوَقَفْـتَ في بُـرُدِ النَّـبِيّ مُـذكِّرًا	بالله تُنـذر تارةً وتُبَشِّـرُ

وأما شعره الذي أملته ذبذبته السياسية فقد صدفت الإنسانية عنه، فالنُّبل في ذاته شعر رفيع، وما يطعن هذه الصفة الجميلة لا يحترم على مر الأجيال، ويفقد كثيرًا من الروح الفنية، ولو ادعت الصنعة أنها هي الروح! هذه ظاهرة سيكولوجية ليس بوسع أي ناقد تجاهلها؛ لأن شواهد التاريخ تمنعه من تجاهلها، وقد يكتب كاتب اسمه «فرح أنطون»، أو ينظم شاعر اسمه «نسيب عريضة»، أو يؤرخ محقق اسمه «عبد الرحمن الرافعي»، أو ينتقد أديب اسمه «مصطفى عبد اللطيف السحرتي»، أو يلحن موسيقار اسمه «سيد درويش»، أو تغني مغردة اسمها «أسمهان» أو يرسم مصور اسمه «وانلي»؛ فتحترم الإنسانية الواعية جهودهم؛ لأنها تجد خلف آثارهم شخصيات قوية صادقة الإخلاص، رفيعة المبادئ، متشعبة برسالة سامية، تطل على هذه الإنسانية وتحبها، في حين يُصْدَفُ – على مر الزمن – عن آثار أنجبتها الأنانية والغرور وشر الخصال عامة، واتسمت في جملتها بالنفاق حتى استحال نورُها إلى ظلمة.

وما استساغت الإنسانية أثرًا مجهول الأصل، إلا وتوهمت لصاحبه خصالًا جميلة، حتى في الأديان الوضعية الجديدة نرى حوارييها يَجهدون لإظهار أربابها في صورة نورانية من النبل كيما يُقْبَل عليها بانشراح، على اعتبار أن التراجم والآثار شيء واحد.

أما أدب التسلية من قَصص ونوادرَ وروايات وأوصاف نثرًا ونظمًا فلا أول له ولا آخر، والجماهير بطبيعة الحال مشغوفة بأدب التسلية، ومن قبيله أدب الرنين الموسيقي الذي لا تعمُّقَ فيه من تأملٍ وفلسفة، ومن طرازه شعر التهويل **Poetry of fantasy** الذي نلمحه في وقتنا الحاضر بنماذجَ من الشعر العراقي والأردني والفلسطيني خاصة، وقد انتقل تقليدُه إلى لبنان، وهو شعر طريف رشيق، ولكنه لا يسوغ غرور أصحابه الذين يتوهمون أن الشعر محصور في هذا اللون من الشعر

فحسب، حتى إنهم لَيَسْخَرُون من كل ما عداه من الألوان، في حين أنهم وضعوا أنفسهم في سجن انفرادي لا يستطيعون الفَكاكَ منه، واتسمت محاولات بعضهم فيما عداه من ألوان الشعر بالفشل التام، فهم أعجزُ من إبداع شيء في النيوكلاسيكية أو في الرومانسية المتزنة، ويكاد كل إبداعهم يُحصر في السريالية المتطرفة، وقد حَسِبَ بعضُهم ترحيبَ صُحُفِ المهجر دليلًا على الإقرار بأنه لا شعر غير شعرهم، في حين أنهم لا يمثلون إلا فرعًا من دوحة باسقة، أو جِزْمًا من عالم فسيح.

إن أمريكا مهد السريالية في الشعر بل في الفنون الحديثة أيضًا كما أنها مهد الشعر الحر، ومع ذلك لا ترتفع منها أصوات الغرور ضد الألوان الأخرى في الشعر الرفيع، والفكرة السائدة أن هناك شعرًا سهلًا ينظم على السجية، ولا عمق فيه كشعر «البحتري» أو ابن نباته في العربية، وهذا حبيب بطبيعة الحال إلى الدهماء والسطحيِّ الثقافة، وأن هناك شعرًا بعيد الغور كشعر «أبي تمام» أو «ابن الرومي» يستمرئه الخاصة؛ لما يوحيه من فكر وتأملات إلى جانب مثاليته الرفيعة، والناقد المستقل يشعر بأن ثروة الأدب تشمل جميع «الضروب».

أما بين أبناء العربية فلا يزال النقدُ عاثرًا أعرجَ؛ ذلك لأن الأغلبية الساحقة من النقاد ليس لديهم من أدوات النقد الأدبي السليم كثير ولا قليل، فإن آفاقهم ضيقة ومعارفهم سطحية، بل لقد انتقلت العَدْوَى من احتراف الصحافة إلى احتراف النقد الأدبي، بعد أن كانت الأولى تجتذب إليها كلَّ مَنْ هَبَّ ودَبَّ قبل أن أصبحت من الدراسات الجامعية المحترمة، وقبل أن نُظِّمَتْ لها نقاباتُها وحُرِّمَ الانخراط فيها على غير المثقفين المتخصصين، وليس كذلك حال النقد الأدبي المسكين الذي ما يزال تحت رحمة الانتهازيين السطحيين وأنصاف المتعلمين الذين يبيحون لأنفسهم إصدار الأحكام الجريئة ولا أحكام النفي والإعدام والحجر والحرمان في بلاد السوفييت!

إن الشعر شعور، ومردُّ الشعور إلى العقليْن: الواعي، واللاواعي، وهذان كثيرًا ما يتلاقيان، وعندما يتلاقيان كثيرًا ما يغرِّد الشعر بأنفس روائعه: كقصيدة «المتنبي» في إصابته بحمى الملاريا، وكَمرثية «المعري»: «غير مجد في ملتي واعتقادي»، والشعر الذي يمليه العقل الواعي وحده ليس شعرًا إذا دار حول نظرياتٍ وقواعدَ وقوانينَ وطلَّق العاطفة، وهذا ما نجده في نظم الفقهاء، والشعر الذي يمليه العقل الباطن وحده – وقلما يكون ذلك – هو شعر خالص يعتمد على الخيال والتهويل، مثل قصيدة «ظِلّي»، ديوان «الشفق الباكي»:

أيها الزنجي قل لي كيف قد أصبحت ظلي؟!

أما الشعر الذي يزاوج بين العقل الواعي واللاواعي «الباطن» فهو في رأينا أسمى الشعر متى جمع إلى الخيال والتأمل والعاطفة فكرة أو مثالية سامية، وشواهد هذا الشعر قليلة في أية لغة؛ لأنه من النادر وجود الذهن العلمي الأدبي العاطفي في وقت واحد.

صحيح أن الشعر الجميل في أية لغةٍ جميل في غيرها متى لم يكن معتمدًا على الرنين الموسيقي فحسبُ استهواءً للأسماع، وسترًا لضعف الطاقة الشعرية ذاتها، والحديث عن القلب كمنبع للشعور والعاطفة إنما هو حديث مجازي؛ إذ مَرَدُّ العاطفة – التي هي عنصر هام في الشعر – إلى العقلين الواعي واللاواعي معًا: عقلَي النضوج والطفولة، والفكر والأحلام، والحقيقة والخيال، وليست العاطفة إلا تجاوبًا بينهما وتجاوبًا مع المؤثرات الخارجية في آن واحد، وليس صحيحًا ما يقال إن أشكال العاطفة والفنون المنبثقة عنها ستبقى كما كانت منذ الأزل، فالزمن والمحيط يؤثِّران على تلك الأشكال وعلى الفنون الناشئة عنها باستمرار وفي تطور متواصل، على الرغم من أحكام الغريزة، كما أن التناول الفنيَّ لأي موضوع ليس محدودًا بل جِدُّ منوَّعٍ لفظًا وصورة.

وكما خسرت الثقافة العامة طويلًا بتحكم السطحيين والجاهلين، كذلك خسر وما يزال الأدب عامة والشعر خاصة – إن لم نقل الفنون أيضًا – في العالم العربي بتحكم السطحيين والجاهلين الذين تملي عليهم هوائيَّتُهم الأحكامَ الشاذةَ الفاسدة.

إن الفن الخالد – والشعر فرعٌ منه – هو التعبير الأصيل الخلاق عن الحق والجمال، وقَصْرُ هذا التعبير على نماذجَ معينةٍ بالذات شَطَطٌ في شَطَطٍ، هذا ما عرفه الغرب فأفلح، وقد عكس إيمانه هذا في متاحفه المنوَّعة المتباينة، وأما في الشرق فما يزال حب التحكم سائدًا، ولا بد من أن يخضع الشعر لأشكال معينة ولموضوعات معينة، وإلا فلن يُعَدَّ شعرًا! وهذا تعسُّفٌ عجيبٌ ليس بعده تعسف.

لقد كان النزاع قديمًا حول الشعر بين المحافظين والمجددين؛ أما الآن فهو غالبًا ما بين المجددين وحدهم، وقد دخل في رَوْعِ بعضهم وفي رَوْعِ من جاراهم من المهللين أنهم كلما شطوا وتهوروا كانوا أعظم تحليقًا بشاعريتهم، وأن كل من عداهم أدعياء ومتطفلون، وإن عجزوا هم عن الإتيان بمثالٍ واحدٍ غيرَ ما ألفوه، وأكثر ما يصفقون له تلك الفقرات العصبية الجامحة الغامضة، التي كلما ازدادت غموضًا وتدانت في طفولتها عُدَّتْ نهايةَ الإعجاز!

وقياسًا على ذلك لا بد لنا من أن نمحوَ من الوجود تسعة أعشار الشعر العربي بل والفرنجي أيضًا، وأن نسخر من النفائس الحديثة التي تظهر في مجلة **Poetry** ومثيلاتها في الأقطار الأمريكية والأوربية، دع عنك الشاهنامة والإلياذة، بل دع عنك شعر إقبال الذي فُتِنَ به العالم الإسلامي أخيرًا، وحتى الشعر الكلاسيكي المأثور كوصف «البحتري» لبِركةِ المتوكل، ووصف «ابن حمديس» للبركة ذات الأسود والأشجار الذهبية الفضية، ووصف «المتنبي» لوقائع سيف الدولة؛ يجب مَحْوُهُ من الأدب العربي؛ لأنه لا يمت إلى العاطفة

بصلة! وفي الوقت ذاته إذا جئت لهم بمنوَّع من الشعر الكلاسيكي العصري المفعم بالعاطفة والخيال، والصور والموسيقى، والتأملات الوجدانية الفنية قال قائلهم مكابرة: هذه ليست من جِنان الشعر، بل هي لوافحُ الصحراء وسمومها!

وصفوة القول: إن شعر النفاق والتسلية قد جنى على الأدب العربي كما جنى على الذوق النقدي جناية السطحية والجهل والأهواء عليها، وهذه حالة مرضية يجب علاجها على ضوء الآداب العالمية؛ برًّا بمواهبنا وبتراثنا المجيد.

مدرسة «البارودي»

يُسعدنا أن تصل إلى يدنا مجلات ثقافية بلغتنا الشريفة من أقطار شتى بين عربية وإسلامية وسواها؛ لأنها تحمل الدليل العملي على حيوية لغة الضاد ومبلغ انتشارها أو نفوذها الأدبي، ومن بين هذه المجلات التي تلقيناها أخيرًا مجلة «هنا طرابلس الغرب»، وهي مجلة نصف شهرية مشرقة يصدرها «مكتب إذاعة طرابلس الغرب»، ويرأس تحريرها الأستاذ «علي مصطفى المصراتي»، ويُسْهم في تحريرها صفوةٌ من الأديبات والأدباء الليبيين وبعض أعضاء البَعثة المصرية التعليمية، وقد استرعى انتباهَنا بعددها الصادر في نوفمبر سنة **١٩٥٤** مقالٌ بعنوان «مدرسة حافظ إبراهيم» للأستاذ «محمَّد المهدي أبو حامد»، فأحببنا أن نقول إن ما نُعِتَتْ بمدرسة «حافظ إبراهيم» هي ما تعرف من قديم «بمدرسة البارودي»، فحافظ إبراهيم هو تلميذ «البارودي» شاعر «الثورة العرابية» الأول، أو على الأقل شاعر الوطنيين المثقفين في عصره حينما كان «عبد الله نديم» شاعرَ «الشعب»، فجاء «حافظ إبراهيم» يقتفي خطوه ويستوحي رُوحَه، وكلاهما كان جنديًّا ونصيرًا للحرية ومولعًا بالفصحى. جاء «حافظ إبراهيم» مكمِّلًا لرسالة البارودي أستاذه الرائد، وزاوجَ في التبسط بين «أسلوب البارودي» و«ديباجة النديم»، فجاء أغلب شعره أسلس، وأقرب إلى التذوق العام.

ولكن الأهمَّ من الديباجة والتناول، الروحُ الوطنية الصادقة النبيلة التي نبض بها شعره، وقد أوحت إلى جيله وإلى شعراء الوطنية بعده، فإذا ذُكر «الشابي» من بينهم فما في ذلك افتئات من وجهة عامة، ولكن «الشابي» كان أقرب في ذوقه الفني إلى الرومانسيين والواقعيين معًا من «مدرسة أبوللو»، ومَنْ أَحَبَّ أن يعرف نفسية الشابي الحقة وكفاحه الوطني فليرجع إلى كتاب «كفاح

الشابي أو الشعب والوطنية في شعره» للأديب التونسي اللامع الأستاذ أبي القاسم مُحَمَّد كِرُّو»، فهو ابن وطنه ومحبُّه وخيرُ من أرخ له عن فهم ومقدرة، وستكون لنا وقفة بل وقفات مع الشابي الحبيب، ومع الصديق الوفي المترجم له، وبحسبنا هنا أن نقول: إن «مدرسة البارودي» الرائدة هي مدرسةُ وطنيةٍ وبعث أدبي، وقد تأثر بها جميع الشعراء الوطنيين المجلين في أواخر القرن الماضي خاصةً.

الأدب العربي في المهجر

أتحفنا الأستاذُ الأديب «عبد الحميد الأنشاصي» من «نابلس» بكتابه «عطفُ أمٍّ وقصصٌ أخرى»، الذي أصدرته «دار سعد مصر» بالقاهرة، وسألنا أن نسعى في ترجمته، وردًّا عليه نذكر أنه لا أحب لدينا من ترجمة أدبنا العربي قديمه وحديثه بشرط أن يكون أدبًا إنسانيًّا رفيعًا، فإن ثقافتنا هي عِرْضُنا؛ وهذه الثقافة تشمل ضروب الأدب والفن والعلم والدين؛ ولهذا نجد بين الأدباء المسيحيين مثلًا مَنْ يَغَارُ على الثقافة الإسلامية ومن يغار على سمعة نبي الإسلام ويعده قبل كل اعتبار بطلًا عربيًّا ومصلحًا فذًّا، ويحسب كل هذا ذا صلة وثيقة بكرامته القومية.

ومثل هذا الشعور نجده متجلِّيًا في «أمريكا» بين جميع الجاليات الأجنبية الأرومات، ومن بينها الجالية العربية، ولكن الجالية العربية – والقسم الإسلامي منها خاصة – بحاجة ماسة إلى المعونة المالية المنتظمة السخية من الحكومات العربية والإسلامية عامة؛ لتقوم بواجب التنويه بالثقافة العربية أو الإسلامية؛ ولتعمل على تدريسها في المعاهد والجامعات، كما تصنع جميع الجاليات الحية في هذه الربوع، بل في المهاجر كافة، وإزاء هذا العجز المادي الذي لا مسوغ له، ليس من الميسور القيام ببرنامج واسع جدير بالذكر لخدمة الثقافة العربية الإسلامية، فضلًا عن ترجمة الآثار العربية. وهذا هو العلَّامة الدكتور «محمود حُب الله»، مدير «المركز الإسلامي» بوشنطن، لم يقصر في رسم موازنة معقولة لتحقيق هذا الواجب المُحتَّم على كل عربي وكل مسلم مستنير أن يُسْهِمَ فيه بالمال أو بالسعي، كما هو محتم على الحكومات العربية والإسلامية، وحتى الآن لا يزال مشروعه الجليل معطلًا بسبب التهاون، وبسبب اهتمام تلك الحكومات

والأفراد – إلى حَدِّ المبالغة – المعيبة بالسياسة وحدها، في حين أن منافسيهم يُعْنَوْنَ بالثقافة عنايتهم بالسياسة ويبرزون شخصيتهم القومية كاملة، لإيمانهم بأنها وحدة لا تتجزأ، فما يُصْغِرُ ثقافتَهم يُصغر وضعهم السياسي ويسيء إلى قضاياهم.

وهذا ما أدركته حتى روسيا الشيوعية التي تُنْفِقُ الآلاف المؤلفة من الدولارات، بل قُل الملايين العديدة، للتنويه في الخارج بثقافتها وأعلامها في الأدب والفن والعلم، محاولةً إقناع العالم بأنها أمة عريقة في المعرفة والحضارة، فما أحرى الشعوب العربية والإسلامية بأن تنهج هذا النهج، بدل أن تتوهم أن ما يكيف الأمم ويصونها هي الماديات وحدها!

وبعد، فالأدب العربي في المهجر يغنيه بلا ريب النقلُ إليه والنقل عنه، ولكن بدون هذه اليقظة التي ندعو إليها لا يمكن أن يتحقق هذا الأمل. ونعتقد أن سفراء الدول العربية والإسلامية في العواصم المختلفة مسئولون عن تحقيق هذه الخطة، ومسئوليتُهم عنها في «وشنطن» عاصمة أقوى أمة في العالم وأبعد الأمم حضارة مسئوليةٌ لا يستهان بها، والتهاون إزاءها بعيد الخطر.

وإننا لنعد مشروع العلامة الأستاذ الدكتور «حب الله» بعيد الخطر؛ لأنه يدافع عن عرضنا بأكرم صورة في بلاد عظيمة النفوذ، تؤمن بالعدل وتطبقه، ويهمها الوقوف على حقائق الشعوب، والارتشاف من ينابيع مدنيَّاتها، والدفاع عن حسناتها؛ كأنها تنتسب إليها، وكل هذا له أثره في الجو السياسي الذي يُشغل به وحده أقطاب العروبة والإسلام أو يكادون مع الأسف، فيسيئون إلى قضاياهم من حيث لا يدرون!

والأدب المهجري في أمريكا متأثر إلى درجة محسوسة بالبيئة الأمريكية الحرة، ولا مفر من اهتمام «المركز الإسلامي» بتدريسه متى تحقق نظامه

التعليمي، وقد حان له أن يتحقق بعد طول الانتظار. إنه مزيج من الواقعية والرومانسية والرمزية والسريالية وغيرها، ولكن للواقعية نصيب وافر منه، وإذا كانت الواقعية لا تزال منبوذة في العالم العربي تحت تأثير الأدب الفرنسي، أو على الأصح تحت تأثير الرومانسية الفرنسية المتمكنة من الشرق الأوسط وعلى الأخص من لبنان ومصر، فإن لها محلًّا محترمًا في الأدب الأمريكي – أدب الحياة الشاملة.

ولهذا كان تدريس الأدب العربي المهجري، بل وعرض الفن العربي المهجري، من خير المهام التي يمكن أن تُناط «بالمركز الإسلامي» في وشنطن إلى جانب الثقافة الإسلامية، وقد يدخل في مهمته نقلُ كثيرٍ من الآثار العربية بين قديمة ومعاصرة إلى الإنجليزية، ومن بينها مختارات من الأدب المهجري الذي يمثل شعوبًا شتى ما بين لبنانية وسورية ومصرية وعراقية وأردنية وتونسية ومُراكشيَّة وحجازية وسودانية وغيرها وغيرها، وهكذا تصبح مهمةُ المركز الإسلامي الثقافية مهمة ثلاثية ومهمة لا تعلو عليها مهمة، وواجبٌ تسابقُ الدُّول والشعوب العربية والإسلامية وأعيان العرب والمسلمين في العالم الجديد بأسره إلى تحقيقها؛ حرصًا على المنفعة العامة وحرصًا على كرامتهم.

نشأ الأدب المهجري أولَ ما نشأ متأثرًا بحركتين: حركة التجديد الجبارة التي تزعَّمها «خليل مطران»، وحركة البعث الأدبي الأمريكي المتجاوبة مع خير ما في أوربا من أدب. أما الآن فهو أدب إنساني له شخصيته القوية الحرة، وأنصاره مثقفون موهوبون متعددون، وإن لم تكن لهم مجلة خاصة ولا بريقُ مَن سبقوهم في العقد الثاني من هذا القرن، ومع هذا فإن آثارهم التي تطالعنا الصحف المهجرية بنماذجَ منها آثار قيمة لامعة، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل، ولا تستحق هذه النماذج أن تدرس فحسب، بل تستحق أن تترجم صفوتها أيضًا؛

ليعرف الأمريكيون أية مثالية رفيعة تجول في نفوس العرب الأمريكيين؛ كما تجول في نفوس أهليهم في مواطنهم الأصلية، مما يؤدي إلى احترام النفسية العربية.

ولنذكر على سبيل المثال قصيدة «يا سلم»![(١)] التي ترجمت إلى الإنجليزية وانتفعت بها دوائر الأمم المتحدة في دعايتها النبيلة للسلام، وقد جاء فيها:

يا سَــلْمُ! خــيرٌ أن نــراكَ مُزَعْزَعًــا ... مِــنْ أن نَــرَى للحــربِ سُــوقًا بَيْنَنــا

يا جاعــلَ النــيرانِ جَنَّــاتٍ لنــا ... ومُطَهِّــرَ الإنســانِ حــتى آمنــا

لا تُلْقِنــا يأسًــا وصَــبْرًا، رُبَّمــا ... عَلَّمْتَنَــا وصَــقَلْتَنَا فَخَلَقْتَنَــا

إنْ كنــتَ ترجــونا الفِــدَاء فَكُــنْ لنــا ... بعضَ الفِدَى، فَنَرى السَّعادةَ والغِنَى

يا نفحــةَ الأربابِ حــين تَجــاوَبُوا ... والفَــنَّ، فابتــدعُوا ســناكَ فَهَيْمَنَــا

إنْ تَبْــقَ حارسَــنا رفعــتَ نُفُوسَــنا ... وإلى الحضــيضِ تَــزِلُّ إمَّــا فُتَّنَــا

ولــئن تمــادَى الأشــقياءُ بِغَبْنِنــا ... فكــنِ المــلاذَ ولا تُسَــوِّغْ غَبْنَنَــا

إنْ نحــن ضِــعْنَا ضِــعْتَ أنــتَ وإنْ ... تَصُــنْ آمالنــا صــانتكَ كنــزًا يُقْتَــنَى

ويَجِــيءُ يــومٌ لِلْحَيَــاةِ مَقَــدَّسٌ ... فتكــونُ معبــودَ الحيــاةِ المُعْلَنَــا

لــولاك كانــتْ مثــلَ أشــباح الــرَّدَى ... بِجَهــنَّمٍ، لا مثــلَ أطيــافِ المُــنَى

فأجِــبْ دعــاءً لِلْبَرِيَّــةِ، شــاملًا مَــنْ ... قــد أســاءَ لنــا ومَــنْ قــد أَحْسَــنَا!

وثمة قصائدُ أخرى وآثار أخرى ممتازة لشعراء وأدباء مختلفين حَرِيَّةٌ بأن تُتَرْجَمَ، كما هي حرية بأن تدرس في الغرب والشرق على السواء، كما صرح لنا غير مرة الأستاذ مُحَمَّد كفافي أستاذ الأدب المقارَن بجامعة القاهرة، ولكن أنَّى

لنا ذلك قبل توفير المال (وهو ميسور فعلًا) بإسهام الدول والشعوب الإسلامية المختلفة والجاليات العربية والإسلامية في أمريكا بهذه المهمة؟! ثم كيف يتيسر ويتوافر المال – وإن كان في متناول الأيدي، وإن كان المطلوب غيرَ جسيم – قبل تبديل العقليات الجامدة والنفسيات التي تحلم بالظهور من أهون طريق وبأرخصِ وسيلةٍ، بدل البذل السخي البريء لوجه الله والوطن؟!

الهوامش

(١) عن ديوان «إيزيس» ١٩٥٤م.

خليل مطران

قل بين أعلام الأدب والشعر والفن من نَتَهَيَّبُ الحديثَ عنهم تَهَيُّبَنَا الحديثَ عن المعلم الأول «خليل مطران»، الذي ولدت الرومانسية والرمزية الحديثة في العربية على يديه، قبل مطلع القرن العشرين، فإن المنن الضخمة التي أسداها هذا العَلَمُ الشامخ إلى الشعر العربي الجديد نظمًا أم نثرًا وشرف بها «مصر» وطنه المختار؛ فوق تقديرنا. ومن السهل الآن على بعض تلاميذه أو على نفر من تلاميذ تلاميذه أن يجحدوا كل هذا، ولكن التاريخ الأدبيَّ لن ينسى ذلك، بل إنه ليردده بإعزاز.

تألق نجم «خليل مطران» في الربع الأخير من القرن الماضي، تَأَلُّقًا لم يُعْهَدْ في شاب مثله من قبلُ، تألقًا جادت به عبقريته الموروثة وتعليمه الممتاز وحوادث زمنه المثيرة من سياسية واجتماعية واقتصادية وسواها، ومثل هذا التألق المنقطع النظير لم تقترب منه ألمعيةُ «المعري» ولا «أبي تمام» ولا «المتنبي» ولا «ابن الرومي» في صباهم على جلالة خطرهم فيما بعدُ.

و«مطران» أحد العباقرة الذين تشهد حياتهم بفضل المرأة، فإن هذا الشاعر اللبناني – الفلسطيني الأصل الذي شهد النور أول ما شاهده في يوليو سنة ألف وثمانمائة واثنتين وسبعين للميلاد بمدينة «بعلبك»، وقد زادها خلودًا أدبيًّا بإحدى قصائده الرائعة – إن هذا الشاعر الفذ ليدين وراثيًّا بحاسته الشعرية إلى جدته لأمه، وبالرجاحة لأمه «مَلكة الصَّباغ»، كما يدين لوالده «عبده مطران» و«لآل مطران» بالسخط على الظلم وبمحاربة الجبابرة، وكثيرًا ما سمعت شاعرنا يذكر أمه بحنان وإجلالٍ بالغيْن ويُنوّهُ بفضلها البارز في تكييف

شخصيته، وبهذا يشهد أيضًا الأديب المصري الأستاذ «وديع فلسطين» الذي لازم شاعرنا ملازمة شبه دائمة في أواخر عمره.

لقد تشرَّبَ «مَطرانُ» حُبَّ الحرية منذُ صغره، وتمكن منه هذا الحب إلى نهاية أجله، في صبيحة الأول من يوليو سنة ألف وتسعمائة وتسع وأربعين بالقاهرة.

ولئن تَطَبَّعَ مَطران بعادة المراجعة والمعاودة «وبالتقية أحيانًا»؛ وفاقًا لتعاليم أمه الرزينة الصالحة، وتبعًا لسلوكها الحكيم فإن صاحب «مقتل يُزَرْ جُمْهِرَ» و«نيرون» لم يتبدَّل مثقال ذرة – رغم وطأة الأحداث والعلل، وآخرها النقرس الذي قضى به نحبه – ولم يتحول عن روح الثورة على الطغيان وإلهام الشعوب العربية أسمى معاني الديمقراطية.

طلع «مَطرانُ» على الشعر العربي، وخير ما ظهر فيه حينئذ «التجديد الكلاسيكي» الذي أنجبه «محمود سامي البارودي» و«شكيب أرسلان»، فأشرق بفنون من الشعر الأصيل نَبَّهَتْهُ إليها روحُه الإنسانية ومطالعاته العالية الجمة، وإن تكن تلك المطالعات باللغة الفرنسية، ولازمه طولَ عمره حبُّ الاطلاع الواسع هذا؛ فانتظم المعرفة بآداب كثيرة؛ من غربية وشرقية، بله الأدب العربي الصميم القديم والمعاصر، وهكذا مَجَّ للأدب الجديد من ألوان الرحيق الشهي، ما أثر في جميع رواد الشعر الحديث على اختلاف مشاربهم، سواء اعترفوا بذلك أم لم يعترفوا، وسواء أشَعَرَ وَعْيُهُمْ بذلك أم لم يشعر.

ولكن الناقد الأدبي المستقل المطلع على «المجلة المصرية» وعلى كتابه «مرآة الأيام» وعلى شعره المنظم والمنثور المتعدد النماذج؛ لا يمكنه إلا الإقرار بفضل هذا المعلم المرشد الملهم، الذي خلق آفاقًا جديدة من التأمل والأحاسيس والتصوف، حتى استحق أن يُدْعَى «شاعرَ العربيةِ الابتداعيَّ الأولَ».

وما كان الشعر العربي في أي وقت فقيرًا في «المذهب الواقعي» ولا في الحكم التجريبية والأمثال الفلسفية، فلم يجئ «مطران» ولا أحد بعده ببدعة في هذا الباب، اللهم إلا في أسلوب التناول الفني الطلق، وإنما جاء «مطران» وتلاميذه بما هو أعظم؛ جاء «مطران» بمذهب الحرية الفنية الصحيحة، التي تحترم شخصية الفنان واستقلال الفن عن الصناعة والبهارج والأناقة الزخرفية، وكلِّ ما يفرض العبودية على الفن والفنان من ألفاظ وقيود اتباعية، لا يحتمها الجمال المطبوع وأصالة الفن.

دَعَمَ «مطران» وحدة القصيدة وشخصية الفنان، وعزز رسالته كما تدعم الديمقراطيةُ حقوقَ الإنسان، وفتح له باب الحياة على مصراعيه كما أفسح له آفاق الخيال، وأبرز له كل شيء في هذا الوجود – صغيرًا كان أم كبيرًا – كموضوع شعري خليق بعنايته وأهل للتناول الفني إذا ما استطاع الشاعر أن يتجاوب معه، وحبب إليه الموضوعات الإنسانية بدل الاقتصار على العواطف الذاتية فحسب، وأقنع شعراء مدرسته بأن على كل منهم رسالة مثالية لا بد له من أدائها، وليست وظيفة الشاعر أن يكون نَظَّامًا لُغويًّا، أو بين «المرتلين الانتهازيين»، بل عليه أن يكون بين زعماء الفكر، ورسل الوجدان، ودعاة الإصلاح، وأعلام الإيمان؛ لجيلهم ولما بعد جيلهم، وأن يجمع بين كل القيم التي تؤهل للزعامة الروحية والعقلية، والتي تزاوج ما بين أحلام الفنان، وحكمة الفيلسوف الواقعي بهذه التعاليم وما إليها. أنجب «مطران» وتلاميذه إنجابًا ممتازًا شرَّف العربية كما أغنى الأدب الإنساني الصادق، ولئن كانت لمطران مناسبات شتى لقصائده العامة تبعًا للأوضاع الاجتماعية والسياسية في مصر والشرق العربي، إلا أن جميع هذا الشعر زاخر بكل العناصر الرفيعة، التي يتميز بها شعره كيفما كان عنوانه وموضوعه ومناسبته.

وعاطفة الحب التي ألهبت فؤاد «مطران» في صباه، ثم ألقته في لجة الحزن

العميق بقية حياته، هي دعامة الزاوية في بنيان شعره الوجداني، وهي التي أسبغت الحنان على إخوانياته العديدة، من ذكريات وتقدير ورثاء، التي حفل بها ديوانه الرائع.

وإن نماذج الخيال الشعري المدهش في قصائده لأعظم من أن تحصر، ومن أقدمها قصيدته «فنجان قهوة» التي قال الأستاذ «عيسى خليل صباغ» عن خياله فيها: إنه تجاوز فيها غاية ما يبلغه قارئ البخت في فنجان القهوة!

«وخليل مطران» الشاب الذي رمى أعوانُ «عبد الحميد» سريرَه بالرصاص، والذي راح يتنقل من قُطر إلى قطر؛ فرارًا من وجه الظلم، والذي احتضنته «مصر» وتبنته عمرًا طويلًا، هو «خليل مطران» الكهل والشيخ الذي نظم الروائع منافحة عن الحرية والديمقراطية والكرامة الإنسانية، فغذى بها الشعور الوطني جيلًا بعد جيل!

«وخليل مطران» الأديب اللغوي، تلميذ اليازجيَّيْنِ «الشيخ ناصف والشيخ إبراهيم» وتلميذ ألمعيته، هو الذي خلق العديد من الصيغ والتراكيب البيانية الحرة التي صدمت التقاليد أولًا، ولكن سرعان ما مَكَّنَتْ للعربية وأدبائها من حرية التصرف البياني الجميل؛ وفاقًا لحاجات العصر. «وخليل مطران»، مترجم «شيكسبير»، ونصير الفن، ومدير «الأوبرا» بالقاهرة، والأديب الكريم النفس؛ هو أفضل مثل يضرب إلى جانب «المعري» «وأبي تمام» في البر بالأدباء، مريدين وتلاميذ، بل وخصومًا على السواء في روح فريدة من المحبة والإيثار والإنصاف والتشجيع لمستحقيه.

«وخليل مطران» الاقتصادي المجرب الواعي هو ذلك المعلم الفاضل الحكيم، الذي خدم مصرَ خدماتٍ جليلةً في النقابة الزراعية العامة، وأسدى إليها من آثاره الأدبية الاقتصادية ما لا يزال موضع الإعجاب؛ فكرًا وأسلوبًا وغاية.

هذه لمحات قليلة من شخصية هذا الشاعر الشامخ المتعدد الجوانب، نعرضها في ذكرى وفاته، ومثله لا يعيش في شعره فحسب، بل في أشعار الكثيرين من تلاميذه كذلك في أنحاء العالم العربي، في النهضة الشعرية المطردة الصعود كيفما كانت سِماتُها وألوانها، وخير ترحُّمٍ عليه دراسة آثاره الفخمة واستيحاؤها.

ولا يفوتنا أن نذكر في ختام هذا الحديث المجمَل أن «مَطْرَانَ» الصحفي النزيه الذي خدم القلم والقومية العربية والروح الوطنية؛ لأجدرُ الأدباء بإحياء ذكراه السنوية من محطات الإذاعة العربية، فالإذاعة اللاسلكية بنْتُ الصحافة، ومن محطات الإذاعة هذه يجدر أن يجلجل صوت الأحرار بقول «مطران» الرائد في العهد البائد.

شَرِّدوا أخيارهَا بحرًا وبرًّا ... واقْتُلوا أحرارَها حُرًّا فحُرًّا

إنَّما الصَّالحُ يَبْقى صالحًا آخرَ ... الدهرِ، ويَبْقَى الشرُّ شرًّا

كَسِّروا الأقلامَ، هل تكسيرُها ... يَمْنَعُ الأيديَ أن تَنْقُشَ صَخْرَا؟

قَطِّعوا الأيديَ، هل تقطيعُها ... يَمْنَعُ الأعْيُنَ أن تَنْظُرَ شَزْرَا؟

أطْفِئُوا الأعْيُنَ، هل إطْفَاؤُها ... يَمْنَعُ الأنفاسَ أن تَصْعَدَ زَفْرَا؟

أخْمِدوا الأنْفَاسَ! هذا جُهْدُكُمْ ... وبِه مَنجاتُنا منكمْ فشُكرًا!

وبقوله:

أَنَا لا أَخافُ ولا أُرَجِّي ... فَرَسِي مؤهَّبَةٌ وسَرْجِي

فإذا نَبا بي بَطْنُ بَرٍّ ... فالمطيَّةُ بَطْنُ لُجِّ

لا قَوْلَ غيرَ الحَقِّ لي قَولٌ ... وهذا النَّهْجُ نَهْجِي

الوعْـــدُ والإِيعـــادُ مـــا كـــانا   لَـــــدَيَّ طريــــقَ فُلْــــج![1]

وبقوله في مقتل بَزُرْجُمْهِرَ على لسان ابنته السافرة، التي تساءل رسول كسرى متعجبًا عن سبب سفورها:

انظــرْ وقــد قُتِــلَ الحكــيمُ فهــل   تَــرَى إلا رُسُــومًا حولــه وظــلالًا؟

مـا كانـت الحسـناء تَرفـعُ سـتْرَهَا   لـو أَنَّ في هــذي الجُمُــوعِ رجــالًا!

كان ذلك منذ نصف قرن، ولكنَّ «مطران» بقي هو هو شاعر الحرية الجريء، الذي قال في ملحمته «نيرون» بعد ذلك بسنين:

كـلُّ قـومٍ خـالقو (نـيرونهم) قيصـرٌ   قيــل لـــه أمْ قِيـــلَ (كِسْـــرَى)!

قد يمجَّد «مطران» لابتداعه في جميع ضروب الشعر – وليس أهونَها القصص – ولإيحائه بما تركه لغيره، لا عن عجز بل عن سماحة، كالشعر التمثيلي، وقد يمجَّد – كما مُجِّدَ فعلًا لريادته الممتازة في فنون الأدب، ولكن تبقى الصفة الأهم لمطران والنعت الأكرم، فإن شاعر الحرية الفنان الملهم أَولى الشعراء الأحرار في العالم العربي جميعه بأسمى التقدير، من دُوَله وشعوبه دون أيِّ تَحَفُّظٍ، وليس التقدير الصحيح إلا بنشر جميع آثاره، وتعميم درسها وتشرب مبادئها الإنسانية السامية التي تنظر إلى الإنسان الرفيع والفن الرفيع نظرة واحدة.

الهوامش

(١) فلج: ظفر.

أحمد شوقي

كنت أقرأ لشاعر الشباب المهجري «سعيد جبرين» من الشعر الابتداعي قوله الشائق:

وادَّعَى العُشَّاقُ يا مَفْدِيُّ أنِّي مِثْلُهُمْ متِّعْتُ بالأمْسِ البعيدْ

كَذَبُوا! أَمْسِي كيومي ضَاعَ مِنِّي مَوْجَة حَمْقَى على صَخْرٍ عَنِيدْ!

وقوله:

أَتُرَى الزَّوْرقُ يَجْرِي أم تُرَى الشَّاطئُ سَارَا؟

أمْ تُرَى الزَّوْرقُ والشَّا طئُ والرَكْبُ السُّكارَى؟

مَوْكِبٌ قد سَحَرَتْه رَوْعَةُ الليْلِ فَحارَا!

وقوله:

وترْمُقُهُ أيُّ ضَوْءٍ تألَّقَ في ناظِرَيها وأَيُّ غَرَامْ!

كأنْ بَعْدَ هذا الضُّحَى لَنْ يُطِلَّ على ذلكَ الأُفْقِ إلَّا الظَّلَامْ!

وقوله وقد أجاد التفنن:

قالتْ: وحبكَ؟ قلتُ: خَلْفِي في المجيء وفي الرَّواحِ

يَبْكي فأَنْهَرُه فيُمْعنُ في البكاءِ وفي الصِّياحِ

فأَعُلُّهُ بحَصَى المُنَى[1] وأنامُ وهو هُنَاكَ صاحي!

يذكرني هذا الشعر الطريف بالنزعة التي كانت سائدة في الشرق العربي، حتى ربع قرن مضى؛ نزعة العزوف عن الشعراء غير المشهورين، ولولا مكافحة «جمعية أبوللو» الشعرية هذا الاحتكار، وتنويهها في مجلتها بمنوَّع الآثار الجديدة لشعراء الشباب؛ لبقي حتى مثل «أبي القاسم الشابي» خاملًا كما أَخْمَلَ صيتُ الشعراء المقربين إلى الحكام والأعيان في سالف القرون كثيرين من الشعراء المجيدين، وعملت الأهواء عملها في إجحافهم، حتى إن صاحب «الأغاني» أغفل ذكر شاعر موهوب مثل «ابن الرومي»، الذي لم تقدِّرْ بيئته مواهبه أو أساءت فهمه، ثم مَدَدْتُ يدي إلى بريدي الأدبي الأخير، فإذا به كتاب شائق عنوانه «المتنبي وشوقي: دراسة ونقد وموازنة» للأستاذ «عباس حسن» الذي يمثل شعبة اليمين في الثقافة النقدية بدار العلوم في جامعة فؤاد الأول بالقاهرة، فنبهني إلى وجوب التحدث عن الشاعر المصري الجهير «أحمد شوقي»؛ لأن المؤلف الفاضل بهذه «الدراسة» – كما نَعَتَها – إنما أعاد إلى ذاكرتنا تلك الروح التي كانت سائدة إلى ربع قرن مضى، تساندها منزلةُ «شوقي» في القصر، وإن بقيت لها تقاليد عند «المدرسة القديمة» التي يتزعمها الآن بين النقاد في مصر «أحمد حسن الزيات» وبين الشعراء «عزيز أباظة» وإن نافستها مدرسة أخرى، قديمة الوشائج في التأليف والأساليب القائمة أيضًا على التمجيد الفردي، وهذه المدرسة يتزعمها الآن بين النقاد «سيد قطب» وبين الشعراء «عباس محمود العقاد».

وقد كانت المدرسة الثانية في وقت ما تتأرجح نحو التجديد، متأثرة بنقد «عبد القادر المازني» وبشعر «عبد الرحمن شكري»، ثم انصرفتْ إلى لون مزخرف من الجمود وإن وصفتْه بنقيضه. وتقوم في صميمها، كما قامت مدرسة «شوقي»، على مبايعة زعيم أدبي ثم تأليهه، ولا تؤمن بجمهورية الأدب!

ومع ذلك فكتاب الأستاذ «عباس حسن» تحفة في موضوعه؛ لأنه غاية ما

يمكن أن يمليه التأليه الأدبي الذي يتجاهل تجاهلًا تامًّا أصول النقد الحديث، كما يتجاهل الحقائق التاريخية العامة والخاصة، وإلا لَمَا جرؤ على مثل هذه المقارنة العجيبة بين «المتنبي» الشامخ في أصالته وعزة نفسه، وبين «شوقي» الذي مهما تكن مواهبه التي نقدرها قدرَها؛ فقد كان قبل كل شيء شاعرَ البلاط في زمنه، وكان يتتلمذ على «المتنبي» ويحاكيه، ويعارضه، ويقتبس منه؛ كما كان مرآة للشعر الفرنسي، ولم يكن يومًا ما شاعر الشعب بالمعنى الصحيح؛ كما كان حافظ إبراهيم، ولم تكن له نفسية «المتنبي» بأي حال، كما عرفَ وسجَّل ذلك المستقلون من معاصريه النقاد الأدباء النريهين.

لقد بزغ نجم «شوقي» في زمن تألق فيه نجم «خليل مطران» و«إسماعيل صبري» و«حافظ إبراهيم» بصفة خاصة، فكانت «لمطران» رسالة مستمدة من الإنسانية أولًا ومن القومية ثانيًا، إلى جانب شعره الوجداني وشعر الطبيعة المنوع؛ وكانت رسالة «إسماعيل صبري» وجدانية وطنية صرفة، وأقلها الجانب الوطني، وأغلبها شعر العواطف المُتْرَفَةِ التي لا تحمل أية رسالة فوق المتعة الموسيقية والأناقة الفنية للترويح عن النفس؛ وكانت رسالة «حافظ» وطنية سياسية شعبية إلى أبعد غايةٍ، وإن حُفظت له نماذجُ رائعةٌ في شكوى الزمان. وأما رسالة «شوقي» فكانت أساسيًّا التغني بمجد مصر ثم بتاريخ الإسلام والعرب، تسعفه في كل ذلك ثقافته التاريخية، وقربه من ولي الأمر في مصر، واستجابته لميوله حتى تهجَّم على الزعيم الوطني «أحمد عرابي» في الطبعة الأولى من ديوانه، ثم اضطر إلى حذف تلك القصيدة الهجائية وما ماثلها من الطبعة الثانية، أمام سخط الوطنيين والمثقفين المصريين في ذلك الحين، ولا ريب أن «شوقي» كان صادقًا في تاريخياته المنوَّعة التي تجلت فيها عبقريته، ولم يبزَّه أحد فيها، وتفوقه في هذا المضمار جدير بالتمجيد والتخليد، وأنه لَرسالة ذات قيمة

كبيرة لا يعاديها أي إنسان حصيف، ولا أي ناقد منصف، إلا إذا جاز أن يعادَى مَنْ يسجل أمجاد التاريخ القومي بإخلاص ولذة، بل وشراهة!

لقد جمع ديوان «المتنبي»[٢] كل شعره، وفيه مَراءٍ مدهشة بين عادية ومكبرة ومصغرة للبشرية ولطبيعة الحياة في أساليبَ مركزةٍ متينة في الغالب، وعلى الرغم من مآخذِ بعضِ النقادِ عليه؛ وعلى الأخص في ديباجته، لم يقل أحد، من البصيرين بالأدب وبالشعر خاصة إنه كان يفتعلُ الشعرَ أو يُعْنَى بالصنعة على حساب ما عداها. بل كان شعره ترجمة حياته وإيمانه، وكان أَسره وبذخه اللفظي مرآة نفسه الضخمة، ولم يكن أي من شعره نظمًا تقليديًّا لأحد، أو مجاراة للعرف أو خضوعًا لإرغام!

وليس كذلك شعر «شوقي»؛ فمن شعر شبابه المهلهل والتقليدي الكثير الذي أُسقط من الطبعة المتأخرة، ومنه ما يعد من شعر المناسبات العابرة الذي لا قيمة له خالدة بمحتوياته؛ لا فنيًّا ولا إنسانيًّا، وهكذا تكون المقارنة ما بين «شوقي» و«المتنبي» من أساسها باطلة.

إن طاقة «شوقي» الفنية عظيمة وموسيقاه أعذب في جملتها من موسيقى «المتنبي»، ولكن طاقة «المتنبي» الفنية أعظم وأصالته أجل، وليس هو الشاعر المنافق الكذاب الحاقد المستجدي السفيه كما وصفه الأستاذ «عباس حسن»؛ لأن «المتنبي» لم يقصد «كافورًا» إلا وهو المطلوب المُلَحُّ عليه، لا الطالب المستجدي، وقد صُوِّرَ له «كافور» بصورة العصامي العبقري، الذي يقدر المواهب قدرها، فلما اكتشف خبيئته أعرض عنه، بل سخر منه بأمداح، نابت فيها الرمزية والمبالغة عن كل تهكم مكشوف،[٣] ثم عمل على ترك مصر، بل هجاه وهو مقيم فيها، وإن لم يُذَعْ شعره فيه إلا بعد أن غادرها.

ونفسه العزيزة أبت عليه أن يبقى في بلاط «سيف الدولة» غير مكرَّمٍ،

ولكنه لم يقل بيتًا واحدًا هجاءً فيه، بل على العكس كانت تحن إليه نفسه الوفية، وكان بوسع «المتنبي» أن يغنم أموالًا طائلة، لو كان هو المستجدي بطبيعته؛ لأن الأعيان الذي تهافتوا على أمداحه كانوا عديدين، بل على العكس كان يعزف عمن لا تجاوب بينه وبينه، وكان يرثي محبةً ووفاءً مَن انعدمت صلاتهم بموتهم.

وعُرِفَتْ عنه عفة النفس، فلم يقل أحد إنه استغل صلته «بسيف الدولة» ولا بغيره في سمسرةٍ تجديه، ولم يقتنِ مالًا ولا عقارًا من طريق خسيس كهذا كما صنع غيره، وكان شريف الخلق من جميع النواحي؛ وإن استثارته عصبيته أحيانًا إلى السخط؛ لأنه كان أبعد الناس عن الكيد، فهجاؤه في ذاته أشرف من الكيد الخفي الذي يلجأ إليه شعراء يتغنون نفاقًا بتمجيد الأخلاق.

لقد كانت «للمتنبي» شخصية واحدة بارزة تجلت في شعره، وأما «أحمد شوقي» كعباس محمود العقاد وإيليا أبي ماضي وأمثالهم، فمن أولئك الشعراء الذين لهم جملة شخصيات و«أحمد شوقي» بصفة خاصة لا يدل شعره على شخصيته إطلاقًا، بل ربما كانت عكسها كما يشهد بذلك جميع معاصريه من المؤرخين النزيهين المستقلين.

وقد عمل «المتنبي» في مصر على تأسيس مدرسة شعرية قويمة، وأحبَّه مفكروها، وإن كرهه عتاتها،[٤] ولم يكن كذلك شأن «شوقي» الذي بر به شعراؤها الشباب حتى بعد مماته، ومع ذلك كان يغار حتى ممن كانوا يُعدُّون في حكم تلاميذه.

وكان «للمتنبي» غرور عبقريته ومواقعه مع مَنْ شاء، وكذلك كان لشوقي غروره، ولكنه جعل مَن حوله يقومون بالمعارك من أجله، بينما تحدَّث هو بالسلام!

ولكن كل هذا من نصيب التاريخ الأدبي الذي لا يَطْمِسُ أي تأليف

متأخرٍ، لمن لم يعش في العصر المؤرخ له، ويجرؤ على تفسير الظواهر على نقيض الحقائق التاريخية الثابتة، في عصر شقي به الشعراء الشباب النابهون بل وغيرهم وسيطرت عليه الأنانية الأدبية، وحب التفرد، بأي ثمن، سيطرة معيبة.

وبعد، فلا ريب أن «أحمد شوقي» في مجمل شاعريته وآثاره مرحلة تقدمية في الشعر العربي الحديث، ولكنه شيء آخر غير ما ذهبت إليه خواطر الأستاذ «عباس حسن».

ونحن نعد ديوان «شوقي» وآثاره الأخرى ثروة للعربية، خلافًا لما يرى «عباس محمود العقاد» وأقرانه الذين لا تصل شاعريتهم إلى شاعرية «شوقي» منزلة وتنوُّعًا، ولو أن «شوقي» في كثير من آثاره جارى عصره وخصوصًا ثقافته الغربية، وما كان للمتنبي أن يصنع مثل هذا في عصر أحكمت فيه القيود، وأناخت عليه التقاليد شكلًا وموضوعًا، وقد كانت ظروف حياته تضطره اضطرارًا إلى أن يكون شاعر المُلْك والعظمة.

ولم يكن احتراف الشعر في زمنه عيبًا بل فضيلة، ولم تكن له مندوحة عنه، ولكنه لم يكن صغير النفس، ولو كان لَمَا حفل به ومجَّده مثل «المعرِّي» الذي كان جد حافل بالقيم الخلقية والإنسانية، فسمى مختاراته من ديوان المتنبي «معجز أحمد».

إن «أحمد شوقي» هو من أولئك الشعراء الذين قلما عاشوا في شعرهم، وإن استمتعوا بنظمه وروحُ الموسيقار تغلب فيه روحَ الشاعر، وأحيانًا تتساويان، وقد يسف في نظم المناسبات التقليدي، كما قد يحلق في روائعَ له تحليقَ الخلود.

ومن الخير للأدب والأدباء أن تُحْصَرَ العنايةُ في الناحية الفنية وحدها من شعره، دون محاولة مثل تلك الموازنة الخاطئة، التي لجأ إليها الأستاذ «عباس

حسن» عن جهل بالتاريخ الأدبي المعاصر، مهما يكن علمه بعناصر الأدب العربي عامة، وتزكيته المحمودة عن هذا العلم.

لقد أثبت «أحمد شوقي» بألمعيته كفاية العربية لاستيعاب المعاني العصرية في أسلوب كلاسيكي ساحر! يمرح فيه الخيال؛ كما تتدلل الموسيقى والمعاني وتتألق الصور فتنةً للقارئين، وخيرُ تحية وتقدير لذكراه حصرُ العناية في هذه النفائس والاقتصار على الموازنات الفنية فحسب؛ إذ في مجالها قد ترجح كفته مرارًا، وفيما عداها قد لا تَشُولُ غالبًا، وعشاق الجمال الفني لا يَحْفِلون بما ليس منه، ولا يشجعون المغالطة في التاريخ، أو ما قد يؤدي إلى تشويه الصور الجميلة بِمِبْضَعِ التشريح والتحقيق؛ كما لا يشجعون الاسترسال عند الدراسة والنقد والموازنة، في متابعة الميول الذاتية، وتجسيم الخيال على حساب الحق والجمال!

الهوامش

(١) في هذا البيت إشارة إلى حكاية أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» والأعرابية التي كانت تعلل أطفالها الجائعين بطهي الحصى!

(٢) أكمل طبعة لديوان «المتنبي» وأصلحها شرحًا هي التي أخرجها «عبد الرحمن البرقوقي» في القاهرة سنة ألف وتسعمائة وثلاثين ميلادية، وفيها تذييل بأبياتٍ ومقطوعاتٍ وقصائدَ «لأبي الطيب» لم تذكر في ديوانه المألوف.

(٣) مجلة «الأهداف» المصرية، مايو سنة ١٩٥١: «بين المتنبي وكافور».

(٤) مقالات «مصر الشاعرة» في جريدة «البلاغ» المصرية للأستاذ «عبد الله عفيفي» بمناسبة الذكرى الألفية لوفاة «المتنبي».

محمد حافظ إبراهيم[1]

إلى هُنَـــــا أيَّتُهــــــا المدينَـــــــهْ ... الحُـــــرَّةُ الفـــــاجرةُ المجنونَـــــهْ

تَمْـــلأ عَيْـــنَيَّ الـــرُّؤى السَّـــجينهْ ... والأدمـــــعُ الواهــــةُ السَّـــــخينَهْ

إنِّي هنــــا أُغربِــــلُ السَّـــــكينهْ ... وأزرعُ الخَـــــــواطرَ الحزينَـــــــهْ

مِــلْءَ ضِــفَافِ الوَحْــدةِ المِســكينَهْ ... وفي يــــدي فَجْـــرٌ ســــتعبدينَهْ

يومَ نُزولِ المِحنةِ الملعونَهْ

لم يقل هذا الشعر «مُحَمَّد حافظ إبراهيم» وإن كان هو القائل منذ نصف قرن:

سَـعَيْتُ إلى أن كِـدْتُ أَنتعـلُ الـدَّما ... وعُـدْتُ ومـا أَعْقَبْـتُ إلا التَّنَـدُّما

سَــلامٌ علــى الــدُّنيا سَــلامَ مَــوَدِّعٍ ... رَأى في ظَــلامِ القَــبْرِ أُنْسًــا ومَغْنَمَــا

أضَــرَّتْ بــه الأُولى فَهــامَ بأختِهــا ... وإنْ ساءَتِ الأُخْرَى فـويلاهُ مِنهمـا!

فَهُــبِّي رياحَ المـوتِ نكبـاءَ واطفئــي ... ســـراجَ حَيـــاتي قبـــلَ أن يَتحطَّمَـــا

فمـا عَصَـمتني مـن زمـاني فضـائلي ... ولكـنْ رأيـتُ المـوتَ للحُـرِّ أَعْصَمَا!

وإنما قال ذلك الشعر في منتصف القرن العشرين شاعر آخر موهوب، اضطرته الحاجة إلى ترك القاهرة والالتجاء إلى سفح «المقطم»، يلتحف السماء ويبيت لياليه على الطَّوى، ساخرًا من المترفين الكسالى، حتى مات ضحية الجوع والحرمان، وكان قبلًا يُنْشِدُ:

إنَّ أشْـــقَى الأحيـــاءِ والأمـــواتِ آدمــــيٌّ يَعـــيشُ بالفلســـــفاتِ
يَتمـــنَّى الخلـــودَ بعـــدَ الممـــات وهـــو حَـــيٌّ معـــذبٌ في الحيـــاةِ!

كما كان يقول بإنسانيته:

وطـــني الـــدُّنيا، ودِيـــني خـــالقي وأَخـــي كُـــلُّ شَـــقِيٍّ في البَشَـــرْ!

ويقول متسامحًا كريمًا:

ربَّمـــا فوَّقـــوا السِّـــهامَ لقتلـــي فـــــــرأوني أُباركُ القاتلينــــــــا!

وجميع هذا الشعر هو من روح «حافظ إبراهيم»، وكان من الجائز أن يقوله، كما كان من الجائز أن تكون نهايته نهاية ذلك الشاعر البائس «صالح علي الشرنوبي»، لولا أن العناية أنقذت حافظًا على يديْ ناظر المعارف المصرية «أحمد حشمت باشا» والأستاذ «الإمام مُحَمَّد عبده».

كان والد «حافظ» أحد المهندسين المشرفين على بناء قناطر «أسيوط»، ولكنه توفي فقيرًا ولم يتجاوز «حافظ» السنتين، فانتقلت به والدته من مسقط رأسه في «ديروط» إلى القاهرة؛ حيث كفله خاله وعُنِيَ بتعليمه الابتدائي والثانوي، ثم انتقل خاله إلى طنطا فانتقل «حافظ» معه حيث لبث بها بضع سنوات مساعدًا في أعمال المحاماة،(٢) وكان يترافع في قضايا المحاكم الجزئية القريبة من طنطا ويكسبها، ويحدثنا خَدِينُ صباه وصديقه الحميم «الشيخ عبد الوهاب النجار» أستاذ التاريخ الإسلامي بالجامعة الأزهرية سابقًا، فينوه بأدب «حافظ»، وما يشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة، وبديهة مطاوعة، وسرعة خاطرٍ وحضورٍ نادرة.

وضرب مثلًا لذلك ما حصل «لحافظ» في عهده الأول؛ إذ أغلظ خالُه القولَ له مرة في شأن من الشئون وزجره، فكتب إلى خاله:

ثَقُلَـــــتْ عليـــــكَ مئـــــونتي وأنا أراهـــــــــا واهيَـــــــــةْ

فـــــافرحْ، فـــــإني ذاهـــــبٌ متوجِّـــــــــةٌ في داهيَـــــــــةْ!

ولكنه لم ينس خاله فيما بعد حينما سجن، فنظم «حافظ» قصيدة للخديوي «محمَّد توفيق باشا» يستعطفه بها على خاله، فوقعت قصيدته من نفس الخديوي موقعًا حسنًا، فأصدر عفوه عن خاله وعينه مدرسًا للأمراء «أحمد سيف الدين» و«محمَّد إبراهيم» و«شويكار هانم»، وبقي بعد مفارقتهما عهد الدراسة يستولي على مرتبه إلى وفاته.(٣)

وذكر الأستاذ «النجار» من آيات ذكاء «حافظ» أنه كان يَسمعُ الفقيهَ في بيت خاله يقرأ سورة «الكهف» أو سورة «مريم» أو سورة «طه» فيحفظ ما يقول، ويؤديه كما سمعه بالرواية التي قرأ بها الفقيه! وكان إذا وقف على بيت نادرٍ، أو شعر بارع، يبادر إلى الأستاذ «النجار» قبل أن يُسْمِعَهُ إنسانًا آخر، ويُسْمِعُهُ ما أعجبه، وكان لا يعجبه إلا كل مرقص مطرب،(٤) وقد لازمت هذه الخلال حافظًا إلى أواخر أيامه.

ولقد كانت أمنيته الكبرى أن يدخل المدرسة الحربية، فتمكن من ذلك بعد انتقاله إلى مصر، ولكن وطنيته كانت أكبر من مظهر الجندية، فعزله الإنجليز منها في السودان، ثم ازداد تَشَرُّبُهُ للمبادئ الوطنية ولفلسفة الحياة العملية بصحبة الإمام محمَّد عبده، فهيأه كل ذلك لأن يكون شاعر الوطنية المصرية المطبوع المجلى، لا يعرف الذبذبة في عقيدته، ولا يُزعزع إيمانَه بمبادئه أيُّ ظرف أو حادث، ولذلك بقيت لشعره القومي حرمة لا تعدلها حرمة أي شعر آخر في زمنه، أوْحتْهُ شجون مصر وشئونها وعواطف أبنائها، وتقدست بإخلاصه العميق لوطنه وترفُّعه عن الدنايا.

إن شعر «حافظ» الوجداني يمثل إنسانيته البَرِمة بالمفاسد والصغائر؛ كما يمثل مرحَه وظرفه، ومنه ما يمثل تعاطفه البشري في النكبات والأحداث العالمية، ولكن أعظم ما يمثله «حافظ» هو «مصر» التي أحبها ودللها، وزجرها وأرشدها، ودافع عنها وسخر مِنْ كُلِّ مَنْ حاولَ أن يثنيَه عن إيمانه وجهاده، وأن يستحوذ على قيثارته.

«حافظ إبراهيم» هو «مصر» العانية الحاضرة، لا مصر القديمة التي احتفى بها «شوقي» أجملَ احتفاءٍ، ولا مصر الإسلامية التركية التي نافح عنها «أحمد محرم» منافحة أجلَّ، فشاعرنا بِسماته وروحه هو هو «مصر» البائسة الوجلة المتيقظة المترددة المتقدمة، فإذا عاتبها أو لامها أو عنَّفها؛ فكأنه يوجه كل هذا إلى نفسه، فلن تسخط عليه «مصر»؛ لأنه توءمها، ولأنه بإخلاصه الناصع فوق كل لوم أو شك، ولو أن بعض النقاد الأفاضل آخَذَهُ على حملته على «المدعي العمومي» في «مأساة دنشواي» باعتباره مصريًّا؛ وإذا كان اللومُ القاسي لا يُوَجَّهُ إلى المصري الضالع مع خصوم مصر؛ فإلى من يُوَجَّهُ؟! ومثل هذا الخطأ في الحكم وُجِّهَ قبلًا إلى الرائد المصلح «جمال الدين الأفغاني»، الذي ألجأه الظلم إلى المهاجرة من وطنه الأول «إيران» والانتساب إلى أفغانستان، التي بَرَّتْ بعلمه وأدبه وحَنَتْ عليه، فقد شاء بعض النقاد أن يتستر على الظلم؛ لأن مرتكبيه هم أبناء وطنه، ولا تزال هذه التعاليم المعوجة تدرس لطلبة؛ العلم حتى الآن! إذن لا أسمي «حافظ إبراهيم» إلا «مصر الشاعرة»، لا ما دون ذلك بأية صورة[٥] فهو الشاعر الشعبي، وهو الشعب عاطفة وأغنية.

لم تكن لحافظ ثقافة «شوقي» التاريخية أو الأدبية الفرنجية؛ فلم تكن له آفاق «شوقي»، بل ولا آفاق غيره من شعراء الشباب المتضلعين من الآداب العالمية، أو أولئك الذين جمعوا بين المعارف الأدبية والعلمية، ولكنَّ طبع حافظ

الشعري كان أصلًا جذابًا، وعلى الأخص في شعره المرتجل الذي كان يرسل فيه نفسه على سجيتها ويتفنن؛ وللأسف ضاع معظم هذا الشعر؛ لأنه لم يكن يدوِّنه؛ معتمدًا في حفظه على ذاكرته القوية وحدها، وكثير منه مداعبات وإخوانيات، تكاد تكون عديمة النظير في الشعر العصري، وبعض هذه المداعبات التي جرت بينه وبين الدكتور الشاعر «إبراهيم الشدودي» تمكنت «مجلة سركيس» من نشره، وحتى هجاؤه اللاذع لم يكن إلا مداعبة. لقد كان لحافظ عبقريته كما كانت لشوقي، بعكس ما زعم أحمد حسن الزيات(٦) الذي قال إن «شوقي» شاعر العبقرية «وحافظًا» شاعر القريحة؛ لأننا نعرف أن لكلٍّ منهما إبداعَه وأصالتَه؛ كما أن لكل منهما إسفافَه.

والفارق بين الرجلين هو الفارق بين طبعين، وثقافتين، وقريحتين، وغيرُ صحيح أن حافظًا كان يتحمَّل من بناء القصيدة إرهاقًا شديدًا؛ فقد كان ارتجالُه للشعر أطوعَ من ارتجال «شوقي» في مجالس سمره، وكان يَسُحُّ بالشعر سَحًّا، وإنما كان يتأنق في التنقيح فحسب، بحكم تأثره المديد بالأدب العربي القديم، فجاءت صياغته ممتازة لا غاية بعدها، في منحاها العربي الصافي.

واعتلَّت صحة «حافظ» في أواخر عمره فَصَمَتَ؛ لا عن عيٍّ؛ بل عن اعتلالٍ فحسب، ولكن بعد أن كان قد زود أمته بأصداء جميلة من روحها، وبصفوة نقية من اختباراته.

وكان «حافظ» يعشق الحرية إلى أبعد حد، ويحتقر متاع الدنيا؛ فكان محسنًا بماله، إلى حد التبذير، ولكنه كان دائمًا ضنينًا بأخلاقه ومبادئه، وهذا ما أكسبه تجلَّة خالدة، فإن بوهيميَّتَه لم تمس أخلاقه الفاضلة. لقد كان «حافظ» مُسْهِمًا بشعره في ثورات فكرية، نهضت بالوطنية المصرية جيلًا بعد جيل، كما كان صادق التجاوب معها، وقصائده السياسة القومية أشهر من أن تَعُرَّفَ.

وهو يُعَدُّ أولَ شاعر مصري نَوَّهَ بعظمة أمريكا الحَرِيَّةِ بالاقتباس منها، وكأنه كان يخاطب أبناء مصر حينما وجه هذا الشعر البسيط الصياغة العميق المغزى إلى الرئيس الأسبق تيودور روزفلت، على أثر خطبة سياسية في «القاهرة» في أوائل هذا القرن:

يا خطيـــبَ «الـــدُّنيا الجديـــدةِ» شَـنِّفْ سَمْـعَ «مصـر» بقولِـك المـأثورِ

واخـبرِ النـاسَ كيـف سُـدْتُمُ علـى النَّـا سِ وجئـتمْ بمعجـزاتِ الـدهورِ

وملكــتمْ أعنَّـــةَ الـــرِّيح والمـــا ءِ، ودُسْـــتُم علـــى رقـــابِ العصـــورِ

قِـــفْ وعَـــدِّدْ مـــآثرَ العلـــم واذكـرْ نِعـمَ اللهِ ذِكْـرَ عبـدٍ شَـكور

وإذا مـــا ذكَـــرتَ أنْعُمَـــهُ الكُبـــْ ـــرى فـلا تَـنْسَ نِعمـةَ الدسـتورِ!

إن «شاعرية حافظ» الثائرة الناقمة التي جاءت بقصائده الخالدة في «دنشواي» و«مصر» ورثاء «مُحَمَّد عبده» ورثاء «مصطفى كامل» و«حطمتُ يراعى» و«رعاية الطفل» و«المناجاة» و«مظاهرة السيدات» وكثيرات سواها؛ لم تعرف المحاكاة التي لجأ إليها «شوقي» في تقليد «المتنبي»، ولجأ إليها «عبد المطلب» في تقليد شعراء البدو، ولجأ إليها «الجارم» في محاكاة الشعراء العباسيين، وإنما جاءت فيض عاطفته وخاطره وإيمانه. و«لحافظ» مفاتن وصفية كما له حكم سائرة، جمع بعضَها «أحمد عبيد» في كتابه «مشاهير شعراء العصر»، وكلها تشع بروح تقدمية جذابة، وإن اتبع غالبًا «المذهب الواقعي» في عرضه، ونادرًا «المذهب الرومانطيقي» القصصي؛ كما في قصيدته «بنت مصر وبنت الشام» وقصيدته «المناجاة».

ولئن أُصْغِرَتْ طاقته الشعرية في نماذجَ؛ كما أُصْغِرَتْ طاقة شوقي الشعرية

في نماذجَ أيضًا؛ فإنها مع ذلك محتفظة بروح قوية؛ لأنها مستمدة من روح الشعب، ومن روح التقدم الذي هو دين الوجود الغَلَّاب؛ ولأنه بسيرته خلق في تاريخ الشعب المصري خاصة سيرة «المصلح» في صورة شاعر، ولأنه عاش في جميع شعره لا في بعضه، وفي آذاننا رنين من حِكَمِه وأمثاله:

إذا اللهُ أَحيـــا أمـــةً لـــن يردَّهـــا إلى المـــوتِ قهَّـــارٌ، ولا مُتَجَـــبِّرُ

•••

إنَّ القويَّ بكلِّ أرضٍ يُتَّقَى

•••

إنَّ المَناصِـــبَ في عـــزلٍ وتوليـــةٍ غـــيرُ المواهـــبِ في ذِكْـــرٍ وتخليـــدِ

•••

أبـــريءٌ عنـــهُ يَعْفُـــو مُـــذنبٌ كيف تُسْدِي العَفْوَ كَفُّ المذْنِبِ؟!

•••

فمـا ضـاعَ حَـقٌّ لم يَـنَمْ عنـه أهلـه ولا نَالَـــهُ في العَـــالَمِينَ مُقَصِّـــرُ

•••

قـد اتُّهِمْنَـا ولَمَّـا نَطِلـبْ جَلَـلًا إنَّ الضَّـعيفَ علـى الحـاليْنِ مـتَّهَمُ!

•••

مَـــنْ رَامَ وصْـــلَ الشَّـــمْسِ حَـــاكَ خُيوطهـا سَـببًا إلى آمالِـه وتَعَلقَـا!

مَرْحَبًـــا بالخطـــبِ يَبْلُـــوني إذا كانـــتِ العلْيَـــاءُ فيـــهِ السَّـــبَبَا!

•••

هَـــلَاكُ الفَـــرْدِ مَنْشـــؤهُ تَـــوَانٍ   ومَـــوْتُ الشَّـــعْبِ مَنْشَـــؤهُ انقســـامُ

لقد عاش «حافظ» عيشةَ الفقير المحسن، وأما ثروته الأدبية وآثارها فلم تُقَدَّرْ بَعْدُ التقديرَ الكافي، وكان أحق الناس بالكتابة الضافية عنه صديقه الأستاذ «عبد الوهاب النجار» أو صديقه «خليل مَطران»، ولكن المنية عاجلتهما، فلم يبق إلا أن نرتقب تحقيق ذلك على أيدي الجامعيين المستنيرين؛ أمثال الأديب الفاضل «روفائيل مسيحة» في مصر، وغيره في بقية العالم العربي، الذي احتضنته شاعرية «حافظ» وإنسانيته!

الهوامش

(١) جريدة «المقطم» بتاريخ ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٥١: مقال بعنوان «نهاية شاعر» للأديب «سيف نديم زمر».

(٢) مجلة «أبوللو»، المجلد الأول، ص١٣٢٤، من مقال للأستاذ عبد الوهاب النجار بعنوان «صفحة مجهولة من حياة حافظ».

(٣) المصدر ذاته ص١٣٢٧.

(٤) المصدر ذاته، ص١٣٢٤.

(٥) «حافظ إبراهيم» الشاعر السياسي بقلم «روفائيل مسيحة».

(٦) ٦. مجلة الرسالة العدد الأول سنة ١٩٣٢.

عبد الرحمن شكري

كاد يمسك بتلابيبي صاحبي متلبسًا بجريمة الإعجاب بشعر لبناني عامي، وأنا أقرأ «ليوسف أسعد غانم» نشيده «مات الليل»:

مــات الليــلْ ومــات الفجــرْ ونُجومـــو عـــنّي غـــابُوا
ومِـــنْ دُونْ ليـــلْ كِيـــفْ بـــدُّو البَـــدْرْ يُطــل ويشْــلحْ تِيــابو؟!
مـــات وورَّثْـــني هُمومُــو صِــرْت هُمـــومْ وفُـــوقي هُمـــومْ
وطـــرطَشْ بيـــدَمُّو نجومـــو ورَشْ جبـــينْ الصُّـــبْح دمُـــومْ!
مـــات يكفَّـــن بغيومـــو وشمـــوع التـــابوت نجـــومْ!
مـــاتْ بتضـــحكْ عيُونـــو والدِّمعـــهْ بعيـــونِ حْبـــابو
عـــامُوتو صُـــوتي بِـــيخن رَبَابي انقطَعـــــــتْ أوْتَارا
وقـــوافي الكانـــتْ بِـــترنّْ قصـــيدي ومَسْـــحِيِّي شـــعارَا
وجِـــراس القلـــب طِـــنّْ طــنّْ دَقَّــتْ حُــزْن عَلَــيَّ نْهــارَا
الليـــلْ نَهـــارْ بِـــدُنيا الفـــن وزِيـــت السَّـــما بقنـــديلو
وبْواب الشِّعر بَوابُو

ولمح على مِنضدتي ديوان «الخليل»، وديوان «عبد الرحمن شكري»، فهز رأسه إشفاقًا علي، وقال: عجبًا! عجبًا! ما الذي يجمع اللبناني بالمصري، والعامي بالفصيح؟! قلت: يجمع بين أولئك الأدب والفن والإنسانية، ألا ترى

روعة الفن في شعر هؤلاء الثلاثة؟! ألا ترى الأصالة والتحرر والابتداع؟! أما «مطران» فبعد أن تشرَّبَ كلًّا من الأدبين العربي والأوروبي أسمَعَتْ قيثارته العرب في العقد الأخير من القرن الماضي ألحانًا لا عهد لهم بها من قبل، وقد دار ابتكاره حول التناول الفني للطبيعة البشرية في صورها المتعددة، ومن بينها نفسه في حالاتها المختلفة، مراعيًا وحدة القصيد، غير متهيب تطويع اللغة للمعاني والأخيلة الشعرية، مرقرقًا شعره الأصيل بالرومانطيقية الفرنسية اللطيفة، وخالقًا بجرأته ومواهبه الفذة مدرسة متحررة نمتْ رويدًا رويدًا، وأثر في أدباء كثيرين من الشبان والمراهقين في ذلك الحين؛ «كأحمد شوقي» و«مصطفى نجيب» و«إسماعيل صبري»، واستمر تأثيره بصور شتى جيلًا بعد جيل، كما تفرعتْ على تعاليمه مدارس شعرية متحررة منوعة؛ منها مدرسة «شكري» التي انتسب إليها «المازني» و«العقاد»، ولكن البون شاسع بين الأستاذ وتلاميذه، وإنْ آثر التواريَ بعد أن أصدر سبعة من دواوينه العامرة القوية الحيوية، ولكن التاريخَ الأدبي الأمين لا يهتم لهذا التواري، وإنما يُعْنَى بتسجيل الحقائق كما هي، ولا يبني استنتاجه إلا على المنطق السليم، دون أي تحيز أو تعصب، ودون أن يخدعه أي بهرج زائف يجمعه الاشتغال بالسياسة والصحافة، وقد زهد فيهما «شكري» بدرجة إقباله على الثقافةِ العالمية، دراسةِ علم النفس التطبيقي؛ كما تشهد بذلك مقالاته المسلسلة الشائعة في مجلة «المقتطف».

لا نعرف لشاعرنا الرائد ما يمكن أن يُنْعَتَ بالشعر التقليدي، إلا ما نظمه غناء؛ لأن روحه المتحررة كانت ناضجة بارزة حتى في ديوانه الأول، ومن ذلك الشعر الغزلي «الليريكي» قصيدته التي يقول فيها:

جَعلـتُ فيـكَ علـى العِـلَّاتِ آمـالِي   لمَّا انْتَزَعْـتَ حـديثَ اليَـأْسِ مِـنْ بالي

وقصيدته التي مطلعها:

شَكَوْتُ إليهِ ذِلتِي فَتَحَكما   وأَرْسَلْتُ دَمْعِي شَافِعًا فَتَبَرَّمَا

وقصيدته «مناجاة الحبيب» التي استهلها بقوله:

لو أنَّ أَشجانَ الفؤادِ تَطيعُني   لنظمتُها لكَ في القريض نسيبا

ولكنه حتى في هذا الديوان الأول ذاته الصادر سنة ألفٍ وتسعمائة وتسع، يَطْلُعُ علينا بفرائدَ ابتداعيةٍ شائقةٍ، ويحمل عَلَمَ الشعر المرسل، وما عدا «عبد القادر المازني» لا نعرف أحدًا من تلاميذ «شكري» احتفظ في الغالب برقته الوجدانية العذبة؛ وقلده الآخرون في تفكيره ونظراته، وفي الجامد من أساليبه، بل بالغ بعضهم في ذلك حتى تحجر الشعر على يديه، وشاء هذا البعضُ الإغرابَ، فسَفَّ في موضوعاته، ولم يرتفع بشيء من الخيال أو العاطفة أو المعاني أو الموسيقى اللفظية المعبِّرة.

وبماذا تتميَّز مدرسة شكري الذي قال فيه «حافظ إبراهيم» منذ أكثر من أربعين سنة:

أفي العشرينَ تُعْجِزُ كلَّ طوقٍ   وتُرْقِصُنا بإحكامِ القوافي؟!

شَهَدْتُ بأَنَّ شِعْرَكَ لا يُجارَى   وزَكَّيْتُ الشهادةَ باعترافي

لقد بايعتُ قبلَ النَّاسِ (شكري)   فمن هذا يكابر بالخلاف؟!

والذي قال في شعره تلميذه عباس محمود العقاد: «إن شعر «شكري» لا ينحدر انحدار السيل في شدةٍ وصخبٍ وانصبابٍ، ولكنه ينبسطُ انبساطَ البحر في عُمق وسَعةٍ وسكون»، أو على الأصح بماذا يتميز «شكري» منذ اندثرت مدرسته في جو من التحاسد والتكالب على الشهرة؟ لقد عُنِيَ «شكري»

بالجانب الفكري التأملي، وبتجديد ما خلَّفه أمثال «المعري» و«ابن الرومي» و«ملتون» و«بوب»، وبالمزاوجة بين هذه التأملات الفكرية النفسية، والتأثرات الوجدانية، والانطباعات الصوفية والعاطفية والطبيعية، وقد شجعته وألهمته وَثَبَاتُ «مطران الرومانطيقية» قبل عهده بعقدين، ولكن «شكري» عَبَّ من الأدب الإنجليزي، بدل أن يَعُبَّ من الأدب الفرنسي الذي استهوى «مطران» في صباه قبل أن تستهويه الآداب الأخرى.

كذلك نجد «شكري» الرائد المحلِّق في الشعر المرسل، ونفائسه في هذا المجال فرائدُ باقيةٌ وفخرٌ للشعر العربي؛ ولا تقل عنها عظمة معانيه العميقة المتغلغلة، حتى قال فيه الشاعر «مختار الوكيل» في كتابه «رواد الشعر الحديث في مصر»، ص٤٦:

أما شاعريته فتحتضن الحياة جميعها، وتصور الوجود بأسره؛ لأنه شاعر عبقري لا يقف دون التعبير عن شعوره حِيَال الكون كله!

هذا شاعر سابق لزمنه، وزعيم مدرسة ماتت لما ابتعدت عن صلته ووحيه المباشر، ولكنه بنى مفاخرَ لن تموت للشعر العربي الحديث، وتركه وما زال يترك أثره في جميع دارسيه، وقد قرأ كثيرًا ولكنه أعطى من نفسه ولم ينظم مطالعاته، فهو نجم أصيل خالد كيفما كانت ألوان ضيائه.

أحمد محرم

يُعَدُّ «أحمد محرم» مدرسة في ذاته، وإن يكن في طليعة الأعلام الذين اقترنوا معًا في زمرة «الكلاسيكيين المعلمين» للجيل الماضي في مصرَ خاصةً، وفي مقدمة أولئك الأقطاب في مصر «حافظ» و«شوقي».

وكان «خليل مطران» شاعر العربية الابتداعي الأول في العصر الحديث، ينعت «أحمد محرم» بشاعر العربية الفحل وأديبها الكبير،(١) ويجري في عروق شاعرنا الدم المصري والتركي معًا، وقد ولد «بالقاهرة» ونشأ من البداية نشأة عربية أزهرية صرفة بفضل ميوله الشخصية، وبفضل عناية والده بتلك الميول، وبرز في الشعر منذ صباه، حتى إنه نال شهادة الامتياز بين «شعراء النيل» من لجنة التحكيم، التي تولت أمر النظر في القصائد المقترحة على كبار الشعراء في عيد جلوس الخديوي، سنة ألفٍ وتسعمائةٍ وعشر، ونال عدة جوائز في مسابقات شعريةٍ ونثرية أخرى، اقترحتها الصحف والمجلات في فنون شتى من الأدب وموضوعات مختلفة من سياسة الممالك وتربية الأمم، وما تصدى كاتب ولا أديب لتعيين طبقات الشعراء إلا عرف له مكانه وَوَضَعَه في الصف الأول.(٢)

ولا يستطيع مَن يتناول «أحمد محرم» الشاعر أن ينسى «أحمد محرم» السياسي؛ كذلك كان شأن «حافظ إبراهيم». ولئن عُدَّ «محرم» مستقلًّا عن الأحزاب السياسية، إلا أنه كان في الواقع ضالعًا عمليًّا مع الحزب الوطني، كما نرى في شعره بل في جميع آثاره الأدبية، وصار الحديث عنه بمنزلة حديث أيضًا عن شاعرَي الحزب الوطني الآخرَين «أحمد نسيم» و«أحمد الكاشف»، اللذين

يُعتبران مشتقين من ألمعيته، كما يعتبر «العقاد» و«المازني» مشتقين من ألمعية «عبد الرحمن شكري».

يقول «ولي الدين يكن»:(٣) «أحمد محرم» في شعره نسيج وحدِه، وهو أقرب الشعراء المعاصرين ديباجة من شعراء العرب، وما زال يعاني ذلك في أول أمره معاناةً حتى ملكه اليوم، وصار مَلكةً في طبعه، وليس في طبع الشعراء طبع أدل من طبعه وطبع «حافظ إبراهيم» على جودة الألفاظ، وكما أن «خليل مطران» فاق النظراء بل فاق كثيرًا من القدماء في معانيه؛ فكذلك «أحمد محرم» و«حافظ» فاقا النظراء بل فاقا كثيرًا من القدماء في ألفاظهما وتراكيبهما، وأقرب وصف في هذا الباب أن يقال: إن خليلًا أبلغ شعراء زماننا، وإن «محرمًا» و«حافظًا» أفصحهم.

بيد أن الشعر ليس مسألة فصاحة ألفاظ؛ ومهما يكن الجرس الموسيقي رائعًا في شعر «محرم»، ومهما تكن فصاحته ناصعة وديباجته مشرقة؛ فليس شيء من هذا بالذي يكفي وحده؛ ليخلق له منزلة فنية، وإنما الذي خلق له تلك المنزلة قبل كل اعتبار آخر حرارةُ عاطفته، وحرارة إيمانه القومي وتذوقه الجمال، وتحليق خياله وذكاؤه الخارق الذي يجعل تأملاته عميقة نافذة. استمعْ إلى أبياته القديمة في «الأمس واليوم والغد».

وَدِدتُ لـــوَ انَّ اللهَ أَخَّـــرَ مَـــدَّتِي ... إلى أن يَبيـــدَ الـــدَّهْرُ والحَـــدَثَانُ

أبانَ كِتـــابُ الأَمْـــسِ واليَـــوْمِ ... مـا بـهِ وعنـدَ غـدٍ مِمَّـا جَهِلْـتُ بيـانُ

فيـا مَلْعَـبَ الـدُّنيا أَنُخْلِـي مَكانَنـا ... ومـــا آن مِـــنْ دَوْرِ الخِتـــامِ أوانُ

أخـــذنا مَكـــانَ السَّـــابقينَ، ... وإنَّنـــا وإيَّاهُ للمســـتأخِرينَ مَكـــانُ

فيــا ليــتَ لي مِــنْ جانــبِ القَــبْرِ مَنْفَذًا إليكَ، وإنْ أَغْنَى هُنالكَ شَانُ

أَتُطْبَــقُ لي عَــيْنٌ وفيــكَ مُحَــدِّقٌ ويُخْفَـتُ لي صَـوْتٌ وفيـكَ لسـانُ؟

علـى أَنَّهـا الـدُّنيا تَـدورُ صُـرُوفُها علـى النَّـاس حـتى يَنتهـي الـدَّوَرَان

يُجَـدِّدُ قَـوْمٌ ظُلْـمَ قَـوْمٍ ويَحْتَـذِي مِثَـالَ زمـانٍ في الصـغَارِ زَمَـانُ

وما تَنْقَضِي – ما دَبَّ في الأرضِ ناطقٌ – رواية «كان الأَوَّلون وكانوا»!

فهذه تأملات شاعر مطبوع فلسفي النظرات، متمكن من لغته وموسيقاها الكلاسيكية أيَّ تمكن، وهو القائل في قصيدته «داعي المروءة»:

ثوَيْـتُ مِـن الـدُّنيا ببيـداءَ قَفْـرَةٍ أَقَـامَ الصَّـدَى فيهـا مَعِـي وثَـوَى المَحْـلُ

أُعيـذُكَ مِـنْ قَـوْمٍ إذا مـا دَعَـوْتَهُمْ إلى الخَيْرِ قـالوا شـاعرٌ مَسَّـهُ الخَبْـلُ!

وإننا لنجد في ديوانه المطبوع بجزئيه – وقد صدر الثاني في سنة ألف وتسعمائة وعشرين – نفائسَ كثيرةً، وفيما لم يُجمع من شعره نفائسَ أكثر؛ كما نجد له الباهر من الشعر الإيبيقيّ في «الإلياذة الإسلامية»، ومن النثر الفني الرائع في دراساته الأدبية النقدية، ومن شعره القديم المأثور في السخط على الحاكمين بأمرهم قوله: (٤)

إنَّ الــذي هَــزَّ الممالــكَ بَأْسُــه أَمْسَــتْ تَهُــزُّ فُــؤادَه الأشــجانُ

ثارتْ عليــه شُــعوبُه وهُمومُــه فتألَّــبَ الطُّوفــانُ والبركــانُ

عَبَـدُوهُ فـوقَ سَـرِيرِهِ مِـنْ هَيْبَـةٍ حـتى هَـوَى، فـإذا بِـهِ إنسـانُ

تَرْضَـى الشـعوبُ إلى مَـدًى، فـإذا أَبَـتْ رِضِـي الأبيُّ وطـاوعَ الغَضْـبَانُ

والحُكْـمُ إنْ وزَنَ الشُّـعوبَ بواحـدٍ	غَـبَنَ الشُّـعوبَ وخانَـه الميـزانُ
في عِصْـمةِ الشُّـورى وتَحْـتَ ظِلالِها	تُحْمـى الممالـكُ كلُّهـا وتُصـانُ
المجـدُ أجمـعُ والجَـلالُ لِأُمَّـةٍ	صَـدَقَتْ عزيمتُهـا وعـزَّ الشـانُ
جَمَـحَ الأباةُ بهـا وأذعَـنَ غَيْرُهـا	فَـالعَيْشُ ذُلٌّ والحيـاةُ هَـوانُ

ومن شعره الإنساني الحر المناصر للسلم «حائيَّته المشهورة» التي يقول فيها(٥) قدحًا في الحروب والطغاة:

رَثَـت المَـذَابحُ لِلـدِّماءِ مُرَاقَـةً	مِـلْءَ البِطَـاحِ ومـا رَثَـى الـذَّبَّاحُ
يَنْهَـلُّ صَـيِّبُها فيَنْثـني عطْفَـهُ مَرِحًـا،	ويَزْخَـرُ سَـيْلُها فيُـرَاحُ
فاضـتْ حواليْـه فضُـرِّجَ عَرْشُـه	منهـا وخُضِّـبَ تاجُـه الوضَّـاحُ
مَلِـكٌ ولا غـيرُ الجمـاجمِ حولَـه	سُـورٌ، ولا غـيرُ الرقـابِ سِـلَاحُ
بَغَـت الملـوكُ علـى الشُّـعوبِ	وغَرَّهـا ممـن تَسُـوسُ تَجـاوُزٌ وسَمَـاحُ
الظلْـمُ مَفْسَـدَةُ النفـوسِ ومـا	لَهَـا غـيرُ الترفُّـقِ في الأمـور صَـلاحُ
فِـيمَ التنـاحُرُ والخلائـقُ إخـوةٌ	والعـيشُ حَـقٌّ للجميـعِ مُبَـاحُ
والـدَّهْرُ سَمْـحٌ والحيـاةُ خصـيبةٌ	والـرِّزقُ جَـمٌّ والـبِلادُ فِسَـاحُ؟
أنَظَـلُّ في الـدُّنيا يُفَـرِّقُ بيننـا	بُغْـضٌ ويَجمعُنـا وَغًـى وكِفـاحُ؟
مـا بالُنـا نَشْـقَى لِتَـنْعَمَ عُصْـبَةٌ	مَلَكَـتْ، فـلا رِفـقٌ ولا إسْـجَاحُ؟

وفيها يقول عن الحرب وويلاتها:

الحــــرْبُ هادِمَــــةُ الشُّـــعُوبِ، وَإِنَّهَــا لِلشَّــرِّ بــينَ العــالمينَ لِقَــاحُ

تخبــو وتَقتــدحُ الحُقُــودُ رمادَهــا كالنــارِ هــاجَ كمينَهــا المِقْــداحُ

صَــدْعٌ، وإنْ طــالَ المَــدَى، متفــاقِمٌ ودَمٌ، وإنْ جَــفَّ الثَّــرى، نَضَّــاحُ

وليس من السهل الاختيار من هذه القصيدة العامرة الطويلة النفس، ولكن لا نود أن يفوتنا منها الوقوف عند هذه الأبيات الإنسانية:

عَالجــتُ أدواءَ الشُّــعوبِ وسُسْــتُها فــإذا الــدَّواء تَــوَدُّدٌ وصِــفَاحُ

وبلــوتُ أســبابَ الحيــاةِ وقِسْــتُها فــإذا التعــاونُ قُــوَّةٌ ونجــاحُ

مَــنْ للممالــكِ والشُّــعوب بِمَوْئِــلٍ تَأْوِي النفــوسُ إليــهِ والأرواحُ؟

ومَــتَى يَــرُدُّ الحــائرينَ إلى الهُــدَى نَهْــجٌ أَسَــدُّ وكوكــبٌ لَمَّــاحُ؟

دَجَــت العُصُــورُ فمــا يَبِــينُ لأهلِهــا نــورُ الحيــاةِ ومــا يَحِــينُ صَــباحُ

وشاعرنا المعلم الحكيم المربي لأمته المدافع عن بيضة الإسلام حيث تَمَثَّلَتْ زمنًا في الدولة العثمانية، والذائد في الوقت ذاته عن القومية المصرية، والمتصرف في فنون البلاغة تصرفًا أجَله أمثال «الرافعي» و«عبد المطلب» و«الجارم»، بل تأثروا به كما تأثر به جيل لاحق من أمثال «أحمد رامي» و«علي محمود طه» و«عزيز أباظة»؛ هو هو عينه «الشاعر المستقل الرومانطيقي» المفصح عن شخصيته النبيلة في جميع شعره، شأن الشاعر الحر المطبوع، وقد نوه الشاعر الجهير «حسن كامل الصيرفي»(٦) بعبقرية شاعرنا فقال:

إني لأقرأ البيت من شعر «محرم» فأحس كأن صدى أنغامٍ عذبةٍ تطوف

على خاطري في حلمٍ جميلٍ، وإلى جانب هذه الموسيقى التي يتساءل عنها في قصيدته «وجودي» والتي يحس تأثيرها في أنفس قرائه فيقول:

أَمِـــنْ أدَبي تَبيــتُ الطَّيْــرُ تبكــي؟ فمـــا أدَبي؟ أَشَـــدْوٌ أم رَنـــينُ؟

تتجلى تلك الديباجة العالية، وتلك الجزالة السامية التي يقدرها فيه أدباؤنا، ولن أكون إلا محقًّا حين أقول إنه كان يمتاز على المرحوم «حافظ إبراهيم» في الرنين العذب الذي صحب شعره الناضج ولازمه، إلا أن مرض الشرق الذي يُظْمِئُ الفنانَ الموهوب، والالتفات الدائم إلى صوت أو صوتين دون أن يُلتفت إلى بقية الأوتار الجميلة التي تؤلف أنشودة الخلود؛ حَالَا دون التقدير الكافي لشاعرية «أحمد محرم»، ولولا هذا المرض ما سمعنا محرم يشكو حين يحس الحيرة في وجوده، فيقول:

ظَمِئْـتُ، وفي فمـي الأَدَب المُصَـفَّى وضِـعتُ وفي يـدي الكَنْـزُ الثَّمـينُ

ظَلَمْـــتُ أبي ونفســـي، إنَّ مِثْلـــي لَغَـــالٍ في النَّوابِـــغِ لا يَهـــونُ

كـــريمٌ تَـــدْفَعُ الأخـــلاقُ عنـــه ويَمْنَـــعُ رُكْنَـــهُ الأدَبُ الحصـــينُ

أَقُـــولُ فَيُفْـــزِعُ الشُّـــعَرَاءَ صَـــوْتي ومـــا أنا في بَـــنِي وَطَـــنِي ظنـــينُ

لـــرَبِّي مـــا عَمِلْـــتُ، وعنـــدَ قَـــوْمي دُيُـــوني، حِـــينَ تُلْـــتَمَسُ الـــدُّيُونُ!

نعم، عند قومك هذا الدَّيْنُ، وسيوفَّى دينُك، وستظل كما تقول:

أشُـــدُّ علـــى الفُنـــونِ يَـــدِي، وإنِّي لفـــي زَمَـــنٍ جهالتـــهُ فُنـــونُ!

وإني لأرى أمامي مشهدًا لم تضعف ريشة «محرم» في رسمه، ولم ينقصها لون حين صوَّر الحائر، فقال:

وُجُـودِي، مـا عَرَفْتـكَ غـيرَ مَعْـنًى تَغَلغَـــلَ فِي الخَفَـــاءِ، فمـــا يَبِـــينُ

غَرِيـــقٌ في الظَّـــلامِ، ولا مَنَـــاصٌ ولا جِسْــــرٌ يُــــلَاذُ بــــه أمـــينُ

أُقِـيمَ عليــهِ سُــورٌ مِــنْ عُبَــابٍ تَضِـــلُّ علـــى جوانبـــهِ السَّـــفِينُ

أطِـــلُّ، ويَضْـــرِبُ التيَّـــارُ وَجْهِـــي فـــأين أنا؟ أحُـــرٌّ أم ســـجِينُ؟

وأضل أنا أيضًا في عالم الإعجاب حين أقرأ له من قصيدته «مِنْ هُمومي»:

بـــين عيـــنيَّ ومـــا حَوْلَهمـــا صُـــحُفٌ مَنشـــورةٌ للقـــارئينْ

يَعطِفُ السَّطْرُ على السَّطر كما يَعطفُ الباكي على الباكي الحزينْ!

هذا ما كتبه شاعر وجداني رمزي كبير عن الأستاذ «أحمد محرم»، في سنة ألف وتسعمائة وثلاث وثلاثين، وما سر إعجابه به إلا ما انتظمه شعره من عناصر الجمال المعنوي واللفظي، وصدق التعبير، والأصالة وإشراق الشخصية، وتميُّز ذلك الشعر بالمواءمة العجيبة، ما بين الأسلوب المدرسي الخالص الناصع، والمعاني الوجدانية والصور الرومانطيقية الممثلة لروح العصر، في حين أن شاعرنا في ثقافته عربي قُحٌّ.

تقرأ هذا في مثل قصيدته «قوة وضعف»[٧] التي يقول فيها:

قُـــوَّتي ضَـــعْفٌ، وضَـــعْفِي قُـــوَّةٌ فاخْشَـعِي يا نَفْـسُ أو طـيري هَبَـاءَ

يَسْــقُطُ الصَّــخْرُ ويَمضِــي صُــعُدا سـاقِط التُّـرْبِ، فَيَخْتـالُ السَّـماءَ!

وفي مثل قصيدته «تحية أبوللو»[٨] التي يقول فيها:

سَــكَبُوا الشِّــعْرَ علــى أَلْسِــنَةٍ ذابَ مَعْــنَى الحُسْــنِ فيهــا فانْسَــكَبْ!

ويقول:

كُنْــتِ مَعْــنَى، والأَمــاني لجُـَّــةٌ ... مــا طَفَــا في خــاطرٍ إلَّا رَسَــبْ

تَعْجَــزُ القــدْرَةُ أن تَلْفظَــهُ فهــو ... سِـــرٌّ حـــائرٌ في كـــلِّ قَلْـــبْ

نَبَّهَتْــهُ هِمَّــةٌ نافــذةٌ حــين أغْفَــى، ... فَتَلَـــــــوَّى واضـــــــطرَبْ

وأهابَـــتْ، فاسْـــتَوَى مســـتوفِزًا ... فاســـتحثَّتْهُ، فـــأوْفَى واشـــرأب

ورآهــا تَتَلَظَّــى، فــارْتَمَى لجُـَّــةً ... تَطْغَـــــــى، ونارًا تَلْتَهِـــــــبْ!

وفي مثل قصيدته الشهيرة «ليتني»(٩) المعدودة من عيون الشعر العصري وفيها يقول:

ليتـــني الـــدَّهْرُ الـــذي جَرَّبْتُـــهُ ... فَعَـــذَرْتُ النـــاسَ مِمَّـــنْ جَـــرَّبا

حـــاكمٌ أعمـــى الهَـــوَى لـــو ... كنتُه لجعلتُ الحكمَ أهْدَى مَذْهَبَا

مُظْلِـــمُ الأعمـــاقِ مـــا مِـــنْ ... كوكـــبٍ جـــالَ في أثنائِـــهِ إلَّا خَبَـــا

إن «أحمد محرم» بنظمه ونثره، عاطفة وتصويرًا ونقدًا، لَثروةٌ غالية للأدب العربي الحديث جديرة بأن تُدْرَسَ من جميع جوانبها، وبأن يُنَوَّهَ بنفائسها تَنْويهًا أجَل في أقطار الضاد جميعها، ولعل «وزارة التربية والتعليم العربية» تقوم مشكورة بإخراج ديوانه الكامل وإلياذته الإسلامية، كما صنعت من قبل بنشرها ديوان «حافظ إبراهيم»، فإن مآثر «أحمد محرم» الأدبية والقومية لا تقل شأنًا عن مآثر «حافظ»، وإنها لفخر أكيد للعروبة ولأبناء الضاد جميعًا.

الهوامش

(١) ديوان «من السماء»، ص٥٧.

(٢) مشاهير شعراء العصر لأحمد عبيد، الجزء الأول، ص١١٥.

(٣) المصدر الثاني، ١١٨.

(٤) ديوان «محرم» ج٢، ص١٣٩.

(٥) الجزء الثاني من ديوانه، ص١٨٤.

(٦) تصدير نقد ديوان «الشعلة»، ص٥.

(٧) مجلة «أبوللو»، م١، ص١٩.

(٨) مجلة «أبوللو»، م١، ص٨٧.

(٩) مجلة «أبوللو»، م٢، ١٤.

أبو القاسم الشابي

١

أَلَا أيُّهَـــا الظـــالمُ المُسْـــتَبِدُّ	حبيـــبَ الفَنـــاءِ، عـــدوَ الحيـــاهْ
سَـــــخِرْتَ بأنَّاتِ شَـــــعْبٍ	ضـعيفٍ وكفـكَ مخضـوبةٌ مـن دِمـاهْ
وعِشْـتَ تـدنِّسُ سِـحْرَ الوُجـودِ	وتَبـــذرُ شـــوك الأسَـــى في رُباهْ

•••

رُوَيْـــدَكَ، لا يَخْـــدَعَنْكَ الربيـــعُ	وَصَـحْوُ الفَضَـاءِ وَضَـوْءُ الصَّـباحْ
ففـي الأفُـقِ الرَّحْـبِ هـولُ الظَّـلام	وقَصْـفُ الرُّعُـودِ، وعَصْـفُ الـرِّيَاحْ
ولا تَهْـــزَأَنَّ بِنَـــوْحِ الضَّـــعيفِ	فمـن يَبْـذُر الشـوكَ يَجْـنِ الجْـرَاحْ

•••

تَأَمَّـــلْ! هُنَالِـــكَ، أنى حَصَـــدْتَ	رُءُوسَ الـــوَرَى، وزُهُـــورَ الأمَـــلْ
وَرَوَّيْـــتَ بالـــدَّمِ قَلْـــبَ التُّـــرَابِ	وأشـــربتَه الـــدمعَ حَـــتَّى ثَمِـــلْ
سَـيَجْرفُكَ السَّـيْلُ سَـيْلُ الـدِّماءِ	ويأكُلـــكَ العاصِـــفُ المشـــتعِلْ!

كنت أتلو من جديد هذه الأبيات لصديقي العبقري، فقيد الأدب، الشاعر التونسي «أبي القاسم الشابي»، فوجدت لها مذاقًا في جو الحرية الأمريكية، يفوق في أثره ما أحسسته عند تلاوتها، منذ قرابة عشرين عامًا،[١]

عند اطلاعي الأول عليها، قبل نشرِها في مجلة «أبوللو»، وقد عنونها «إلى طغاة العالم»!

وساقني تداعي الخواطر إلى ترديدها في إعجاب، وأنا أستمع إلى «صوت أمريكا» يردد في السادس من «نيسان» سنة ألفٍ وتسعمائةٍ واثنين وخمسين:

صرح أمس أحد كبار موظفي وزارة الخارجية الأمريكية – وهو الدكتور «هاري هوارد»، المستشار في شئون الأمم المتحدة، بمكتب الوزارة المختص بالشرق الأدنى وجنوبي آسيا وأفريقيا – صرح بأن سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط ترمي إلى مساعدة شعوبه على الاحتفاظ باستقلالها، وسلامة أراضيها، وبحياتها آمنة ضمن أسرة الأمم الحرة ...

إن «لأبي القاسم الشابي» روائع كثيرة ظفرت «جمعية أبوللو» ومجلتها التي عنيت قبل سواها بإبراز فنه، ظفرت بالقسط الأوفر منها، وإنه لتصعب المفاضلة بين قصائده هذه؛ فجميعها يتسم بالجمال الفني الأنيق بكامل عناصره... أنؤثر قصيدته «صلوات في هيكل الحب»[٢] التي يقول في مطلعها:

عَذْبَةٌ أنتِ، كالطُّفولةِ، كالأحلام، ... كاللحنِ، كالصَّباحِ الجديدِ

كالسَّماءِ الضحوكِ، كالليلةِ ... القمراءِ، كالوردِ، كابتسامِ الوليدِ

يَا لها مِنْ وداعةٍ وجمالٍ ... وشبابٍ منعمٍ أُملودِ!

يا لها مِنْ طهارةٍ تبعث التقديسَ ... في مُهْجةِ الشَّقِيِّ العَنيدِ!

وكلها على هذا النسق من الاندماج في الطبيعة، ومن الارتفاع بالحسيات إلى المعنويات القريبة والبعيدة.

أم نؤثر قصيدته الفلسفية الواقعية «السعادة»[٣] التي يقول منها:

ترجو السعادةَ يا قلبي، ولو وُجِدَتْ ... في الكــونِ لم يَشْــتَعِلْ حُــزْنٌ ولا أَلَمُ

ولا اســـتحالتْ حيـــاةُ النـــاسِ ... أَجمعُها وزُلْزِلَتْ هاتهِ الأكوانُ والنُّظُمُ

خُـذِ الحيـاةَ كمـا جاءتـكَ مبتسـمًا ... فِي كَفِّهـا الغـارُ أو في كفهـا العَـدَمُ

وارقُصْ على الوردِ والأشواكِ متَّئدًا ... غَنَّتْ لك الطيرُ أو غَنَّتْ لك الرُّجُمُ!

أم نؤثر قصيدته «الأشواق التائهة»،[٤] وقد جمعت بين ألوان من اليأس واحتقار الوجود والتصوف؛ إذ يقول:

يا صـــميمَ الحيـــاةِ! كمـــا أنا في ... الـدُّنيا غريـبٌ! أشْـقَى بِغُرْبَـةِ نَفْسِـي

بـــين قـــومٍ لا يَفهمـــونَ أناشـــيدَ ... فـــؤادي، ولا مَعـــانِيَ بؤســـي

في وُجـــودٍ مكبَّـــلٍ بقيـــودٍ ... تائـــهٍ في ظـــلامِ شـــكٍّ ونَحْـــسِ

فاحتضـنِّي، وضُـمَّني لـكَ بالماضـي، ... فهـــذا الوجُـــودُ عِلَّـــةُ يأســـي!

أم نؤثر قصيدته «الجنة الضائعة»،[٥] التي يذكر فيها عهد الطفولة، ويعرضه عرضًا فنيًّا بديعًا بصوره الفاتنة المنوَّعة، ثم يختمها بهذه الحُرقة:

قـــــد كنـــــتُ في زَمَـــــنِ ... الطُّفُولَـــةِ والســـذَاجَةِ والطُّهُـــورْ

أحيـــا كمـــا تحيـــا البلابـــلُ ... والجـــــــداولُ والزُهـــــــورْ

لا تَحْفِـــلُ الـــدُّنيا، تَـــدورُ ... بأهلِهـــــا أو لا تَـــــــدُورْ

واليـــــومَ أحيـــــا مُرْهَـــــقَ ... الأعصـــابِ مشـــبوبَ الشُّـــعُورْ

مُتـــــــأجِّجَ الإحســــــاسِ، أَخْفِــــلُ بالعظــــيم وبالحقــــيرْ

تَمْشــي علــى قلــبي الحيــاةُ، ويَزْحَــفُ الكــونُ الكبــيرْ

هــــذا مَصــــيري، يا بَــــني الــدنيا، فمــا أشْــقَى المَصــيرْ!

أم نؤثر قصيدته «الأبد الصغير»[٦] المفعمة بالتأملات الفلسفية الوجدانية، وبها يخاطب دنيا قلبه:

يا قلــبُ كــم فيــكَ مِــنْ دُنْيــا محجَّبــةٍ كأنهــا حــينَ يبــدو فَجْرُهــا (إرَمُ)!

يا قلــبُ كــم فيــكَ مِــنْ كــونٍ، قــد اتَّقَدَتْ فيه الشُّموسُ وعاشتْ فوقهُ الأمَمُ!

يا قلــبُ كــم فيــك مِــنْ أُفْــق تُنَمقــهُ كواكــبٌ تَتَجلَّــى، ثم تَنْعَــدِمُ!

يا قلبُ كم فيكَ مِنْ قبرٍ، قد انطفأتْ فيــه الحيــاةُ، وضــجَّت تحتــه الــرِّممُ!

يا قلبُ كم فيكَ مِنْ غاب ومِنْ جَبَلٍ تَـدْوِي بـه الـريحُ أو تَسـمُو بـه القِمَـمُ!

يا قلــبُ كــم فيــكَ مِــنْ كَهْــفٍ قــد انبجسَتْ منه الجداولُ تجْرِي ما لها لُجُمُ!

تَمْشِــي، فتحمــلُ غصــنًا مُزْهِــرًا نَضِــرًا أو وردةً لم تشَــوِّهْ حُسْــنَها قَــدَمُ

أو نحلــةً جَرَّهــا التيــارُ مُنْــدَفِعًا إلى البحــارِ تغــنِّي فوقَهــا الــدِّيَمُ

أو طــائرًا ســاحرًا مَيْتًــا قــد انفجــرتْ في مُقلتيْــهِ جِــراحٌ جَمَّــةٌ ودَمُ

يا قلــبُ إنــك كــونٌ مُــدهِشٌ عجَــبٌ! إنْ تســأَل النــاس عــن آفاقــهِ يَجِمُــوا

كأنــك الأَبَــدُ المجهــولُ قــد عَجَــزَتْ عنـك النُّهَـى، واكفهـرَّتْ حولـك الظُّلـمُ!

أم نؤثر قصيدته «المستسلم»[٧] التي يسخط فيها على دنايا الناس، ويترفع عن محاربتهم:

قـــــد تركـــــت النـــــاسَ غرقـــــى في جِـــــلادٍ وكِفـــــاحْ

ســـــئمتْ نفســـــي دناياهـــــم وألقيـــــــتُ السِّـــــــلاحْ!

أم نؤثر قصيدته الفلسفية المتشككة الحائرة «في ظل وادي الموت»، التي يتشوق في ختامها إلى تجربة العدم:

ثمَّ مـــاذا؟ هـــذا أنا: صِـــرْتُ في الـــدُّنيا بعيـــدًا عـــن لهوهـــا وغِناهَـــا

في ظَـــلام الفنـــاءِ أَدْفِـــنُ أيَّامـــي، ولا أســـــتطيعُ حـــــتّى بُكاهـــــا

وزهُـــورُ الحيـــاةِ تَهْـــوى بِصَـــمْتٍ مُحْـــزِن مُضْـــجرٍ علـــى قَـــدَميَّا

جَـفَّ سِـحْرُ الحيـاةِ يا قلـبيَ البـاكي فَهَيَّـــا نُجَـــرِّبِ المـــوتَ، هيَّـــا!

أم نؤثر قصيدته الوجدانية الغِرّيدة «الصباح الجديد»،٨ التي تغنت بها مواكبُ عديدةٌ ولا تزالُ:

اســـــــــكتي يا جـــــــــراحْ واســـــــــكني يا شُـــــــــجونْ

مـــــــاتَ عهْـــــــدُ النـــــــواحْ وزمـــــــــانُ الجنـــــــــونْ

وأَطَـــــــــلَّ الصَّـــــــــبَاحْ مـــــــــن وراء القُـــــــــرونْ

أم نؤثر «ألحانه السكرى»[٩] العذبة العَبِقَةَ التي يقول في ختامها:

أيُّهـا الـدهرُ! أيُّهـا الـزمنُ الجـاري إلى غـــــيرِ وُجْهَـــــةٍ وقـــــرارِ!

أيُّهـا الكـونُ! أيُّهـا الفلـكُ الـدوَّار بالفجْـــرِ والـــدُّجَى والنَّهَـــارِ!

أيُّها الموتُ! أيها القَدَرُ الأعْمَى!   قِفُوا حيث أنتمو أو فَسِيروا

ودَعُونا هُنا: تُغنِّي لنا الأحلامُ   والحُبُّ والوجودُ الكبيرُ

وإذا ما أَبَيْتُمو فاحمِلُونَا   ولهيبُ الغرامِ في شَفَتَينَا

وزُهورُ الحياةِ تَعْبَقُ بالعِطْرِ،   وبالسِّحرِ، والصِّبَا في يَدَيْنَا!

أم نؤثر قصيدته الواقعية المريرة «الناس»[١٠] التي تُشْجِي منها زفرته:

ما قَدَّسَ المَثَلَ الأعْلَى وجَمَّلَهُ   في أَعْيُنِ النَّاسِ إلَّا أنَّه حُلُم!

ولو مَشَى فيهمو حَيًّا لحطَّمه   قومٌ، وقالوا بخُبْثٍ إنَّه صَنَمُ

لا يَعبدُ الناسُ إلا كلَّ منعدمٍ   ممنَّع، ولمن حاباهُمو العَدَمُ

حتَّى العباقرةُ الأفذاذُ حَيُّهمو   يَلْقَى الشقاءَ، وتَلْقَى مَجْدَها الرِّمَمُ

الناسُ لا ينصفون الحيَّ بينهمو   حتى إذا ما توارَى عنهمو نَدِمُوا

الويلُ للناس مِنْ أهوائِهم أبدًا   يَمْشِي الزمانُ وريح الشرِّ تَحتدمُ

أم نؤثر قصيدته «من أغاني الرعاة»[١١] التي جاءت من وحي استشفائه، وكل بيت من أبياتها صور شعرية متألقة بجمال الطبيعة، التي كانت تحضنه وترعاه في مرضه، بين جبال وأودية وغابات، وفيها يخاطب خِرافَه وشِياهَه بأعذب الألحان.

أم نؤثر قصيدته المتفائلة «الإيمان بالحياة»[١٢] وإن كانت عليها مسحة الرثاء لوالده.

أم نؤثر قصيدته الشامخة «نشيد الجبَّار أو هكذا غنى بروميثيوس» التي يرد فيها على حساده الشانئين، ويقول عن نفسه بعد مماته:

فـــأنا الســـعيدُ بأنـــي متحـــولٌ عـــن عـــالم الآثام والبغضـــاءِ

لأذوبَ في فجـــرِ الجمـــالِ السَّـــرْمَدِ يِّ وأرتـــوي مِـــنْ مَنهـــل الأضـــواء

أم نؤثر قصائده التأملية العاطفية أمثال «الرواية الغربية» و«أيتها الحالمة بين العواصف» و«صوت من السماء»[١٣] وكلها آيات من الرقة الحساسة، والرومانطيقية الجميلة الساحرة؟!

إن ما نؤثره هو إنسانيات هذا الشاعر المحلق، الذي لم تعقه أحلامه عن النزول إلى ميدان المجتمع، والسير في موكب البشرية، عازفًا مشجعًا هاديًا مهيبًا بالصاغرين:

إذا الشـــعبُ يومًـــا أراد الحيـــاةَ فـــلا بـــدَّ أن يســـتجيبَ القَـــدَرْ

ولا بُـــــدَّ لِلَّيْــــلِ أن يَنجلـــــي ولا بُـــــدَّ للقيـــــدِ أن يَنكسِـــــرْ

•••

إذا مـــا طمحـــــتُ إلى غايـــــةٍ رَكِبْـــتُ المُـــنَى ونســـيتُ الحَـــذَرْ

ولم أتَجَنَّـــبْ وُعُـــورَ الشـــبابِ ولا هَبَّـــةَ اللَّهَـــبِ المُسْـــتَعِرْ

ومَـــنْ لم يُحِـــبَّ صـــعودَ الجبـــال يَعِـــشْ أَبـــدَ الـــدهر بـــين الحُفَـــرْ!

ولم تزل قصائدُه الموجهة إلى الشعب ترانيمَ سماويةً خالدةً، وإن سكن جثمانُه القبرَ!

٢

و«الأشواق التائهة» أحلام عُلوية مجنحة، لا تعرف القرار، يحدوها ألَقٌ ساحر، ثم تستوعبه، وتفتِّش عن عوالمَ تُرضيها، حتى إذا ما بلغتها لم تقنع بها، وراحت تبدع عوالمَ جديدةً لها، ثم لم تكتف بما أبدعته، بل أخذت روحُها الخلاقة تواصل الإبداع متممة أو ناسخة. تلك هي «الأشواق التائهة» للشاعر الخالد «أبي القاسم الشابي» الذي ولد من النور، ورضع منه، وتغنى به في هيكل الحب، صلواتٍ روحانيةً تفيض بالجمال الإلهيّ.

ولئن لم يُعَمَّرْ في هذا الوجود فكذلك عُمرُ النور؛ لمحة من الأبد، وهو هو الأبد الذي لا أول له ولا آخر. يصفه المولعون العابدون ولا ينتهون، ولا يشبعون، وصفًا وتعريفًا. فلا عجب إذا تعددت الدراسات الشعرية لعبقرية «الشابي»، ومنها مجموعة الأديب التونسي الأستاذ «أبي القاسم مُحَمَّد كِرُّو»، ومجموعة الأديب الحجازي الأستاذ «مُحَمَّد العامر الرُّميح».

إنها لعبقرية فذة توحي بتأملات لا حصر لها، فتتولد من هذه التأملات أطياف وألوان جميلة لا يغني أحدها عن الآخر. كذلك شأننا نحن، فكلما درسنا شعر «الشابي» ودوَّنا خواطرنا فيه؛ ساقنا التأمل إلى الجديد من الخواطر والشواعر، وتفرعت عن نشوتنا نشوةٌ أخرى!

إن شعر «الشابي» هو شعر العبقرية والتفوق؛ فله قُدسية نورانية يصعب تعريفها، وسواء لدينا فجرها أو شروقها؛ لأنها على اختلاف منازلها تتألق بالجمال وتنم عن رسالة سامية، لو لم يقلها شعرًا لتألقت في وجهه نورًا كما تألق النور في وجه «عيسى بن مريم»!

هذا الصبي الصغير الذي لم يبلغ العشرين، يحس في باكورة عمره إحساس النبي فيقول:

شـــــعري نفاثـــــةُ قلـــــبي		إنْ جـــاشَ فيـــه شُـــعوري
لــــولاهُ مـــا انجـــابَ عـــنّي		غـــيمُ الحيـــاةِ الخطـــيرِ
لا أنظـــمُ الشـــعرَ أرجـــو		بـــه رضـــاءَ الأمـــيرِ
بِمدحـــــــــــةٍ أو رثاءٍ		تُهْـــدَى لِـــرَبِّ الســـريرِ
حَسْـــبي إذا قلـــتُ شـــعرًا		أن يَرتضـــــيهِ ضـــــميري

•••

لا أقـــــرضُ الشِّـــــعْرَ		أَبْغِـــي بـــه اقتنـــاصَ نَـــوَالِ
الشِّـــــعْرُ إنْ لم يكـــــن		في جَمَالِـــــهِ ذا جَـــــلال
فإنمــــا هـــــو طيـــــفٌ		يَسْـــعَى بـــوادي الضَّـــلالِ
يَقضِـــي الحيـــاةَ طريـــدًا		في ذِلَّـــــةٍ، واعتـــــزال!

لسنا ممن يسوغ بأي حال وضع النقد الموضوعي موضعًا ثانويًّا بحيث نُرضخ الحكم على الطاقة الشعرية، إلى ما عداها من الاعتبارات، في تقدير القيمة الفنية للشعر، ولسنا ممن يذهبون مذهب التشريح والتفلية، الذي يتناسى وحدة القصيد، ولسنا ممن يبخسون أي فنان قدره؛ لمجرد أنه ذو شخصية طالحة، لا تستحق الاحترام، ولسنا ممن يتعصب لشاعر ما؛ لأنه يعبر عن فلسفتنا وعواطفنا تعبيرًا أكمل، متغافلين عن قيمة الجوهر الذي يُهديه وعن كفايته الفنية الخالصة، ولسنا من عباد التعابير البراقة، والبيان المزخرف الأخاذ، ومع

ذلك لا ننكر أن الفن إذا امتزج بالتسامي في سبيكة واحدة، وأن الطاقة الشعرية المحلقة إذا تشربت الإيمان الرفيع تَشَرُّبًا لا يفصم منها، وأن الفن إذا صار لسان النبوة وترجمان التسامي أو توءمه، فإن مثل هذا الفن المركب الرفيع؛ يكون في اعتبارنا جديرًا باعتبار أسمى، وهذه نظرة تختلف جد الاختلاف عن إرضاخ كرامة الفن أو تقديره للأهواء الذاتية، والتعصبات الشخصية، والمسائل والاعتبارات العرضية.

وأبو القاسم الشابي هو أحد أولئك الأفذاذ العالميّي الروح، الذين لم يبهروا النقد الموضوعي فحسب، من ناحية الطاقة الفنية القوية الغنية، بل بهروا كذلك مقاييس المثالية الرفيعة من خلقية ووطنية وإنسانية، وكانت معجزتهم في الازدواج بين هذه المزايا، وفي الانسجام التام بينها، وهذا قلما يكون إلا للصفوة الموهوبين.

فهذا «أبو القاسم الشابي» الشاعر الوطني، الثائر الرائد في «تونس الجميلة» و«زئير العاصفة» منذ صباه، هو ذاته الشاعر الإنساني في «لعلعة الحق» و«الحرب»، والشاعر الوجداني في «فن الظلام» و«الزنبقة الذابلة» و«الدموع» و«أغنية الأحزان» والشاعر المتفلسف في «نظرة الحياة» و«مأتم القلب» و«الأمل والقنوط»، والمصلح الاجتماعي أيضًا، وهو كذلك الشاعر المتصوف، والعاشق المتبتل في «شكوى اليتيم» و«أيها الليل» و«أيها الحب» و«حيرة» و«جدول الحب» و«يا شعر!» وكل هذا التراث الثمين، من شعر فتى لم يبلغ العشرين.

أما بعد هذه السن فإننا نواجه «الشابي» ذاته، ولكن في نَفَسٍ أطولَ، ونضوجٍ أبلغَ، وتحليلٍ أعمقَ، وتفاعلٍ أكملَ، وتصويرٍ أشملَ، استمع مثلًا إلى قوله من قصيدته «مناجاة»:

أنـتَ يا شـعرُ فلـذةٌ مِـنْ فـؤادي تَتَغَـنَّى، وقطعـةٌ مـن وجـودي

فيـكَ مـا في جـوانحي مِـن حنـينٍ أبَـديٍّ إلى صـميم الوُجـودِ

فيـكَ مـا في خـواطري مِـنْ بـلاءٍ فيـكَ مـا في عـواطفي مـن نشـيدِ

فيـكَ مـا في عـوالمي مِـنْ ظـلامٍ سـرمديٍّ ومـن صـباح وليـدِ

فيـكَ مـا في عـوالمي مِـنْ نُجـومٍ ضـاحكاتٍ خَلـفَ الغمـامِ الشَّـرُودِ

فيـكَ مـا في عـوالمي مِـنْ ضـبابٍ وسـرابٍ ويَقْظَـةٍ وَهُجُـودِ

إلى آخر هذه الأبيات التي تبلغ الستة والثلاثين عدًّا، والتي تتلاحق فيها الصور تلاحقًا فنيًّا سريعًا؛ لا نعرف شاعرًا آخر أغرم به، ووفق إليه بهذه الدرجة المدهشة.

لقد اكتنفتْ حياةَ «الشابي» همومٌ عديدة، ولاقى من عنت الناس وجحودهم – حيًّا وميتًا – الشيء الكثير، ومات والأدب أحوج ما يكون لألمعيته، وصاح والداء يُنْشِبُ أظفارَه فيه:

سـأعيشُ رغـمَ الـدَّاءِ والأعـداءِ كالنَّسـرِ فـوقَ القمـةِ الشَّـماءِ

أرنـو إلى الشـمس المضـيئةِ هـازئًا بالسُّـحْب والأمطـارِ والأنـواءِ

لا ألمـحُ الظِّـلَّ الكئيـبَ ولا أَرى مـا في قـرارِ الهـوَّةِ السَّـوداءِ

وأسـيرُ في دُنيـا المشـاعرِ حالمًـا غَـرِدًا، وتلـك طبيعـةُ الشُّـعراءِ

أَشْـدُو بموسـيقى الحيـاةِ ووحيهـا وأُذيـبُ رُوحَ الكـونِ في إنشـائي

وأُصـيخُ للصـوتِ الإلهـيِّ الـذي يُحْيِـي بقلـبي مَيِّـتَ الأصـداءِ

وأقــولُ للقــدرِ الــذي لا يَنثــني ... عــن حــربِ آمــالي بكــلِّ بــلاءِ

«لا يُطفــيءُ اللهَــبَ المــؤجَّجَ في ... دمي مَوْجُ الأسى وعواصفُ الأرزاءِ

فاهدمْ فؤادي ما استطعتَ، فإنَّه ... سيكون مثلَ الصَّخرةِ الصَّمَّاءِ

لا يَعــرفُ الشــكوى الذَّليلــةَ ... والبُكا وضراعةَ الأطفالِ والضُّعفاءِ

ويعــيش كالجبَّــار يرنــو دائمًــا ... للفجــر، للفجــرِ الجميــلِ النَّــائي

واملأْ طريقي بالمخاوف والدُّجَى ... وزوابــع الأشــواك والحصــباءِ

وانشرْ عليه الرُّعْبَ وانثرْ فوقَه ... رُجُمَ الرَّدَى وصواعِقَ البأساءِ

ســأظلُّ أمشِــي رغــمَ ذلــك، ... عازفًــا قيثــارتي، مترنمًــا بغنــائي

أَمْشِــي بِــرُوحٍ حــالمٍ، متــوهِّجٍ ... في ظُلمــــــةِ الآلامِ والأدواءِ

النُّــورُ في قلــبي وبــينَ جــوانحي ... فعلامَ أخشَى السَّيْرَ في الظَّلْماءِ؟

إني أنا النــايُ الــذي لا تنتهــي ... أنغامُــه مــا دام في الأحيــاء

وأنا الخِضَــمُّ الرَّحــبُ، لــيس ... تزيــدُه إلَّا حياةً سَطْوةُ الأنْواء»

إلى آخر هذه القصيدة العجيبة، ولكنها ليست بأعجبَ من بقية شعره، الذي يتجلى فيه جميعًا حبُّ الاستغراق في المعاني، والتحليق بالأخيلة، والمثاليات النبيلة، والتأنق الموسيقي في الألفاظ؛ وكل ذلك عن طبيعة سمحة مصقولة، رضعت من أفاويق اللغة، ومن البيان العربي المصفى؛ منذ طفولتها، وفي طليعتها القرآن الشريف بكامله.

إن كل قصيدة من قصائد الشابي – طالت أم قصرت – صورة مكبرة أو

مصغرة لهذه المزايا الفنية. وهو، قبل هذا وبعده، المؤمن بالحياة إيمانَه بالجمال والحرية، والساخط على طغاة العالم، والمصلي في هيكل الحب، والمناجي الطبيعةَ دون ملل، والمتفائل دائمًا، واللهفان على وطنه أو جنته الضائعة، وأخيرًا المعانقُ الموتَ، في غير وجل، عناقَ الفيلسوف الفنان، الذي ينشد التجربة والعلم؛ حتى تجربة الموت!

لقد كانت حياة «الشابي» سلسلة متلاحقة من النكبات والمآسي، في حبه وفي أسرته، وفي وطنه؛ كما كان حساسًا إزاء نكبات الإنسانية عامة، فرثى لسقطاتها، وبكى لها؛ كأنما كان يبكي قومه، وأهاب لتنهض وتقوى وتنقى، وعشرات القصائد، التي أتحفنا بها في فترة من حياته، لم تتجاوزْ ست سنوات، هي تَرْجُمَان صادق لأحاسيسه الشريفة، وذخيرة متميزة في التراث الأدبي المعاصر، ومبعث قوة خارقة لأدب الانبعاث القومي، في العالم العربي لا في «تونس» فحسب؛ فثورته على الطغيان والمتجبرين، وعلى الرجعية المقيتة، وعلى جميع القيود التي ترسف فيها البشرية هي شعلة متأججة هادية، ولو لم يكن فن «الشابي» قويًّا بجميع عناصره، أصيلًا محلقًا؛ لما اكتسبت رسالته القوة التي خلعتها عليها مواهبه النادرة، فالتعبير الغث قد يكون عبئًا على الفكرة، فيهوى بها بدل أن ينهض ولو كانت طبيعتها السمو، وهذا ما لا يفوت الناقد الموضوعي، المستوعب، أي الذي لا يحصر أفق تأمله ونقده.

لم يغرد «الشابي» سوى ست سنواتٍ، قيل بعدها إنه مات. وأما هو فقد قال سلفًا:

سأعيشُ رغمَ الداءِ والأعداءِ   كالنَّسْرِ فوقَ القمةِ الشمَّاءِ

قيل إن النقد الفني يجب أن يحصر همه في الطاقة الشعرية وحدها، وكثيرًا ما

دافعنا نحن عن حقها في التقدير، ومع ذلك فقد لا تتجاوز الطاقة الشعرية الضائعة طيش النيازك أو عبث الصواريخ! أما «الشابي» فقد أبى أن تحمل طاقته الشعرية الخارقة، سوى الحقائق الأزلية الخالدة، أبى ذلك بطبعه، وبتزاوج الوعي مع اللاوعي في نفسه، تزاوجًا غير مفتعل، فخلدت رسالتُه في فنه وخلد فنه في رسالته، ولم يستطع أحد من آلاف المنتشين برحيقه أن يفرق بين الطعم والجوهر؛ فهو وحدة شاملة، تأبى على الناقد التحليل، وتهبُ النشوة والإلهام لصائدي النغم والخيال، ولصائدي المثالية الحية على السواء:

أيُّهـا الشـعبُ! ليتـني كنـتُ حَطَّـا ... بًا، فـأَهوي علـى الجُـذوعِ بفأسـي

ليتــني كنــتُ كالسُّــيولِ إذا ســا ... لــتْ تَهُــدُّ القبــور رمسًــا بــرمْسِ

ليتــني كنــتُ كــالرياح فــأطوي ... كــل مــا يخنــق الزهــور بــنحس

ليتــني كنــتُ كالشِّــتَاءِ أغَشِّــي ... كــلَّ مــا أذبــلَ الخريــفَ بِقَــرْسِ

ليــت لي قــوةَ العواصــف يا شَعــْ ... ـبي فــأُلقي إليــكَ ثــورةَ نَفْســي

ليــت لي قــوةَ الأعاصــير إنْ ضَجــَّ ... ــتْ فــأدعوكَ للحيــاةِ بِنَبْســي

ليــت لي قــوةَ الأعاصــير، لكــنْ ... أنــتَ حَــيٌّ يقْضِــي الحيــاةَ بِــرَمْسِ!

ويقسو على شعبه، ولكنها قسوة المحب المبصِّر، وما كان يأسه أو استسلامه إلا عارضًا زائلًا، يحفزه إلى همةٍ جديدةٍ:

هــا أنا ذاهــبٌ إلى الغــابِ يا شَعْبــ ... ــبي لِأَقْضِــي الحيــاةَ وحــدي بيــأسِ

هـــا أنا ذاهـــبٌ إلى الغـــابِ عَلِّـــي ... في صـــميمِ الغـــاباتِ أَدفــنُ نفســـي

ثم أنساكَ ما استطعتُ فَما أنْـ — ـتَ بأهلٍ لِخَمْرَتِي ولِكَأْسِي

سوفَ أتْلُو على الطُّيور أناشيـ — ـدِي وأُفْضِي لَهَا بأَحْزَانِ نفْسِي

فهي تدري معنى الحياة، وتَدْري — أنَّ مجدَ النفوسِ يقظةُ حِسّ!

خدم الشابي الأدب والعرب والإنسانية بحياته وموته على السواء، ودفع وحده الثمن غاليًا لذلك، وبعد أن كانت مهمتنا جد شاقة في الربع الأول من هذا القرن؛ سعيًا للتنويه بأدب الشباب؛ صار المثل الأعلى الذي ضربه «الشابي» بشعره يحفز النقاد والمجلات الآن إلى الاهتمام بأشعار شعراء الشباب – وما أكثرهم – في هذه الفترة، وإذا كان الشباب كالربيع رمز الحياة المتجددة، فهو أول من يطالب بإذاعة أدب «الشابي» في هذا الشعر المتجدد الحي.

٣

وأبو القاسم الشابي: «حياته وشعره»، كتاب ممتاز لأديب ممتاز عن شاعر ممتاز. ألفه أحد نوابغ الأدباء التونسيين السيد «أبو القاسم مُحَمَّد كِرُّو» من خريجي دار المعلمين العالية ببغداد، ومن الشباب الناهض الواعي الوطني الغيور الذي درس وساح وفكر، ثم بدأ يزكي عن معرفته لأبناء الضاد جميعًا، فأتحفنا بنخب من شعره المنثور، في كتابه «كفاح وحب»، ثم نفح العربية بدراسة ممتعة لحياة «أبو القاسم الشابي» وشعره، سيُتبعها بدراسةٍ أضخمَ.

وتقع هذه الدراسةُ التي نحن بصددها، في كتاب ينتظم ثماني وثلاثين ومائتي صفحة، من القَطْع المتوسط مطبوعة طبعًا أنيقًا، ومزدانة بصور ملونة جميلة، للقصائد البديعة التي أثبتها أو على الأصح لأهمها بريشة الفنان «ع. شهال»، وقد عُنِيَتْ بإخراجها في صورة جذابة «المكتبة العلمية» ومطبعتها، في «بيروت».

وما كان الأستاذ «كرو» ولا شاعرنا العبقري «أبو القاسم الشابي»، بحاجة إلى شيء من البهرج والتزويق، ومع ذلك فإنه يبهجنا أن نرى الطبع الأنيق، والشعر الأنيق، والرسم الأنيق؛ في مثل هذه الوحدة الجميلة الخلابة.

وبروح المعلم، وأسلوب الأديب الشاعر المعلم يُحْسِنُ الأستاذ «كرو» في تقسيمه الكتابَ وفي عرضه مواده، فيتحدث بعد مقدمته البليغة، عن الحياة الثقافية في «تونس» القديمة، ثم عن النهضة الحاضرة، فعن حياة الشاعر وبيئته الاجتماعية، وعن تأثُّره بالأدب المهجري، وعن طاقته التصويرية والتعبيرية، ثم عن زواجه وحبه وعن مؤلفاته، ثم يأتينا بمختارات شائقة من شعره فيقسمها قسمين:

أولهما: ما يرجع إلى ما قبل العشرين.

وثانيهما: ما يرجع إلى ما بعد العشرين من سني الشاعر حتى وفاته، ثم يختم كتابه بنماذجَ رائعةٍ من نثر الفقيد ومعظمه بمنزلة شعر منثور.

وليس بوسعنا في هذه الإلمامة أن نتناولَ تفاصيلَ ما عرضه المؤلف الفاضل؛ تمهيدًا للكلام عن ألمعية «الشابي»، ولكن بحسبنا أن نشير إلى أن هذا النابغة ظهر – ككثير من النوابغ – في وسط متأخر بحكم الظروف السياسية والاجتماعية المعروفة، فلم يتجاوب ذلك الوسط معه، ولكنه ارتفع فوق الوسط كما ترتفع المنارة، فلا تحس بها الأرض التي تحتها، ولكنها تشع إلى مسافات بعيدة.

وفي بداية الكتاب اهتم المؤلف بالتنبيه إلى أن صحة اسم شاعرنا هي «الشَّابِّيُّ» لا «الشَّابِي»؛ نسبة إلى الشابِّيَّة إحدى ضواحي مدينة «توزر» كبرى بلاد «الجريد» بالجنوب التونسي، وهذا غير مجهول في الشرق العربي الذي يميل

أهله عادة إلى تخفيف النطق بالأسماء — ولا سيما في مصر — ومن ثمة نطقوا اسم شاعرنا المحلق بالباء المخففة والياء الممدودة، وجاراهم الخاصة في هذا النطق، وإن لم يجهلوا الوضع الأصليَّ لاسمه.

وقد أُعجبنا بتحليله للعناصر التي أسهمت في تكييف حياة الشاعر، وأغلبها مزيج من الأحزان والحرمان، ويا لها من عناصرَ أثيمةٍ تألَّبَتْ على كثيرين من الموهوبين فصهرتهم صهرًا، وضحَّتْ بهم؛ لتغنم نورَهم الوهَّاجَ المنبعثَ من احتراقهم!

وبين الخيوط التي حاكها الأستاذ «كرو» في نسج سيرة «الشابي» بيئة الطبيعة الجميلة التي حفت بالشاعر، ودراسته الواسعة، التي انتهت بتخرجه في كلية الحقوق التونسية في سنة ١٩٣٠م، وهو في الحادية والعشرين، ونكبته بوفاة والده عائل الأسرة، وفشله في زواجه، ومرضه الطويل المؤلم إلى أن توفي في الثامن من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٤م غيرَ متجاوزٍ خمسةً وعشرين عامًا؛ إذ ولد مع الربيع في آذار من سنة ١٩٠٩م.

يقول المؤلف الكريم في رسالةٍ أدبيةٍ إلينا بتاريخ الخامس من مايو سنة ١٩٥٣، جاءتنا إثرَ تسلُّمنا كتابه الممتع:

يسرني أن تتفضلوا بإبداء رأيكم ... خصوصًا أن لكم صداقة شخصية قديمة بالفقيد «الشابي»، ويعود لكم الفضل الأول في تعريف القراء بأدبه منذ عشرين سنة مضت، وحتى اليوم، وأنتم تكتبون عنه في مناسبات مختلفة دراساتٍ عميقةً قويةً، ومع ذلك فإن أدب «الشابي» لا يزال بحاجةٍ كبيرةٍ إلى البحث والكتابة والدرس، وكم كان مؤسفًا حقًّا موقف أهله بعد موته، ورغم مرور ثمانية عشر عامًا على وفاته فإنهم لا يزالون مصرِّينَ – في عناد الحمقى والجهلة – على عدم نشره! لا لسبب سوى عقلية محنَّطة وأفهام متحجرة، وهكذا لم أجد

مناصًا من العمل، بكل ما لدي من جهود وإمكانيات، على خدمة هذا الفقيد المنكوب في حياته وبعد موته ...

لقد كان أهلُه سببَ موتِه المادي، وها هم أولاء اليوم يتآمرون على قتله المعنوي، فيرفضون في عناد نشر مؤلفاته وديوانه المعد للطبع رغمَ كل العروض المغرية التي عُرِضَتْ عليهم، وقد كان الفقيد أعده للطبع واتفق معكم - حسبما أظن - على طبعه في مصر، ثم عاجله الموت قبل أن يرسل إليكم الديوان بيوم واحد. هذه حقائق لست أدري إذا كان لكم علم سابق بها أم لا.

وقد رأيت - كأحد مواطني «الشابي» - أن أنشر عنه كل ما هو عندي من أدبه ومعلومات حياته؛ خدمة له وللأدب العربي الذي يعتز بالشابي، فكان أول عمل قمت به هو نشر كتابٍ يشمل دراسة طويلةٍ لحياة الفقيد وبيئته ومؤلفاته، ثم عرْض نماذج مختارةٍ من شعره ونثره؛ لتكون لدى القراء صورة كاملة عنه، ولست أدري مدى نجاحي في عملي هذا، ولكني أعلم مدى إخلاصي فيه وحبي للشابي. على أنني سوف لا أقف عند هذا، بل إنني سأواصل العمل على إنجاز كتاب ضخم عن «الشابي» يكون أكبر مرجع لحياته وأدبه، وأنا الآن بصدد إعداد هذا الكتاب الذي يحتاج إلى زمن طويل؛ كي ينجز على أكمل وجه مستطاع، وإنني أُرَحِّبُ سلفًا بكل ملاحظاتكم واقتراحاتكم وتوجيهاتكم، ويسرُّني كلَّ السرورِ أن ألقى منكم كلَّ اهتمامٍ وعناية ومعونة! ...

وإننا لنبادر فنقول: إن العمل المجيد الذي قام به الأستاذ «كرو» هو في حد ذاته خدمة جليلة لذكرى «الشابي» وأدبه، ونحن على علم بما ذكره، وقد كانت رغبة الفقيد العزيز أن نكتب مقدمة دراسية تحليلية لديوانه، وأن تتولى إصداره في مصر «جمعية أبوللو» التي كان في طليعة أعضائها المراسلين، وأن وصيته لم تُنَفَّذْ! ... لقد تَجَمَّعَتْ لدينا رسائلُ كثيرةٌ من الفقيد العزيز، تُعَدُّ

بأسلوبها العالي وبصراحتها الوجدانية من عيون الأدب الفكري والعاطفي معًا، ولكنها، مع مئات الرسائل الأدبية من أدباءَ وشعراءَ أعلامٍ شرقًا وغربًا – وبينهم شعراء وأدباء بارزون في المهاجر – قد ضاعت تحت وطأة العهد البائد في مصر قبل هجرتنا وبعدها، وكنا نؤثر ضياع بقية مكتبتنا المخزونة على أن تنال الأيدي المتطاولة المتجسسة ذلك الأدب الحي والتاريخ الأدبي المعاصر الذي سُلِبَ منا، وقد جاء ضياعُ تلك الرسائل القيمة التي تجمعت لدينا منذ سنة **١٩٢٣** إلى سنة **١٩٤٦م**، من أقسى المآسي الأدبية المتعددة التي نُكبنا بها في حياتنا المضطربة.

أمَّا وهذا المصدر الهام لدراسة نفسية «الشابي» ليس تحت أيدينا فليس لنا إلا أن نشاطر الأستاذ «كرو» الأمل في أن أصدقاء الفقيد العزيز، وفي مقدمتهم الأديب الموهوب الأستاذ «مُحَمَّد الحليوي»، وشقيق الفقيد الأستاذ «مُحَمَّد الأمين الشابي»؛ سيتمكنون أخيرًا من إنقاذ الآثار الباقية للشاعر الفقيد، من أيدي أسرته، ونشرها للعالم العربي، ولعالم المستشرقين، ودارسي الأدب المقارن، ففي ذلك تشريف للأسرة بالذات وتشريف لأبناء الضاد جميعًا.

وبعد؛ فقد رأينا الأستاذ «كرو» يتحدث عن تأثر «الشابي» بالأدب المهجري، وعندنا أنه لم يتأثر به أي تأثرٍ خاص، ولو جاء شطر أو بيت له في صياغته الكلاسيكية – مع اختلاف المعاني – مماثلًا لصياغة «جبران» أو سواه، مثلما تقع الحافر على الحافر؛ كما يقال.

لقد كانت للشابي ذاكرة «فوتوغرافية»، وهو الذي أتم حفظ القرآن الشريف في التاسعة من عمره حِفظًا كاملًا، كما كان له اطِّلاع واسع – عن طريق اللغة العربية التي لم يكن يعرف سواها – على آداب شتى مترجمة، لا على الأدب العربي وحده، وكانت له قبل كل هذا وبعده لوذعية أصيلة حلَّقت فوق

كل تقليد وتأثُّر حتى منذ نعومة أظفاره، وعلى ذلك لنا أن نعتقدَ أن أيَّة مشابهة بين شعره، وبين بعض الشعراء المهجريين، هي من باب المصادفة لا أكثر. ولعل أعظم تجاوب للشابي كان مع زملائه شعراء «أبوللو» حتى قبل ظهور مدرستها! ونحن شخصيًّا أُولعنا بالشابي لا لعبقريته الفنية فحسب، بل لإنسانيته الرفيعة ولوطنيته السامية أيضًا. وكان التجاوب بيننا تامًّا مع تميُّزه هو بأناقةٍ لا نعرف لها نظيرًا إلا في قصائد الشاعر الفحل العظيم «بشارة الخوري»، مثال ذلك موسيقى «الشابي» في قصيدته الخالدة «صلوات في هيكل الحب» التي يقول في مطلعها:

عذبـة أنـت كالطفولـة، كـالأحلام　　　كــاللحن، كالصــباح الجديـــد!

فهي متجاوبة مع قصيدة «عُرْس المأتم» التي كان يعجب بها «الشابي» ديوان «زينب»، وقد جاء في مطلعها غير المسبوق إلى طرازه:

عَذْبَـةٌ أنــت في الخفــاءِ وفي الجَهْـر　　　وفي الهَجْـــرِ، يا أغـــاني الظـــلام!

بلِّغـــي العاشــقَ الأمـــينَ مَـــدَى　　　العمـــرِ شـــقاءً لقلبـــهِ المســـتهامِ!

وارقئـــــي أَدْمُعـــــي؛ فحســــــبي　　　عـزاءً أن يُسَـرَّ الحبيـبُ مـن إيلامـي!

ومثال آخر قصيدته العظيمة «إرادة الحياة»، فإنه متجاوب في مغزاها مع الشطر الأخير من قصيدة «النهضة إرادة» ديوان «الشفق الباكي»، وقصيدته الجميلة «الصباح الجديد» التي يقول في مطلعها:

اســــــــكتي يا جـــــــــــراحْ　　　واســـــــــكني يا شـــــــــجونْ!

فهو متجاوب فيها بطراز موسيقاها مع قصيدتين رائدتين هما «قصيدة الوداع»، «قطرة من يراع، الجزء الثاني» وقد جاء في مطلعها:

انْتَهِــــــــبْ يا شُـــــــــعاعْ نَـــــبْضَ قَلْـــــبي الحـــــزينْ

حـــــان وقـــــتُ الــــــوداعْ ليتَـــــــــه لا يَحـــــــــينْ

انتهـــــــــبْ يا شــــــــــعاعْ أنا ذاك القريـــــــــــــــبْ

إن روحــــــــــي مُشـــــــــاع في مـــــــــداك العجيـــــــب!

وقصيدة «بعد الصيف» ديوان «أشعة وظلال» التي جاء في مطلعها:

اضـــــــــحكي يا رِمَـــــــالْ مِـــــــنْ هَـــــــديرِ المِيـــــــاهْ

غـــــابَ مُلْـــــكُ الخَيـــــالْ وتَجَلَّـــــــــى سِـــــــــوَاهْ

ذاك بَحْـــــــــرُ الـــــــــدُّموعْ مِـــــــنْ بكـــــاءِ الزَّمـــــانْ

فهْـــــو دَوْمًـــــا مَـــــرُوعْ مِـــــنْ مَـــــآلِ الهـــــوانْ

كـــــــــلُّ حُسْـــــــــنٍ بَنـــــاهْ بيديْـــــهِ يَـــــزولْ

ومِـــــــــــــــــرارًا رَثَاهْ وأطـــــــــالَ العويـــــــــلْ

اضـــــــــحكي يا رِمَـــــــالْ مِـــــنْ فُتـــــوني العظـــــيمْ

أنا عبـــــــــدُ الجَمـــــــالْ الضَّـــــــــريرُ الحكـــــــيمْ!

وكان «الشابي» كما كان «ناجي» – رحمة الله عليهما – معجبًا بكلتا القصيدتين، وكلاهما نَسَجَ على منوالهما، فإذا أراد الأستاذ «كرو» التوسع في مبلغ تجاوب «الشابي» مع شعراء عصره، فليتجه إلى الشرق قبل اتجاهه إلى الغرب.

ومهما يكن من شيء فإننا نؤمن بأن «الشابي» كان ذا عبقرية فنية أصيلة

في منتهى الأناقة، كما كان وطنيًّا عظيم الإخلاص متأهبًا للزعامة في بيئته، وفي هذا يختلف عن «ناجي» الذي اقتصر جلُّ شعرِه على وجدانياته الذاتية، وغنائياته العاطفية، ولم يسهم في الحركة الوطنية.
وكان هذا من أسباب ولوعنا بالشابي الذي يوصف إجمالًا بأنه الفنان المبدع المحلِّق، والإنساني النبيل والوطني الغيور المضحي، وقد حقق بمثاليته الشريفة تأميلنا في أن يكون الشاعرُ زعيمًا هاديًا بين بني قومه، إن لم يكن أيضًا زعيمًا إنسانيًّا، وفي هذه النزعة والتعبير عنها كان تجاوب «الشابي» معنا كاملًا، وكنا نعمل كجنود في فرقة واحدة.

أما ما نقترحه إلى جانب استقصاء التفاصيل للدراسة، فهو شرح شعر «الشابي» ونقده نقدًا فنيًّا مقارنًا قصيدة فقصيدة، فتنتج عن ذلك دائرة معارف أدبية لغوية فنية واسعة يخدم بها الأدب الحديث؛ كما تنصف به مواهب شاعرنا الخالد الذكر.

إننا لمشغوفون فخورون بتدريس شعر الشابي وأدبه وبالتحدث عن سيرته الزكية ولن نمل ذلك، ونعتقد أن قراء العربية لن يملوا من قراءة ما كتب وما سيكتب عنه، ولو تعددت التراجم والدراسات. ونعتقد أن كتاب الأستاذ «كرو» هو من خيرة الدراسات التي قرأناها عن أي شاعر أو أديب، فإليه نكرر التهنئة كما نُزْجِيها إلى الناشرين المحسنين.

الهوامش

(١) مجلة «أبوللو»، المجلد الثاني، مايو سنة ١٩٣٤، ص٨١٠.

(٢) مجلة «أبوللو»، المجلد الأول، أبريل سنة ١٩٣٣، ص٨٤٨.

(٣) مجلة «أبوللو»، المجلد الأول أبريل سنة ١٩٣٣، ص٨٦٨.

(٤) مجلة «أبوللو»، المجلد الأول، مايو سنة ١٩٣٣، ص١٠٢١.

(٥) مجلة «أبوللو»، المجلد الأول، مايو سنة ١٩٣٣، ص١٠٢٢.

(٦) مجلة «أبوللو»، المجلد الأول، يونيو سنة ١٩٣٣، ص١١٤٦.

(٧) مجلة «أبوللو»، المجلد الثاني، سبتمبر سنة ١٩٣٣، ص١٨.

(٨) مجلة «أبوللو»، المجلد الثاني، يناير سنة ١٩٣٤، ص٣٨٨.

(٩) مجلة «أبوللو»، المجلد الثاني، يناير سنة ١٩٣٤، ص٣٩٠.

(١٠) مجلة «أبوللو»، المجلد الثاني، فبراير سنة ١٩٣٤، ص٤٨١.

(١١) مجلة «أبوللو»، المجلد الثاني، مارس سنة ١٩٣٤، ص٦٠٨.

(١٢) مجلة «أبوللو»، المجلد الثاني، مايو سنة ١٩٣٤، ص٨٤٧.

(١٣) مجلة «أبوللو»، المجلد الثاني، فبراير سنة ١٩٣٤، ٤٨١.

محمد مهدي الجواهري

ليس من الميسور في كل جيل أن نظفر بشاعر مستوعب لروح قومه، أو مهتم بالمثل الإنسانية العليا اهتمامًا يستحوذ على مشاعره، فتذوب عناصر فنه في هذا الشعور، ويخرج من الآثار الفنية الرفيعة ما تتبلور فيها عواطفه وتفكيره وأمانيه وأحلامه وأخيلته، في وحدة منسجمة جذابة.

أجل، ليست مثل هذه الظاهرة ميسورة في كل جيل، وإن جاز أن ينبغ شعراء، لا شاعر فحسب، في جيل بعينه نبوغًا مجردًا يعتمد على طاقتهم الفنية لذاتها لا غير، في حين قد يتدلى أو ينحدر شعرهم، فلا تكون له أية قيمةٍ سوى قيمةِ الألق الباهر، الذي يعجب به أو يتسلى الناظرون، أو الخمرِ التي يلهو بها الشاربون!

وبين أولئك الأفذاذ الشاعر العراقي الجهير مُحَمَّد مهدي الجواهري الذي حافظ للوطنية العراقية على مكانةٍ رفيعةٍ في الشعر العصري، بعد أن حُرِمَتْ علميها الشامخين «الرَّصافي» «والزَّهَّاوي»، كما أسهم بشعره القيم في الدفاع عن حقوق الإنسان وكرامته قبل أن يشغل بنفسه أو بتوافِهِ الوجود. وتألُّقُ نجمه في سماء العالم العربي يتفق واليقظة الشاملة، بل اليقظة القومية عامة في أقطار العروبة؛ كما أن صدور ديوانه بجزأيه يتفق وظهور نفحات شعرية أخرى رائعة، من بلاد الرافدَين، بله ظهور آثار المجمع العلمي العراقي، التي تنم عن نضوج فكري عظيم. يضم الجزآن من هذا الديوان ستًّا وخمسين قصيدة، من عيون الشعر العالي، وقد أهداه الجواهري «إلى مَنِ اختاروا عامدين مُصِرِّين صامدين طريق الحرية والنور والخلاص، إلى من تحملوا متحفزين آلامهم وحرمانهم في هذا السبيل، إلى ضحايا الجور والحقد والانتقام، إلى من كانوا يقدرون، لو أرادوا أن لا يكونوا كذلك».

والديوان محلًّى في جزأيه بطائفة من الصور الفنية، وله مقدمة وجدانية مؤثرة نسجها في أسلوب قصصي، وجاءت بمنزلة ترجمة لسيرته الفكرية والعاطفية، وهي ناطقة بروح الحرية والشمم، شارحة لتطوره الذهني والنفساني.

يميل شاعرنا إلى النظم المطول، ولكنه لا يُسِفُّ، وفي الثلاثين والأربعمائة صفحة التي تحتوي على مئات الأبيات من شعره الحي نجد شواهدَ لا حصر لها، على الشاعرية المتوقدة، وعلى المثالية الرفيعة، وعلى الديباجة الجزلة الفريدة في صياغتها الكلاسيكية الفخمة، حينما هي في الوقت ذاته تعلن أنها خادمة وحيه، وليست بالمسيطرة التي يحتمي وراءها النظامون السطحيون، لو أن لهم بلوغَ شَأْوِها، ومع ذلك فما يزال للجواهري شعر كثير لم يدوَّن بعدُ.

ويستوقف انتباهنا رثاؤه لشاعر النيل «مُحَمَّد حافظ إبراهيم»، فالشبه في الروح الوطنية الإصلاحية بين الشاعرين عظيم، وقد عاش كلاهما لشعره وفي شعره، واحتمل ألوان الحرمان في سبيل إخلاصه، وإن كان لكل منهما ظروفه وبيئته التي كيفت إلى درجة محسوسة أسلوبه وتفكيره وتفاعله معها، وقد كان «حافظ» يميل إلى النصوع البياني مع شيء من الجزالة وإلى التبسط غالبًا، وهو الذي ينسجم والذوق المصري في زمنه.

أما الجواهري فديباجته متناهية في الجزالة القوية التي تلائم الذوق العراقي من ناحيةٍ، وتنسجم وشخصيته الثائرة من ناحية أخرى، وكلا الشاعرين ذو طاقة شعرية محترمة، ولكن طاقة «الجواهري» أعظم من طاقة «حافظ» وتفكيره أوسع، وكلاهما موسيقيُّ الطبع، ولكن موسيقى «حافظ» أسلس، وكلاهما راق في انفعالاته؛ لأننا لا نعد من الانفعالات الهابطة الأوصاف القصصية التي نجدها في مثل ملحمة «أفروديت»، «للجواهري».

وكلا الشاعرين يحترم المذهب الواقعي، ولكننا نجد المذهب الفني ذا سلطان أعظم على «الجواهري»، ونجد «الابتداعية» بل والرمزية تبتسمان في أسلوبه الكلاسيكي لمن يتجاهلهما في شعره، وكلا الشاعرين ينظم غالبًا في مناسبات خاصةٍ أو عامةٍ، ولكنه ارتفع غالبًا فوق حدود المناسبات.

وحينما يؤرخ لزعامة الشعر الإصلاحية في أقطار العروبة، ستكون للشاعر الحر، الصادق الوطنية والإنسانية «محمد مهدي الجواهري» مكانةٌ خالدة من الإكبار، فوق كل إعزاز لقيه من الأقطار العربية التي حل فيها!

وبعد، فما من قصيدة لهذا الشاعر الفحل إلا وهي مشرقة بأطياف وألوان فنية عديدة، وما من قصيدة له إلا وهي برهان دامغ على أن الشاعر المطبوع القدير المتضلع من لغته، لا يخضع للقافية ولا للفظ، بل إنها طَوْعُ قلمه طواعية اللازب[1] لأنامل المثَّال، وما من قصيدةٍ له إلا وهي صاحبة رسالة لجميع الأحرار، ودليل على أن الشاعر القمين بهذا الوصف حريٌّ – إذا شاء – أن يكون زعيمًا ملهِمًا لبني قومه ولبني الإنسان.

ومنذ يستهل «الجواهري» ديوانه بقصيدته البديعة «حنين» الجامعة بين «الرمزية» و«الابتداعية» لا يترك القارئ من خميلةٍ إلا إلى خميلةٍ. استمعْ إلى هذا الوصف الرائع:

أَحِــــنُّ إلى شَــــبَح يَلْمَــــحُ ... بعيــــنيَّ أطيافُــــه تَمْــــرَحُ

أَرَى الشَّــمْسَ تُشْــرِقُ مِــنْ ... وَجْهِــه ومــا بــينَ أثوابــهِ تَجْــنَحُ

رَضِــيَّ السِّــماتِ، كــأَنَّ الضــميرَ ... علــى وَجْهِــه أَلِقًــا يَطْفَــحُ

كــأنَّ العَبــيرَ بأردانِــه علــى ... كــلِّ «خــاطرةٍ» يَــنْفَحُ

كـــأنَّ بريـــقَ المُـــنى والهَنَـــا بعينيْـــه عـــن كوكـــبٍ يَقْـــدَحُ

كـــأنَّ غـــديرًا فُوَيْـــقَ الجبيـــ ـــن عـــن ثِقَـــةٍ في «غـــدٍ» يَنْضَـــحُ

كـــأنَّ الغُضُـــونَ علـــى وَجْنَتَيْـــهِ يُكَـــنَّ بهـــا نَغَـــمٌ مُفْـــرِحُ

وهذه القوة الوصفية؛ كالمقدرة اللغوية البيانية إلى جانب العاطفة الجياشة، مِن ألزم خصائص شعره، ولكن لننظر في أيسر شعره الذي يريد أن يخاطب به الجمهور ولو بأسلوب غير مباشر، وهذا مثال منه، في نصرة العدل والمساواة والحرية:

ألا قُـــوَّةٌ تَســـطيعُ دَفْـــعَ المظـــالِمِ وإنعـاشَ مخلـوقٍ علـى الـذُّلِّ نائـمِ؟

ألَا أَعْـــيُنٌ تُلْقِـــي علـــى الشـــعبِ هـاويًا إلى حَمْأَةِ الإدقاعِ نظرةَ راحمِ؟

وهـــل مـــا يُرَجِّـــي المصـــلِحون يَرَوْنَهُ مواجَهةً أم تلك أضغاثُ حالِمٍ؟

إذا رُمْـــتُ أوصـــافًا تَليـــقُ بحالـــةٍ تَعَرَّفْتُهـا ضـاقتْ بُطُـونُ المَعَـاجمِ

هِـــيَ الأَرْضُ لَمْ يَخْصُـــصْ لهـــا اللهُ مالكًـا يُصَـرِّفها مُسـتهترًا في الجـرائمِ

ولم يَبْـــغِ منهـــا أَن يكـــون نِتاجُهـــا شـــقاوةَ مظلـــومٍ ونِعمـــةَ ظـــالمٍ!

وفي الديوان من الشعر الوجداني الجميل نماذجُ جَمَّةٌ، وكذلك من شعر الطبيعة كقصائده «دجلة في الخريف»، و«يافا الجميلة» و«الأصيل على دجلة»، وفيه من استيحاء التراث العربي ومن الأماني القومية نفائس ستحيا على الزمن. «والجواهري» في أصالة فنه وفي تفانيه بمبادئه الشاملة الرفيعة هو من أولئك القلائل الجديرين بأن يُدْرَسُوا دراسة جامعة في كتاب بل كتب، وممن لا يجوز أن تحدد نسبتهم بقطرٍ معين، ولو كان مسقط رأسهم.

الهوامش

(١) اللازب: الطين الذي يستعمله المثَّال.

نزار القباني

شاعر الغزل الفني الحسي

«نِزار القبَّاني» ليس شاعرًا من شعراء الشباب الموهوبين في سوريا فحسب، بل أصبح يعد من أقطاب الغزل الفني الحسي في العالم العربي ولما يبلغْ نهاية العقد الثالث من عمره. وليس هذا بعجيب، فهو من أسرة اشتهرت بالأدب والفن كما اشتهرت بالوطنية، وحسبنا أن نشير إلى جده الفنان «أبي خليل القباني» أول من حمل لواء التمثيل المسرحي من بلاد الشام إلى وادي النيل، ومن هناك انعكست أضواء المسرح على سائر الأقطار العربية، كما نشير إلى والده «توفيق القباني» الوطني الغيور الذي اعتقل عدة مراتٍ ونفي إلى قلعة «تَدْمُر» إبان الاحتلال الفرنسي، وكانت دار القباني في «دمشق» مركزًا مهوبًا من مراكز الكتلة الوطنية!

وهكذا ورث نزار الملكة الفنية، كما أن نشأته في ذلك الوسط الوطني العريق أضافت إلى تعلقه بالشعر والأدب والموسيقى والتصوير منذ صباه؛ تعلُّقَه بوطنه وخدمته في المجال السياسي، وقد هيأه لذلك نيله درجة «أستاذ في الحقوق» من الجامعة السورية بدمشق فتدرج في خدمة وزارة الخارجية السورية.

وعلى الرغم من هذه الظروف المواتية، وعلى الرغم من شاعريته المبكرة التي دفعته إلى نظم ملحمةٍ شعرية سماها «دنيا الحروب» خلال دراسته الثانوية، وقد نالت تقريظًا في وقتها، لم يُعْنَ «نزار» حتى الآن بترجمة وطنيته ولا إنسانيته شعرًا، وإنما اقتصر على استلهام «الأنوثة» حسيًّا ومعنويًّا في تعابيرَ منوعةٍ: بعضها مكشوف وبعضها رمزي، وقد تجلت بها جميعًا الأناقة والرشاقة والتغني

الموسيقي الخفيف الخاطف.

أصدر شاعرنا ديوانه الأول «قالت لي السمراء» عام ألف وتسعمائة وخمسةٍ وأربعين، ثم مجموعته الشعرية «ساميا» عام ألف وتسعمائة وتسعٍ وأربعين، بعد ديوانه الثاني «طفولة نهد» الذي سبقها بعامٍ، وأخيرًا طالعنا بديوانه الثالث الموسوم «أنتِ لي»، وفي جميع ما اطلعنا عليه من شعره نجد الشاعرية الممتازة، بأخيلتها الوثابة ورمزيتها المبتدعة، وموسيقاها الهفهافة الساحرة، ونجد كل هذه الخصائص الرشيقة مندمجة في معاني الأنوثة اندماجًا خلابًا عجيبًا.

ومهما تكن نزعات شاعرنا في سِنِّه الحاضرة فلا ريب عندنا في أن وطنيته وإنسانيته ووطنية أسرته المأثورة الموروثة ستتجلى في شعره مستقبلًا عندما تزيده التجارب والسن نضوجًا. أما شعره الحاضر فليس مع ذلك بالجمال المجرد، فإن تغنيه بجمال المرأة – وإن تدلى أحيانًا – هو توجيه بديع إلى نبعٍ طبيعي قد يصدف عنه في البيئات المتأخرة، بحكم العزلة والحجاب، وإن تغنيه بجمال الطبيعة في ألوانها وصورها المنوعة لثروة فنية ممتازة!

يقول شاعرنا في تصدير ديوانه الجميل «طفولة نهد» الذي يمثل في كل صفحة من صفحاته وفي مظهره آيات من الرشاقة النفوس الساحرة:

إن الشعر هو كهربة جميلة لا تعمر طويلًا، تكون النفس خلالها بجميع عناصرها من عاطفة، وخيال، وذاكرة، مسربلة بالموسيقى. ومتى اكتست الهنيهة النفسية ريش النَّغَم، كان الشعر؛ فهو بتعبير موجز النفسُ الملحَّنة. لا تعرف هذه الهنيهة الشاعرة موسمًا ولا موعدًا مضروبًا فكأنها فوق المواسم والمواعيد، وأنا لا أعرف مهنةً يجهل صاحبها ماهيتها أكثر من هذه المهنة التي تغزل النار، والذي أقرره أن الشعر يصنع نفسه بنفسه وينسج ثوبه بيديه وراء ستائر النفس، حتى إذا تمت له أسباب الوجود واكتسى رداء النغم، ارتجف أحرفًا تلهث على الورق.

ويقول أيضًا:

الشعر يحيط بالوجود كله، وينطلق في كل الاتجاهات فترسم ريشته المليحَ والقبيحَ، وتتبادل المترف والمبتذل، والرفيع والوضيع. ويخطئ الذين يظنون أنه خط صاعد، دائمًا؛ لأن الدعوة إلى الفضيلة ليست مهمة الفن بل مهمة الأديان وعلم الأخلاق، وأنا أومن بجمال القبح ولذة الألم وطهارة الإثم، وهي كلها أشياء صحيحة في نظر الفنان. تصوير مخدعِ مومسٍ وارد في منطق الفن ومعقول، وهو من أسخى موضوعات الفن وأغزرها ألوانًا. أما المومس من حيث كونها إناء من الإثم وخطأ من أخطاء المجتمع، فهذا موضوع آخر تعالجه المذاهب الاجتماعية وعلم الأخلاق.

وواضح أن شاعرنا متأثر في كل هذا بفلسفة «كروتشي» الفنية بحسية «بودلير».

وبين ملاحظاته في تصديره الرائع قوله: «مهمة القصيدة كمهمة الفراشة، هذه تضع على فم الزهر دفعة واحدة جميع ما جنته من عطر ورحيق متنقلة بين الجبل والحقل والسياج، وتلك – أي القصيدة – تفرغ في قلب القارئ شحنة من الطاقة الروحية تحتوي على جميع أجزاء النفس وتنتظم الحياة كلها.»

ولكنه يعود فيناقض نفسه قائلًا إن الشعر «زينة وتحفة باذخة فحسب، كآنية الورد التي تستريح على منضدتي لست أرجو منها أكثر من صحبة الأناقة وصداقة العطر»! وشاعرنا حر في مذهبه وإن لم يَثْبُتْ عليه تعريفًا، ونرجو أن يتحول عنه عمليًّا في مستقبله؛ لأن من الخسارة للإنسانية أن تُقْصَرَ هذه الموهبةُ الفنية على ثغور وأثداء وما إليها.

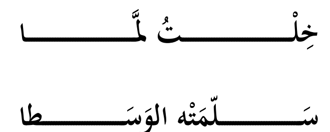
إننا لنتفق مع شاعرنا في الكثير من ملاحظاته، ولا نبيح مطالبة أي شاعر

بغير ما يُطبع عليه، ولكننا نُهدي أعظم تحية وأوفر إجلال – كما فعلت الإنسانية على كر الأجيال – إلى الشاعر الذي تذوب عناصره الفنية الأصيلة الصادقة دون تصنعٍ في مثاليته الإنسانية السامية.

وهو جد محسن حين يقول: «أريد أن يكون الفن ملكًا لكل الناس، كالهواء وكالماء وكغناء العصافير. يجب ألا يحرم منها أحد. إذن يجب أن نعمم الفن؛ أن نجعله بعيد الشمول، ومتى كان لنا ذلك استطعنا أن نجذب الجماهير المتهالكة على الشوك والطين والمادة الفارغة إلى عالمٍ أسواره النجوم وأرضه مفروشة بالبريق ... متى جذبنا الجماهير إلى قمتنا نبذوا أنانيتهم، وتخلوا عن شهوة الدم، وخلعوا أثواب رذائلهم؛ وهكذا يغمر السلام الأرض وينبعث الريحان مكان الشوك. إنني أحلم بالمدينة الشاعرة؛ لتكون إلى جانب مدينة الفارابي الفاضلة، وحينئذ فقط يكتشف الإنسان نفسه ويعرف الله.»

وكل هذا حلم جميل، ولكنه أبعد ما يكون عن التسامي بالإنسانية، والمدينةُ «الشاعرة» التي يتغنى شاعرنا بها نثرًا لا وجود لها في شعره، وإنما فيه رمزية شائقة وأخيلة رائعة وأوصاف باهرة وموسيقى خلابة، ولكنها في مجموعها لا تسوق أحدًا إلى القمة التي يشير إليها وقد تسوقه إلى الهاوية!

أجل، إن المثالية الحميدة التي يمجدها في تصديره المشار إليه قد نجدها في شعر «تاجور» الإنساني، ولكننا لا نجدها في شعر «نزار القباني» الحسي، ومن أهون نماذجه قوله:



كَبِـــــــدَيْن اختلَطَـــــــا

حِـــــــينَ ضُــــــــمَّا

فِي ضُـــــــــــــــلوعِهْ

غـــــرَّزَتْ سِـــــكِّينَ فِضَّــــه

نَبْضُـــــها أصـــــبحَ نَبْضَــــه

مِـــــــــنْ وُلوعِــــــــهْ

مِـــــــــنْ يَمينِـــــــــهْ

تَخِـــــــــذَتْ زُنارَهَـــــــــا

وأراقـــــــــتْ نارَهَــــــــا

فِي جُفونـــــــــــــــــهْ

لَا مَفَـــــــــــــــــــرُّ

لـــــيس تَســـــطيعُ خُلوصَـــــا

أكـــــلَ النَّهْـــــدُ القميصَـــــا

فهـــــــــو جَمْـــــــــرُ!

يقول شاعرنا: «... وفي سبيل هذه الفلسفة، فلسفة الغناء العفوي، حاولت فيما كتبت أن أرد قلبي إلى طفولته، وأتخير ألفاظًا مبسطة، مهموسة الرنين، وأختار من أوزان الشعر ألطفها على الأذن، وإن القارئ ليحس أن الكلام الذي أهمس له به يعرفه ويردده كأنه هو الذي يغني، فإذا أحس القارئ

بأن قلبي صار مكان قلبه، وانتفض بين أضلعه هو، وأنه يعرفه قبل أن يعرفني، وأنني صرت فَمًا له وحنجرة، فلقد أدركت غايتي وحققت حلمي الأبيض، وهو أن أجعل الشعر يقوم في كل منزل إلى جانب الخبز والماء.»

وعلى الرغم من اعترافنا بأن الأناقة الفنية في شعر نزار ممتازة امتياز طاقته الشعرية وأصالته، فإننا نعجز عن تصور شيوع شعره في كل بيت ما دامت صلته بالحياة التي نحياها، بله التي نتسامى إليها، محدودة. وإذ نراه ينتقد الشعر الاجتماعي وشعر الرثاء ونحوهما؛ نرى من المفيد أن نختم هذا الحديث على سبيل المقابلة ودعمًا لوجهة نظرنا بمقتطفات من قصيدة «جبل النار» لشاعرٍ سوري آخر أنيق هو «عمر أبو ريشة»، التي نظمها رثاءً للوطني الفلسطيني «سعيد العاص» الذي استشهد سنة ألف وتسعمائة وست وثلاثين:

أشْـبَعَتْهُ الأجيــالُ خَـتْلًا فــأغْفَى ... تحــتَ هَــزْجِ الأعــراسِ والأفــراحِ

حــين مَوْجاتُــه تَمُــوجُ علــى الكــوْ ... نِ بِعَــــزْفِ النُّبـــــوَّةِ الفَـــــوَّاحِ

وتَــرِفُّ الحيــاةُ فيـــهِ علــى وطــ ... ـــآتِ عَــيْشٍ في جيئــــةٍ ورَوَاحِ

نَفْحَـــةٌ لِلنَّعِــيم مَــرَّتْ وأَبْقَــتْ ... مــا يُبَقِّــي السِّــكِّيرُ في الأقــداحِ

فـــــإذا الأعْصُــــــرُ الخَــــوالي ... مَطَــافٌ لِخَيــالاتِ شــاعرٍ صَــدَّاحِ

وإذا الطَّــــرْفُ لــــيس يَعْثُـــر ... إلَّا بقيـــودٍ مغموســـــةٍ بجـــراحِ

ورقـــــابٍ مَحنيَّــــــةٍ تَتَشَـــــظَّى ... تحــتَ شــفراتِ مِنْجَـلِ السَّــفَاحِ!

ثم يصف البطل بقوله:

وكـــأني أراكَ فِي زَحْمَــــةِ الهَــــوْلِ ... علـــى سَـــرْجِ ضـــامرٍ طَـــوَّاح

وحَوَالَيْــــــكَ مِـــــنْ فخــــــارِ الميــادينِ كِبَــاشٌ مُعَــدةٌ للنّطَــاحِ

وأخـــــوكَ الجَســــورُ في القِمـــــمَ السُّـودِ مُطِـلٌّ علـى الـرَّوابي الفِسـاحِ

لَوَّحَـــــــتْ كَفُّـــــــهُ بِمنديلــــــــهِ الأسْـوَدِ شَـوْقًا إلى اللِّقـاءِ المُتَـاحِ

فَحَسِـــــبْتُ الأجيــــالَ تَهْتِـــفُ: يا «خالد»! جاهدْ في فَيْلَق «الجرَّاحِ»

•••

فاقتحمــتَ الــرَّدى، وكنــتَ مــع الصـيدِ فَرَاشًـا علـى فَـمِ المِصْـبَاحِ!

مثل هذا الشعر الإنساني القومي الذي يهز النفوس العربية هو الذي يمكن أن يعيش في كل بيت عربي، وليس نظيره بعزيز على شاعرنا الموهوب «نزار القباني» دون أن يتخلى عن خصائص شاعريته الأساسية؛ إذ كل ما عليه أن يتسامى بالشهوة في شعره؛ كما تسامى بعض شعراء الغزل، وأن يجعل منه قربانًا لمثلٍ أعلى.

إبراهيم العريض

الشاعر المطبوع هو وحده في نظرنا الجديد بصفة «الشاعرية»، ولكنه مع ذلك ليس بالقادر في كل وقت – وربما في أغلب الأوقات – على التجاوب مع دوافع الوجدان وعوامل الحياة تجاوبًا يستثير كوامن نفسه وتضطرم له وتثور فتنبثق عنها تلك الفورة التي نسميها «الشعر»، وإن لم يكن من الحتم أن يفيض صاخبًا فوَّارًا، بعد أن جاشت به نفس صاحبه؛ فقد يسيل هينًا منبسطًا حلوًا رقراقًا تنام على همسه الخواطر الكليلة، وتنعم بأنسه القلوب المعذبة والأذهان المكدودة، والنفوس المحرومة التي تشهد فيه، وتتذوقُ فِرْدَوْسَها المفقود، وقد يكون على العكس ثورة جامحة صاخبة، أمواجها شواظ من نار تصهر الأرواح الشاربة منها، وتخلصها من أدرانها وتزجيها في تيار الحرية، وقد يكون إلهامًا ينير بآيات سماويةٍ عجيبة؛ كأنه صاحب رسالة دينية فيعرضها عليك غير عامدٍ في رفقٍ وعطفٍ، وقد يكون الشاعر معلمًا أو خطيبًا مرشدًا أو مؤرخًا أو مصورًا أو متعبدًا؛ كما قد يثرثر بأنغام بدائية عذبة تحمل أخيلة الطفولة أو أحلام الإنسان الأول، وقد يكون الشعر والشاعر غير ذلك ولا يُطَالَبُ الشاعر عَدْلًا بأن يكون غير مَنْ هو، أي غير ما هيَّأته الطبيعة لأن يكون، والعبرة في كل هذا بالتناول الفني، وهذا أيضًا يتنوع تنوعًا شديدًا، ومنه ما يغالي في السريالية؛ كما نرى في قصيدة «نهر النسيان» مثلًا «لمحمود حسن إسماعيل»، وما يتبسط في البيان المباشر والإفصاح الناصع؛ كما نرى في شعر «حافظ إبراهيم» و«معروف الرصافي»، ومنها ما يتوارى خلف الرمزية ما بين بسيطة ومركبة؛ كما نرى في شعر «صلاح الدين الأسير» و«نزار القباني» و«بشر فارس»، وثروتنا الأدبية تجمع كل هذا، والحذف منه لا يغنينا.

وخلْق الأبطال في شعرنا أو توهُّمُهُم، وعبادة الأصنام لا تنفع أدبنا مثقال

ذرةٍ، وإنما الذي يجديه المجموع الفني الضخم المنوع الذي تجود به مواهبُ شتى، ولذلك يهمنا أن نحرص على هذا المجموع الفني الذي يجب أن يعتز به الأدب العربي، وألا ننساق في تيار التشيع لشاعر دون سواه، مهما تبلغ منزلته من السمو والرياد. ومهما نتمنَّ ونؤثر ضروبًا وألوانًا من الشعر، فلا يسوغ لنا أن نملي على أي فنان ما نشتهي، وحسبنا أن يكون مجيدًا مبدعًا يعطينا خير ما عنده، ففي التنويع غنيمة الأدب، وفي الحصر غُرْمُ الأدب، وربما ضياع الفن.

تبقى بعد ذلك، بل تجيء قبل كل ذلك، مسألة الطاقة الشعرية والأصالة الفنية؛ إذ لا جدوى للأدب من الكلام المعاد في صور شتى، وإن انتفع الشعر مثلًا أحيانًا بآثار مَنْ نسميهم الشعراء «المولِّدين» متى تناولوا نَزَعات تجديدية جميلة، ووكدوها بتكرارهم الموسيقي الخاص بهم، أو أفرغوها في قوالبَ من صياغتهم، ولكن من الغَبْنِ الكبير في مثل هذه الحالات الإسراف في تقديرهم على حساب الشعراء الأصليين، الذين كانوا مبعث إلهامهم والنور الذي استوحوه!

من أجل هذا كله، وفي مقام الحديث عن شاعر البحرين اللامع، نرحب أولًا بكتابه القيم «الأساليب الشعرية»، الذي نَظَر فيه مثلَ هذه النظرة الشاملة بروحٍ صافية مستقلة مشغوفة بخدمة الشعر والشعراء الذين أهدى إليهم كتابه، وكان الأولى في نظرنا بهذا الإهداء نُقَّاد الشعر الذين يَجْمَحُ أغلبهم ويتعصَّب تعصبًا أعمى، دونه التعصب السياسي الغاشم، وقد أحسنت «دار مجلة الأديب» البيروتية أيما إحسان، بإصدار هذا الكتاب المرشد المثقف، الذي يعد بحق بين أثمن الدرر التي أخرجتها، في وقت لا يزال معظم النقد الأدبي فيه متعثرًا بين الأهواء الشخصية التي لا تحترم المنهاج العلمي والقواعد الفنية السليمة، وليس من الضروري أن نتفقَ والمؤلفَ في جميع نظراته، وفي الشواهد الكثيرة التي أتحفنا بها قديمة وحديثة؛ لنقدر جهده الصالح في تنوير الأذهان وفي هداية

النقاد، ولنستمتع بخواطره المليحة وآرائه النافذة، التي هي في الوقت ذاته مرآة شاعريته المتغلغلة وذوقِه الفني المرهف.

إن «إبراهيم العريض» يستطيع أن يَحْمِلَ مَزْهُوًّا بيمينه هذا الكتاب التحليلي البديع، الذي يحبب الشعر الجيد إلى قارئه ويبصره به، ويستطيع أن يَحْمِلَ مَزْهُوًّا بيساره دواوينه، وأمامنا منها «العرائس» و«قبلتان»، والأول ديوان شعر لم يخل من الأقصوصة الفنية، والثاني قصة شعرية. وقد صدرتا عن دار العلم للملايين.

وشاعرنا يجيد القصص ويجيد التصوير، وله أسلوب موسيقي عذب يتفنن فيه، ونزعته ابتداعية غالبًا، رمزية أحيانًا، وطاقته الشعرية قوية، وأصالته غالية، ومع ما له من شعر حسي فإن له كذلك من شعر الحب ما عداه، وله جاذبية خاصة هي من نفسه السمحة.

وإذا كان لنا أن نختار قصيدة واحدة من ديوانه «العرائس» فحسبنا قصته «التمثال الحي» التي مهد لها بهذه التوطئة:

دِنْـــتُ بالفـــنِّ صـــغيرًا   منـــذ شَـــبَّ الطِّفْـــلُ فيَّـــهْ

لُعبـــةٌ تَرْعَـــى مَجاليهـــا   العيـــونُ النَّرجســـيَّهْ

مَـــنْ رأى الخـــالق   كالشَـــاعرِ يختـــار رَوِيَّـــهْ

كلَّمـــا وَقَّـــعَ لَحْنًـــا   مَثَّلَتْـــه البشـــريَّهْ

فـــإذا المأســـاةُ والمهزلـــةُ   اســـمٌ لقضـــيَّهْ

هـــي أُســـطورة «حـــواءَ»   جَـــرَتْ في إِثْـــرِ حَيَّـــهْ

إنْ تُرَجِّعْهـــا طُيـــورُ   الخُلْـــدِ أنغامًـــا شَـــجِيَّهْ

فهـــــي في كوكبنـــــا   الأرضـــــيّ أوراقٌ نَدِيّـــــهْ

طالمـــا خضَّـــلها دَمْـــعُ   ضـــــحايا المدنيَّــــــهْ

غـــير أنَّ الـــدمعَ هــــذا   قطــــــراتٌ لؤلؤيَّــــــهْ

عطَّـــرَ الفَـــنَّ بمـــا نَدَّتْـــه   مِـــنْ زَهْـــر نديَّـــهْ!

وتستهوينا هذه الحلاوة والسلاسة الجميلة المطبوعة، فتُزْجِينا إلى رواية هذه المقطوعة من مستهل قصته؛ تدليلًا على عذوبته وشاعريته:

ســـــكنتْ في الطـــــابقِ   المُظْلِـــمِ مـــن دارٍ ســـويَّهْ

غـــادةٌ لا تَمْلِـــكُ القـــوتَ   وبالحســـــنِ غَنِيَّــــــهْ

هـــــي في الأسمـــــالِ،   لكـــنَّ لهـــا رُوحًـــا زَكيَّـــهْ

سَـــلَبَتْها كـــلَّ شـــيءٍ   ثـــــورة إلَّا التَّقيَّــــــهْ

تَتَلـــوَّى كلَّمـــا أَبْصَـــرَت   الـــــدارَ خَليَّــــــهْ

أيـــنَ عنهـــا أَبَوَاهـــا   في ظَـــلامِ الأَبَدِيَّـــــهْ؟

وأخوهـــا جدَّلَتْـــه في   الـــوَغَى كَـــفٌّ شـــقيَّهْ

فَثَـــوَى والعلـــمُ الخـــافقُ   يَلـــــوي بالتَّحيَّــــــهْ

كيـــف لا تبكـــي؟ وهـــل   أبقـــى لهـــا الـــدهر بقيَّـــهْ؟

هذه موهبة في الأداء، يُغْبَطُ عليها شاعرنا؛ موهبة هي أصلح ما يُرْجَى لخدمة القصص، ولخدمة التمثيل.

ولو اقترنت بالشعر الفلسفي لجاءت بالمُعْجِب المطرب، بل لحببت الفلسفة إلى جمهرة الناس ولجعلتهم يعشقون الحكمة ويرتفعون فوق السطحيات!

إن «إبراهيم العريض» لا يزال في عنفوان شبابه، ولكنه زكّى عن أدبه بأكثرَ مما زكى به كثيرون من الشيوخ!

ولا بد لنا أن نلاحظ أنه توجد الآن إجمالًا ثلاث مدارس شعرية رئيسية، في العالم العربي باعتبار نزعاتها وأساليبها:

(١) أولاها «المدرسة الكلاسيكية المجددة» تحت الراية الابتداعية، وهي التي كان يتزعمها «مطران»، ومن أقطابها الأحياء «الأخطل الصغير» و«بدوي الجبل» و«الشاعر القروي» و«شفيق المعلوف» و«إيليا أبو ماضي» و«ميخائيل نعيمة» و«عبد الرحمن شكري» و«إبراهيم ناجي».

(٢) وثانيتها «المدرسة التجديدية المتطرفة»، وهي ألوان مختلفة، ومن أشهر أعيانها وروادها في الوقت الحاضر شعراء الشباب الناضجون في «العراق» و«سورية» و«لبنان» و«مصر»، الذين يهيمون بالسريالية والرمزية، ومنهم من يُغْرِقُ في نظم الشعر الجنسي وأغلبيتهم تنفر من الشعر الإنساني العالمي، وكثيرون منهم يميلون إلى الانطواء على أنفسهم، ويصفون هذا الانطواء الذاتي، بأنه هو وحده الحياة، وكذلك يصفون الموضوعات المؤلمة القبيحة المنفرة، بأنها كنوز الجمال الفني لا أن هذا الجمال الفني يخلقه الفنان من ذاته ويتوهمه في موضوعاته؛ أي لا يقدِّرون أنها بمنزلة مَرَاءٍ لأخيلته وأحاسيسه وتفلسفه، وإذا تجاوزنا المدرسة الأولى «مدرسة اليمين» فهذه هي المدرسة اليسارية، وقد تحدثنا من قبل عن أحد روادها الحاضرين «نزار القباني»، الذي يعتمد في صياغته الموسيقية على تنوع مجزوءات البحور وينبض جميع شعره بالطلاقة الفنية الساخرة من القيود، وبروح

الابتداع البعيد عن أي تكلف، وإن كانت عنايته لا تزال محصورة في نواح قليلة من الحياة، لا يزال كزملائه المتطرقين يحسبها أيها ولا غيرها الحياة.

ومن كواكب هذه المدرسة: الشاعرة العراقية الموهوبة «نازك الملائكة» التي يفيض جميع شعرها باللوعة والتشاؤم؛ كما ينم على المغالاة في الانطواء على نفسها.

(٣) وأما المدرسة الثالثة الرئيسية أو المدرسة الوسط، فهي التي تَحْفِلُ، أشدَّ ما تَحْفِلُ، بالموسيقى الاتباعية، وبجزالة الألفاظ، وبالصيغ العريقة المأثورة، التي تصفها بالإيناق والإشراق العامر والترقرق، وتعرض غالبًا المعاني المصطلحَ عليها مع الأخذ بطرف من اجتهاد المدرستين السابقتي الذكر، واحتذاءِ حذوهما في مواضعَ، سواءٌ في الشعر الوجداني والوصفي المقصَّد أو في الشعر القصصي أو في الشعر التمثيلي، وأعظم ما تتيه به في صميم زهوها ما تنعته بإشراق الديباجة، وجزالة الأسر، وعذوبة الجرس.

وهذه المدرسة كان يمثلها الشاعر المصري «علي محمود طه» أقوى تمثيل، والآن يتزعمها الشاعر الخلاق المبدع «عزيز أباظة» ولها أشياعها في أقطار شتى.

فأين محل شاعرنا إبراهيم العريض؟ وما هي مكانته بين هذه المدارس الرئيسية؟ إنه شاعر ابتداعي غالبًا في روحه، لا يَعبد الألفاظ، ولكنه لا يحتقر الموسيقى الشعرية، وله عذوبة الشاعر المطبوع وتفنُّن الذي يستوحي بكل حواسه وعواطفه العصرَ الذي يعيش فيه، وفي نفسه الاعتزاز بتراث قومه، إنه يُنْصِفُ العربية وطاقتها الحضارية؛ كما ينصف عصره ونفسه، وهو واحد من كثيرين يكاد كل منهم بتنوُّعه واستقلاله يكوِّن «مدرسة خاصة» به!

عمر أبو ريشة

شاعر سورية الرومانسي

سَبَقَت الفجرَ في غلائلَ من أشعة النجوم، وتبرجت من «قوس قُزَحَ»، ثم أخذت تتعطر خُلسة من أنداء الفجر، حتى إذا طلع جَزَتْهُ أضعافًا وردَّتْ للنجوم دَيْنَها، وتركت الشمس تَعجب من استحالة أشعتها إلى هذا الفن الرائع، في هذه الحورية التي لا تنتسب إلى أرض أو بحر أو سماء فحسب، بل إلى العوالم بأسرها. تلك هي «الرومانسية» التي تتقمص الشعراءَ والفنانين حتى إذا شَدَوا بسحرها تركوا الخلق مشدوهين حائرين.

لمحناها في شاعر «سورية» «عمر أبو ريشة»، وأردنا أن ننوه بوطنيته التي أهَّلَته لمركز سياسي جهير، وبواقعيته الشريفة الاتجاهات، التي انتظمها ديوانه، ولكن رومانسيته الخلابة جذبتنا إليها وقالت: ألا يكفيكم قول شاعركم فيَّ:

حسبها أن أردَّها لكَ مِنْ قَلْبي ... صلاةً، ومن شفاهي أغاني!

ثم تجلَّتْ في كتاب أو ديوان رائع تنافست فيه الأنغام والصور والأحاسيس والألوان الرشيقة، واكتفى الإلهام بعنونته «من عمر أبو ريشة» ولكن لمن؟ لمن؟ ساءلَ الشاعرَ وجدانُه.

لِمَنْ تعصرُ الرُّوحَ يا شاعرُ؟ ... أمَا لِضَلَالِ المُنَى آخِرُ؟

أَلِلْحُبِّ؟ أين التفاتُ الفُنونِ ... إذا هتف الأملُ العاثرُ؟

أَلِلَّهو؟ كم دُمْيَةٍ صُغْتَها ... ومَزَّقَها ظُفْرُكَ الكاسِرُ؟

أللمجـــدِ؟ مـــاذا يُحِـــسُّ القتيـــلُ إذا ازورَّ أو بســـــــمَ العـــــــابرُ

أَلِلْخُلْـــدِ؟ كيـــف تـــردُّ الـــذِّئابَ وقـــد عَضَّـــها جُوعُهـــا الكـــافِرُ

رُويـــــدك! لا تَسْـــــفَحَنَّ الخيـــــالَ ببيـــــداء، لـــــيس بهـــــا ســـــامرُ

أمَـــا يُـــرقصُ الكـــونَ في صَـــمْتِهِ كمـــا يُـــرقِصُ الحيـــةَ الســـاحرُ؟

دَع الحُلْـــمَ يَخْفُـــقُ في ناظريـــك فموعــــدُه غــــدُكَ الســــاخرُ

أسمعتَ؟ أأدركتَ أن خيال الرومانسية، يرقص الكون صمته؛ كما يرقص الحية الساحر؟ ثم ماذا؟

ثم يمر شاعرنا بصرح روماني قديم، لا يستطيع غير الظن أن يتحدث عن ماضيه، واسترعى انتباهَه خلوُّه من الشوك، وتألق ترابه النظيف، فقال في نفسه: إن الموت يقف أمام ضحيته، مجروح الكبرياء؛ لأنه لا يستطيع أن يفتك أكثر مما فتك:

قِفِـــي قَـــدَمِي! إنَّ هـــذا المكـــان يَغيـــبُ بـــه المـــرءُ عـــن حِسِّـــهِ

رمـــالٌ، وأنقـــاضُ صَـــرْحٍ هَـــوتْ أعاليـــه تَبحـــثُ عـــن أُسِّـــهِ

أُقلِّـــبُ طـــرفِي بـــه ذاهـــلًا وأســـأل يـــوميَ عـــن أمْسِـــهِ

أكانـــت تســـيل عليـــه الحيـــاةُ وتغفـــو الجفـــونُ علـــى أُنسـِــهِ؟

وتَشْـــدُو البلابـــلُ في سَـــعْدِهِ وتجـــري المقـــاديرُ في نحســـهِ؟

أأســـتنطق الصـــخرَ عـــن ناحِتِيـــهِ؟ وأســـتنهضُ الميْـــتَ مِـــن رَمْسِـــه؟

حـــوافر خَيْـــلِ الزمـــانِ المُشِـــتِّ تكـــادُ تحـــدِّث عـــن بُؤْسِـــهِ!

فمـا يَرضـعُ الشَّـوكُ مِـنْ صَـدْرِهِ ولا يَنعـــبُ اليـــومُ في رأســـهِ

وتلـــك العناكـــبُ مـــذعورةٌ تريـــدُ التفلَّـــتَ مـــن حَبْسِـــهِ

لقــد تَعبــتْ منــه كــفُّ الــدَّمار وباتـــت تخـــاف أذَى لَمْسِـــهِ

هنـــا يـــنفضُ الـــوهمُ أشـــباحَهُ وينتحـــرُ المـــوت في يَاسِـــهِ

أرأيت كيف تتأنق الرومانسية بألوانها الزاهية، حتى في معرض التفلسف والاعتبار، وكيف حين تمس الواقع مسًّا خفيفًا تطير سريعًا بأجنحة الخيال، ومعها طيوف شتى من كل شيء احتكت به، فأحيته وجسمته، ولطفته، حتى كف الديار التي صارت تستحي من الأذى!

أرأيت كيف أن الشاعر الرومانسي الطبع يأبى إباءً أن تستبد «الواقعية» به وسرعان ما تطويها عواطفه وأخيلته الزاهية؟!

ورأى الشاعر في الصحراء ماءً يتموج من بعيد، فقيل له إنه السراب، فتأمله طويلًا وأحس بالرمل الملتهب ظمأ تحت أشعة الشمس ينام ليحلم بالماء، وما هذا الذي يسمونه سرابًا إلا أطياف حلمه اللذيذ، وكان الشاعر على حال عاطفية قلقة، فوجد في إحساسه هذا منفذًا لها:

كـم جئـت أحمـلُ مـن جراحـات الهـوى نَجْـوَى يُرددهـا الضـميرُ تَرَنُّمـا!

سـالتْ مـع الأمـلِ الشـهيّ لِترتمـي في مِسـمعيكِ، فمـا غَمَـزْتِ لهـا فَمـا

فخنقتُهـا في خـاطري! فتسـاقطتْ في أَدْمُعـــي، فَشَـــرِبْتُها متَلَعْثمـــا

ورجعـــت أدراجـــي أصـــيدُ مـــن المُـــنَى حُلمًـــا أنامُ بأُفقِـــهِ متوهِّمَـــا!

أختـاه! قـد أزفَ النَّـوى فتنعَّمِـي بَعْـدِي، فـإنَّ الحـبَّ لـن يتكلَّمَـا

لا تحسـبيني سـاليًا، إنْ تَلمحـي في ناظِـري هـذا الـذهولَ المُبْهَمَـا

إنْ تحتكـي سِـرَّ السَّـرابِ وَجَدْتِـه حُلمَ الرمالِ الهاجعات على الظَّما!

لا نعرف الأناقة المطبوعة في الشعر الحديث بلغت مبلغ الترف الزاهي في شاعرية أصيلة، بأجملَ مما ازدهت به في أشعار «عمر أبو ريشة» «وبدوي الجبل» «وإلياس فرحات» و«نزار القبَّاني»، وجميعهم من شعراء سوريَّة الموهوبين، الذين جعلونا نترنح إعجابًا بفنهم الحر البديع.

ولعل «عمر أبو ريشة» يتَصَدَّرُ الجميعَ في حلاوة رومانسيته وقوتها معًا، وقد رشَفتْ من جمال الطبيعة السورية ومن الوطنية السورية التي هي مضرب الأمثال وأتحفتنا بأناشيدَ عذبةٍ، هي من فرائد الشعر الغنائي المعاصر.

وقبل الانتقال إلى نماذجَ من شعر الوطنية الجميل، الذي تحتضنه هذه الرومانسية المحلقة؛ فتعطينا صورًا نابضة بالتزاوج الفني، بينها وبين الواقعية الرفيعة، نعرض طُرقًا أخرى من وجدانيات هذا الشاعر الهفهافة، وإن ران على معظمها – رغم تألقه – القلقُ واللوعة واللهف!

كان شاعرنا يسير في الليل وحيدًا كئيبًا يفكر في أبيه وأحبابه الموتى، فسمع كأن صوتًا من بعيد يناديه، فالتفت مضطربًا، فلم يلمح سوى نجمة واحدة تسطع في الأفق:

مَـنْ يُنـاديني وقـد أنكـرني في دُروبِ العُمْـرِ مَـنْ يَعْـرفني؟

أغرِيـبٌ مَـلَّ في غربتـهِ عَبَـثَ الـوهمِ، ولهـوَ الـزَّمنِ؟

أم شَـقِيٌّ نسـي الكـبر علـى شَـفَتَيْهِ بسـماتِ المـؤْمِنِ؟

•••

مَــــنْ يُنــــاديني وأعــــراسُ الصِّـــبا لم تَــدَعْ في الكــأْسِ مــا يُسْــكرني؟

أَبَتَــولٌ سَــلَّها مِــنْ خِــدْرِها شــوقُها المخضـــــوبُ بالحُلْـــــمِ الهـــــني؟

أمْ هَلـــــوكٌ، أَلِفَـــــتْ روضـــــتُها شـــفةَ السَّـــاقي وكـــفَّ المجتـــني؟

•••

مَــــنْ يُنــــاديني وسُمَّــــارُ الــــدُّجَى كُحِّلَـــــتْ أجفــــانهم بالوَسَـــــنِ؟

أحبيـــــبٌ؟ أيُّ أحبـــــابي تُـــــرَى مِــنْ كُــوَى الخُلْــدِ سَــرَى يؤنســني؟

مــا لأصــداء المنــادِي خَفَتَــتْ وتلاشَـــــــى وَقْعُهــــــا في أُذني؟

نجمــــةٌ ضــــاءتْ علـــى البعـــدِ، فيــا ذيلَهــا الوضَّــاءَ، كــنْ لي كفــني!

ويحيي موسم الورد فإذا بالرومانسية تتعطر بأريجه، وتتبرج الزنابق – وقد تعوَّد الشاعر أن يقطف الزهر يهديه إلى أحبابه – فتوحي إليه:

ألفيتُهــــا مخضــــــلة في رَوْضـــــها والفجـــر بـــين ذيولـــهِ يَطْويهـــا

حــتى إذا انتفضــتْ عليــه تجمعــت أنفاسُـــــه وتجمـــــدَتْ في فِيهَـــــا

وتمايلـــتْ تِيهًــــا بِعُــــرْسٍ فُتونِهــــا وزَهَـــتْ وعُـــرْس فُتونهــا يُبكيهــا

والطيـــبُ مســـفوحٌ علـــى جَنَبَاتِهــا يَهْمِــي علــى رُوحــي بمــا يُشــجيها

فلويــت في شــبه الــذُّهولِ أناملــي وقَطَفْتُهـــا. لهفـــي! لمــن أُهـــديها؟

لا ريب أنه انتهى إلى إهدائها إلى فنه، فهي بنت الفن السماوي، وإن نزلت إلى الأرض، ورضعت من تربتها، والفنان ذاته ابن السماء وإن استضافته الأرض، وَدَلَّلَتْه وزعمت أنها أمه الحنون، وقد تكون كذلك؛ لأنها بنت الشمس،

فبينها وبين الملكوت الأعلى وشائج خالدة، فالأريج والنور والأطياف، والأشعة والظلال والذرات المتعانقة والسابحة، والعواطف الراقصة، والذبيحة وكل ما يُرى ولا يُرى من عوالمَ كبيرةٍ وصغيرة؛ هي الكون، هي عالم الفنان، هي الفنان ذاته الذي تلمحه في هذه الرموز الخلابة، وما هي إلا لمحات خفيفة عابرة من نفسيته، التي قلما تكيف والتي لا تُحَدُّ.

وشاعرنا المحلق يصور لنا «مصرع الفنان» في إحدى معلَّقاته المؤثرة الفنانة، بحسبنا للتدليل على جمالها الرائع هذا الاستهلال:

نامَ عَن كأسهِ وعن أَحبابه	قبل أن يَنقضي نهار شَبَابِهْ
نام عن سكرةِ الحياة وقد	جَفَّ شراب السلوانِ في أكوابهْ
نسماتُ الرِّضا على شفتيْهِ	وشتاتُ الرُّؤَى على أهدابِهْ
وبَنات الغروبِ تَسكب	في أُذنيه مَوَجاتِ عودهِ ورَبابِهْ
لابسات عمْرَ المآزر مَرَّتْ	ريشةُ الأُفْقِ فوقَها بخضابِهْ
راقصات في حَلقة من عبابِ	اللهوِ والرقصُ مَوْجةٌ مِن عُبابِهْ
رَقَصاتِ المطهَّماتِ من الخيلِ	بِعرْسَ يَموجَ في تصخابِهْ
يا بنات الغروبِ قد نَفَضَ الليل	على الكونِ حالكاتِ نِقابِهْ
احْمِلي الراحلَ الغريبَ وسِيري	بالزغاريد سلوة لاغترابِهْ
وادخلي هيكل الفنونِ وأبقيه	سراجًا يضيء في مِحْرابِهْ!

ولئن نظر في مرآته إلى آلام الفنان وإلى عذابه الأرضي، وصور كل ذلك

في صور مشجية شتى؛ فإن شاعرنا لم يتجاهل المعنى الأسمى من شخصية الفنان، ومن حياته ورسالته، ولو كان في الظاهر ضحيتها.

ولنسمع الآن ما يقوله – في دور الشاعر الوصَّاف – عن جناز الفنان:

لستُ أَنْسَى الناقوسَ لَمَّا نعاه والمصلَّى يَموجُ في أحبارِهْ

ورءوسُ الرجالِ مطرقةٌ والحزنُ ساجٍ مسربَلٌ بوقارهْ

والمناديلُ في أكفِّ الغواني تَشْرَبُ الدَّمْعَ مِنْ مَقَرِّ انفجارِهْ

حَمَلُوهُ في نَعْشِهِ الأبيضِ اللونِ وساروا كتائبٍ في قِفَارِهْ

وَحَدَوْهُ بكلِّ لحن شَجِيّ سَرَقَتْهُ الآذانُ مِنْ أَسرارِهْ

إيهِ ألحانَهُ وأنتِ حنينٌ سالَ مِنْ رُوحِهِ على أوتارِهْ

رافقيهِ في أُفقهِ فهو ظمآنُ بَعيدُ العُهودِ عن قِيثارِهْ

رُبَّ ورقاءَ في الفضا الرَّحْبِ لَمَّا زَقْزَقَ الفَرْخُ شاكيًا من أُوارِهْ

أَطْبَقَتْ فوقَ صدرها مِنْ جَنَاحَيْها وأَهْوَتْ كالنَّجم عند انهيارِهْ

وأكبَّتْ عليهِ تَمْنَحُهُ العطفَ ومِنقارُها على مِنقارِهْ!

وتأبى الرومانسية التي رضعت في طفولتها من أفاويق «الفن للفن» إلا أن تشرب والواقعيةَ من مناهل الحياة، قالت الحياة:

ما أنا إلا أنت أيتها الرومانسية الزاهية المتبرجة! لا تباعديني، فإن في ظلماتي أضواء، وفي جمودي عواطف، وفي سكوني ثورات، وفي مآسيَّ مباهج مستورة. كم من جمال لي يستره القبح العابر! وكم عبودية أفرضها توحي

بالتحرر! وكم آفاق صغيرة هي منافذ لأوسع الآفاق! فاختاري ما شئت من نماذجي المعروضة، وتأملي فيها وتجاوبي معها تشعري حينئذ بفيض ألحاني ومثالياتي.

لكِ أن تتناولي الوطن أو الإنسان أو غيرهما من النماذج العظيمة أو الدقيقة التي أنتظمها وأن تتشربي روحها وتعبري عنه بآياتك فستجديها جميعًا منك وإليك.

وأخذ شاعرُنا مِعْزَفَهُ بين اليقظة والحلم، وراح يستجيب لواقعية الحياة منشدًا:

يا شـــــــعبُ، لا تَشــــــــكُ	الأذاةَ ولا تُطِـــلْ فيهـــا نواحـــكْ
لـــو لم تكـــن بيـــديك مجروحًـــا	لَضـــــــــمَّدْنا جِراحـــــــكْ!
أنـــتَ انتقيـــتَ رجـــالَ أَمْـــرِكَ	وارتقبْـــــتَ بهـــم صَـــلَاحَكْ
فـــإذا بهـــم يُرخُـــونَ فـــوقَ	خســـيسِ دنيـــاهم وشـــاحَكْ
كـــم مَـــرَّةٍ خفـــروا عُهُـــودَكَ	واســـتَقَوْا برضـــاكَ راحَـــكْ
أيســـيلُ صَـــدرُكَ مِـــنْ جـــراحتِهم	وتعطـــــــيهم سِـــــــلَاحَكْ؟!
لـــو كنـــتَ تجْهَلَهُـــم، لـــراحَ	الغُـــدْرُ يَسْـــتَجْدِي سماحَـــكْ!

•••

لهفـــى عليـــكَ! أهكـــذا	تَطْـــوِي علـــى ذُلٍّ جَناحَـــكْ
لـــو لم تُـــبِحْ لِهَـــواكَ عليـــاءَ	الحيـــاةِ لمـــا اســـتباحَكْ!

ثم ينشدنا من قصيدته الوطنية الرائعة «هذه أمتي!» التي أنشدها في حلب سنة ١٩٤٥:

يا بـــلادي، ناجـــاكِ مَـــنْ وَقَـــفَ الخُلْـدُ وأَصْـغَى إلى صَـدَى تَحْنانِـه
كـــادَ أن يُـــرْخِصَ المَـــدامعَ في الأرزاءِ لـولا الحيـاءُ مِـنْ إيمانِـهْ
مـــا الجبـــانُ الـــذي حَنَـــوْتَ عليـهِ وسـكبتَ العـزاءَ مِـلْءَ جَنانِـهْ
عَرَفَتْـهُ الهيجـاءُ أنـذلَ مَـنْ فَـرَّ وأَشْـقَى مَـنْ جَـرَّ ذيـلَ هَوَانِـه
قـــامَ في فيئِـــكِ الكـــريمِ حَيِيًّـــا ودُمُـــوعُ المتـــابِ في أجفانِـــهْ
يَشـتمُ الغَفْلَـةَ الـتي ذُقـتِ منهـا مـا يَـذُوقُ القطيـعُ مـن ذؤبانِـهْ
لـيس يَـدري الجـزَّارُ مـا الخنجـرُ المسنونُ إلَّا إنْ حَـزَّ في شـريانِه
فَتَبَسَّـــمْتِ والإباءُ بعينيـــكِ تـذوبُ الأحقـادُ في غُفرانِـه
وتماديـــتِ في انتظـــارِ صـــباحٍ يَسـتحمُّ الوجـودُ في إحسـانِهْ
مـا لِـذاكَ اللَّهيـبِ تَطْفُـو المروءاتُ عليـهِ وتَرْتَمـي في دُخَانِـهْ!

وهكذا علَّمنا «عمر أبو ريشة» أن الفن يواكب الحياة فيستوعبها وتستوعبه، وحين تعود الرومانسية به إلى «نداء الحب»، فما هي بمبعدته في التخصيص عن التعميم، فالحب هو الوطن، هو الإنسان، هو البشرية، هو الله، فلننشق الآن هذا العطر الأخير من جنان هذا الشاعر الرومانسي المبدع، الذي لا تُمَلُّ صحبة أريجه وألوانه:

لنـا الحُـبُّ والكـأسُ والمِزْهَـرُ وللنـاسِ مِنَّـا الصَّـدَى المسْـكِرُ

مَشـــــيْنا معًـــــا وجَنـــــاح | الرِّضَـــا يواكبنـــا ظِلُّـــهُ الخَـــيِّرُ
وخلـــــفَ مَلاعبنـــــا أنجـــــمٌ | علـــى شـــوقِ أَوْبَتِنـــا تَسْـــهَرُ
غـــدًا يَنقـــلُ الكـــونُ ألحانَنَـــا | ويَسْـــــمُرُ في ذِكْـــرِنا السُّـــمَّرُ
فَمِيلـــي نَغِـــبْ في شَـــذًا ضَـــمَّةٍ | يَـــرُفُّ عليهـــا المَـــدَى المُقْفِـــرُ
أخـاف انفـلاتَ الـرُّؤَى الباسمـاتِ | إذا خَلَـــجَ الجَفْـــنُ والمحْجَـــرُ
فأحلامُنـــا يقظـــاتُ الحيـــاةِ | ووحـــيُ النفـــوسِ الـــتي تَشْـــعُرُ
ونحـــن مـــن الأزلِ المطمـــئنّ | تُبَشِّـــرُ في يَومِنـــا الأعْصُـــرُ!

وإذا كان للحياة أن تزدهي بألحانها الوفية المعبرة، فما أولى الأمم بأن تعتز بشعرائها المحسنين! وما أغنى سورية بمثل هذا الشاعر العبقري الذي ينافسها في التعلق به العالم الجديد!

زكي مبارك الشاعر

لما أنشد «نعمة الحاج» منذ بضع سنوات قصيدته الطريفة «أوراق الخريف المتناثرة»[1] هلل لها وكبر كثيرون، وبينهم أدباء ليسوا على مذهبه الشعري من الواقعية والوصف المباشر، فما السر في ذلك؟ استمع أولًا إلى هذه المناجاة الوصفية:

أَرِي العـــالمينَ جمـــالَ الــــرَّدَى ... وأنَّ انتهـــاءً لكــــلِّ ابتـــــدَا

كسَـــاكِ الخريـــفُ رَدًى مُعْلَمًـــا ... فمــا كــانَ أجمــلَ ذاك الــرَّدَى!

فمـــن أحمــرٍ دَبَّ فيـــه اسمــرارٌ ... إلى أَخْضَـــرٍ مـــازجَ العَسْــجَدَا

وذا الوَشْــيُ يُشْــبِهُ وَخْــطَ المَشِـيبِ ... بنـــا لِكلينـــا نـــذيرُ الــــرَّدَى

كـأنَّ الغُصـونَ جُفـونٌ إذا تهاوَيْـتِ ... منهـــا هَمَــــتْ بالنَّــــدَى!

•••

غَـــدًا إِذْ تَهُـــبُّ عليــكِ الــرِّياحُ ... سَيُمســي الحضــيضُ لــك المَقْعَـدَا

فتَنْتَثِــــرِينَ انتشـــارَ الدَّنانيـــ ... ـــرِ مِــنْ كَــفِّ ذِي شُــهرةٍ بالجَـدَا

ونمعــنُ في الــرَّوْضِ بعــدَ الكِسـاءِ ... فنُبصــــــرهُ عــــاريًا أَجْـــــرَدَا

كــــأنَّ شُـــجيراتهِ العــــارياتِ ... شَماعـــدُ قـــد مَــلأتْ مَعْبَـــدَا!

•••

تُنـــادي الحيـــاةُ وَحــتْمٌ علـــى مَجـــالي الحيـــاةِ تلَـــبِّي النِّـــدَا

فمـــا أَصْـــدرَتْنا سُـــدًى للوجـــودِ ومـــا أَوْرَدتْنَـــا إليهـــا سُـــدًى

نِظـــامٌ تَسَـــاوَى بـــه مـــا خَفـــى عــن العَــيْنِ في الكــونِ أو مــا بَــدَا

تَوَحَّـــدَ في مَـــوْرِدٍ – مَصْـــدَرًا يَعُـــودُ – وفي مَصْـــدَرٍ مَـــوْرِدَا

تَبـــارَكَ في خـــالقِ الكائنـــاتِ يَظَـــلُّ بهـــا خالـــدًا سَـــرْمَدَا

غَــدٌ فيــه أمــسِ، ومــا يَنْطَــوِي بــه أَمْــس يُنْشَــرُ فيــهِ غــدَا!

•••

وقـــولي لمـــن دَأْبُـــهُ أن يَـــرَى مِـــنَ العَـــيشِ جانِبَـــهُ الأسْـــوَدَا

إذا نَعَـــبَ البُـــومُ في رَوْضَـــةٍ فكـــم بُلْبُـــلٍ فوقَهـــا غَـــرَّدا!

ومـــا العُمْـــرُ إلا بمـــا فيـــهِ مِـــنْ مُفيـــد ، ولـــيس بِطـــولِ المـــدَى

أَحِـــبَّ الجميـــلَ وصُـــنْعَ الجميـــلِ لِتُحْمَـــدَ في العـــيْشِ أو تَخْلُـــدَا

ففي هذه القصيدة روح التصوف الفلسفي، الذي يفيض من قلب هذا الشاعر الحساس، المتعبد في محراب الطبيعة، والذي يتأمل الروض المتجرد في الخريف فيحس:

كـــأنَّ شُـــجيراتهِ العـــارياتِ شَمَاعِـــدُ قـــد مَـــلأَتْ مَعْبَـــدَا!

ويحس بوحدة كل ما حوله خافيًا كان أم باديًا، قائمًا أم فانيًا:

نظَـــامٌ تَسَـــاوى بـــه مـــا خَفـــى عــن العَــيْنِ في الكَــوْنِ أو مــا بَــدَا

غَــدٌ فيــه أَمْـــسِ، ومــا يَنْطَــوِي   بـــه أَمْـــسِ ينْشَـــر فيـــه غَـــدَا!

وفيها أوصاف جميلة أصيلة، وفيها إيمان مشرق بما في الوجود من خير وسعادة، وربما رأينا فنيًّا الاستغناء عن بعض أبياتها – اكتفاءً وتركيزًا، وتغليبًا لروح الشاعر على المعلم الواعظ – كالبيتين الثالث والرابع، وكالبيتين الأخيرين منها، وقد يلاحَظ أن طائفة من معانيها مسبوق إليها، كما سبقت صلوات عديدة لكثيرين، ولكنها مع ذلك تتسم في جملتها بالأصالة وبأنها فيض قلب الشاعر الحر، وهذه الحرية الفطرية والبعد عن الافتعال – علمنا أم لم نعلم – ذات تأثير وجداني ساحر.

ومثل هذه الوقفة نقفها أمام شاعر آخر، بل أمام جملة من الشعراء في العالم العربي، بعصرنا الحاضر، حيثما للشعر الوجداني التصوفي القدْح المعلَّى.

أما هذا الشاعر الذي نعنيه في هذه المناسبة فهو الدكتور «زكي مبارك» صاحب ديوان «ألحان الخلود» هو – كما نعته – «أقباس وجدانية في الحب والجمال»؛ فقد نقد شعره كثيرون، على رأسهم الناقد اللبناني المعروف «مارون عبُّود»، ومع ذلك لا يزال شعر «زكي مبارك» يُتَغَنَّى به في المحافل المستنيرة، وأصبحت أسرته تطالَب بإصدار شعره كاملًا، بعد أن خسر عالم الأدب صاحبه الموهوب، الذي شق طريقه في الحياة وسط صعوبات جمة، وأتحف المكتبة العربية بسلسلة من المؤلفات القيمة الحية، في النقد الأدبي والتاريخ الأدبي خاصة، وأشهرها كتابه الجليل «النثر الفني في القرن الرابع»، وقد تعددت تواليفه وبحوثه تَعُدُّدَ درجاته الجامعية الرفيعة، واشتهرت مصاولاته الأدبية اشتهار جَلَدِهِ وعزمه وإقدامه، واشتهار محنته في بيئاتٍ ضيَّعتْه!

إن شعر الدكتور زكي مبارك –كنثره الفني – يتميز بالكلاسيكية الوجدانية

الرفيعة التي يشع منها الذكاء الخارق والعاطفة المشبوبة، ومن حسن حظ الأدب أنه مهد لديوانه في طبعة سنة ألف وتسعمائة وسبع وأربعين بمقدمة مسهبة، ترجم فيها لنفسه ترجمة وافية بديعة تساعد القارئ بلا ريب على تفهم شعره وتقدير مراميه الفنية وخصائصه التي ذكر منها خمسًا رئيسية:

الأولى: أن أشعاره تكاد تكون مقصورةً على فن واحد هو فن الغزل والتشبيب.

والثانية: الاهتمام بتشريح المعاني، بحيث قد ينظم في المعنى الواحد عشراتٍ من الأبيات، وهذا راجع إلى فطرته الفلسفية.

والثالثة: هي النزعة الصوفية؛ إذ إن أكثر القصائد في التشبيب لم تكن لها موحيات من الجمال الإنساني، وإنما كانت موحياتها من الجمال الرباني.

والرابعة: هي تدوينُ عواطفَ عزيزةٍ عليه، وهي عواطفُ سجَّل بها وفاءه لأصدقائه.

والخامسة: هي دقة الأسلوب المدرسي.

أما نماذج هذا الشعر الوجداني الفحل، الذي لم يُخْفِ صاحبُه اعتزازَه به، فعديدة تجابه القارئ من أول صفحة في الديوان في قصيدته «مصر الجديدة»:

تناسيتكم عمدًا كأنِّي سلوتكُم ... وَبَعْضُ التناسي العَمْدِ مِنْ صُور الودِّ

إذا اشتدَّ إظلامُ العقوق تبلَّجَتْ ... مآثِرُ تُذْكي نارَ معروفكم عِنْدِي

أمثليَ يَنْسَى؟! آه ممَّا اجترحتمو ... على الهائم الحيرانِ في حَوْمَةِ الوِرْدِ

أَإنْ خِفْتُ عُذَّالِي فأخفيتُ لوْعَتِي ... تظنُّوني صبًّا أفاقَ مِن الوجدِ؟

غرامي بكُمْ لم يُبْقِ قلبًا بلا جَوًى ... وحُبي بكم لم يُبْقِ عَيْنًا بلا سُهْدِ

خَلَعْتُ عليكم مِنْ هُيامِي وصبْوتي غلائلَ لم تُخْلَعْ على ساكني الخُلْدِ!

ومع اعتداد شاعرنا بهذه القصيدة الفريدة، كاعتداده بأخواتٍ كثيراتٍ لها، فإنه يقول: «إن هذا الزَّهْوَ لم يخطر في البال وأنا أنظم هذا القصيد؛ فقد أوحته روحانية لا تسيطر على النفس إلا في أندر الأحايين، فجاء أقباسًا من الأشواق العواصف بالقلب والوجدان!»

وعلى الرغم من اعتداده وزهوه، أبت طبيعة الوفاء التي تحلى بها شاعرنا إلا أن ينوِّه تنويهًا خاصًّا في مقدمة الديوان بمن نبهه إلى مزايا شاعريته وشجعه على استغلال مواهبه ونشْر نفحاتها، بعد أن كان حاصرًا عبقريته في دائرة النثر الفني والبحث الأدبي، وهذه صفة نادرة في بيئاتٍ تَغَلَّبَ فيها مُركَّب النقص، وتَفَشَّى الجحود والعقوق، وبات يُفتخر بهما!

إن شعر «زكي مبارك» ليتسم بالحيوية والقوة والموسيقى الكلاسيكية؛ فهو طراز مستقل بذاته، وإن كانت عليه ملامح الشعر المدرسي في أحسن عصوره، وهو بحق ثروة لأدبنا الحديث، وإن فيه لشواهدَ لا تحصى على براعة التصرف البياني، والطلاقة الجميلة، الناطقة بطواعية اللغة في يد محبها، المتمكن منها، إذا ما كان مبدعًا موهوبًا.

والقارئ لألحان الخلود لينعم بموسيقى وخيال وعاطفة وتصوف وجمال في صور شتى؛ وقد يسكب عبراته في مواقفَ شجيةٍ مؤثرةٍ، وسيذكر في لوعة «زكي مبارك»؛ كما ذكر هو ملتاعًا راثيًا في نهاية الديوان راويته الأديب «أحمد رشدي»:

أخبروني أنَّ رشدي لَن يَعود جثمَ الصخرُ عليه والحديدْ

كـــلُّ مـــا لم تـــره العـــينُ جديـــدْ يا | غريــــبَ الـــرُّوحِ في دارِ الخلُـــودْ
ما شَـجا أهلَـك صُـبْحًا مـا شـجاني | حـــين صـــار النـــوحُ بابًا مـــن بيـــاني
إنَّ رُزئـــي فيـــك يا حُلْـــوَ المـــداني | هـــو كَـأس الغـدْرِ مـن خمـر زمـاني!

الهوامش

(١) جريدة «السائح» النيويوركية في ١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٩م.

إبراهيم ناجي

إذا ما ذُكرت ليالي القاهرة الأدبية اتجهت الخواطر إلى الشاعر المصري الموهوب، الدكتور «إبراهيم ناجي» الذي أحياها بشعره الجميل في ديوانه الشائق الذي يحمل هذا الاسم، وقد احتفى به الأدباء في أقطار العروبة جمعاء!

وما من أديب عربيٍ زار مصر إلا وتمنى لقاء هذا الأديب اللامع الجم المرَح، النادر الطراز في ذكائه وألمعيته وظرفه المتناهي، وفي ثقافته المنوَّعة التي شَمِلَتْ – بين ما جمعته – الطب وعلم النفس وعلم الاجتماع والنقد الأدبي والقَصص.

كان القدر قاسيًا في الخامس والعشرين من آذار «مارس» سنة **١٩٥٣**م، حينما اختطف الموت «ناجي» فجأة بالسكتة القلبية في عيادته بين مرضاه، فذهبت بذهابه شخصية أدبية فذة، وانطفأت شاعرية أصيلة عزيزة المثال؛ إذ كان في طليعة الشعراء العاطفيين الغنائيين المجددين، وكان وكيلًا ثانيًا «لجمعية أبوللو» الشعرية بمصر، إبَّانَ رئاسة «خليل مطران» لها، بعد وفاة رئيسها الأول «أحمد شوقي»، وكان «ناجي» شاعرًا مطبوعًا يحترم النغم، ولكنه لا يحترم التَّعَمُّلَ، فأثمر وأنتج شعرًا شهيًّا من الطراز الأول، يتميز بجمال الطبع ويتعالى على القيود والصنعة.

وفي مقدمة المجلات التي اهتمت بأدب «ناجي» مجلة «الحديث» الحلبية الشهيرة، وفي عددها الصادر بتاريخ كانون الثاني سنة **١٩٥٣** «وهو العدد الأول من سنتها السابعة والعشرين» نُخَبٌ بديعة من «رباعيات ناجي» نذكر منها قوله:

أرْثِـي لِخَـطِّ الأُفْـقِ وهـو الـذي يَـرْمُقُني بالمقلـةِ السَّـاخِرَةْ

وتَهْـرُبُ الأنْجُـمُ هَـذي وذِي ويَجْـثُمُ الليْـلُ علـى «القـاهرة»!

•••

ويَزْحَـفُ الكـونُ علـى خـاطري كأنَّـه في مُقلـةِ السـاهِرِ

مَـدٌّ مـن الحـزن بـلا آخـر يعـب عـب الأبَـدِ الزَّاخـرِ

وكأنما يحس بدنو أجله حين قال:

الآن قـدْ مَـزَّقَ عـني القِنـاعْ مَـوْتُ الأَباطيـلِ وزَحْـفُ السَّـنَاءْ

وبـدَّدَ الـوهمَ وفَـضَّ الخـلاءْ بَـرْدُ المنـايا وشُـحوبُ الفنـاءْ!

هذا الشاعر النابغة الذي ندخر له دراسة بين شعراء العرب المعاصرين، لا تملك الآن إلا رثاءه بهذه الدمعة الحارة:

اسْـأَلُوا الشَّـاحِبَ القَمَـرْ واسـأَلوا الـدَّامعَ الزَّهَـرْ

واسْـألوا الـنَّجمَ حـائرًا واسـألوا الشَّـمْسَ في حَـذَرْ

واسْـألوا النُّـورَ باهتًـا خائفًـا مـا لَـهُ مَقَـرٌّ

واسْـألوا النَّهْـرَ واجمًـا كـلُّ مَـوْجٍ لـه عَثَـرْ

واسْـألوا الحُـبَّ بعـدَ مـا فاتَـهُ القـوسُ والـوَتَرْ

واسْـألوا الحُسْـنَ خاشِـعًا بعـد مـا تاهَ أو أَمَـرْ

اسْـألوهمْ عـن الـذي أَرْعَـشَ الـرُّوحَ والحَجَـرْ

كيـــف قـــد غالَـــهُ الــرَّدَى فجـــأةً غـــادرًا وفَــــرّْ؟

أَتُـــــرى كُـــــلُّ ذَنْبِـــــهِ أنَّـــــه شـــــاعرٌ شَـــــعَرْ؟

أنَّـــــه شَـــــعَّ أُنْسَـــــهُ في مَجَـــــالِسِ السَّـــــمَرْ؟

أنَّـــــه نَغَّـــــمَ الأَسَـــــى أنَّـــــه طـــــاردَ الضَّـــــجَرْ؟

أنَّـــــه أَبْـــــدَعَ المُـــــنَى مِثْلَمَـــــا أَبْـــــدَعَ الصُّـــــوَرْ؟

أنَّـــــه دَاعَـــــبَ الهَـــــوَى والهَـــــوَى كلُّـــــهُ خَطَـــــرْ؟

أنَّـــــه أَنْقَـــــذَ الـــــوَرَى مِـــــنْ شُـــــرورٍ ومِـــــنْ شَـــــرَرْ؟

أنَّـــــه أَسْـــــكَرَ النُّهَـــــى وهـــــو مِـــــنْ هَمِّـــــهِ سَـــــكَرْ؟

أنَّـــــه أَنْضَـــــرَ الـــــرُّبَى حينمـــــا صَـــــوَّحَ الشَّـــــجَرْ؟

أنَّـــــه أَنْـــــتَجَ الجَـــــنَى في دُنَى النَّحـــــلِ والبَشَـــــرْ؟

أنَّـــــه صَـــــاغَ شِـــــعْرَهُ مِـــــنْ دُمُـــــوعٍ ومِـــــنْ فِكَـــــرْ؟

أنَّـــــهُ زَفَّ مُطْـــــرِبًا مـــــا تَسَـــــامَى ومـــــا نَـــــدَرْ؟

أنَّـــــهُ كـــــانَ طِبُّـــــهُ فَـــــوْقَ طِـــــبٍّ ومُخْتَبَـــــرْ؟

أنَّـــــهُ عـــــاشَ دائمًـــــا ضـــــاحكًا يَهْـــــزِمُ الكَـــــدَرْ؟

أنَّـــــهُ كـــــان شُـــــعْلَةً مِـــــنْ ذَكَـــــاءٍ، وكـــــم بَهَـــــرْ؟

لم تَفُتْـــــه أَصَـــــالَةٌ إنْ يكـــــنْ فَاتَـــــهُ الـــــوَطَرْ؟

•••

يا صَـــديقي، وكـــم زَهَـــا مِـــنْ وفـــائي! وكـــم فَخَـــرْ!

نَعْيُـــكَ المُـــرُّ وَقْعُـــهُ وَقْـــعُ طَـــوْدٍ إذا انْفَجَـــرْ

أيُّ ثَأْرٍ لعاشِـــقٍ فاتَـــه الحُـــبُّ إنْ ثَأَرْ؟

لـــيس سُـــخْطِي ولَـــوْعَتِي لـــيس دَمْعِـــي الـــذي انهَمَـــرْ

لـــيس زُهـــدِي بحاضـــري بعـــدَ فُقـــدانِ مـــا عَبَـــرْ

لـــيس سُـــخْرِي بِعَـــالَمٍ في غَبَاوَاتـــهِ انْتَصَـــرْ

لـــيس هـــذا وغـــيرُه مِـــنْ حُطـــامي الـــذي انْتَثَـــرْ

مِـــنْ فـــؤادِي الـــذي هَـــوَى في جَحِـــيمٍ مِـــن الغِيَـــرْ

مِـــنْ تَبـــاريحِ ثَـــوْرَتِي حينمـــا خـــاطري اسْـــتَعَرْ

بالـــذي يُرجِـــعُ المُـــنَى وَاثِبـــاتٍ مِـــن الحُفَـــرْ

ليتـــني – إيـــهِ صـــاحبي! لم يُطِـــلْ غـــرْبَتي الحَـــذَرْ

ليتـــني كنـــتُ ســـابقًا ليتـــكَ الخالـــدُ الأَبَـــرُّ

راثيًـــا أنـــتَ، لا أَنَا،حَظُّنَـــا في يَـــدِ القَـــدَرْ

نحـــنُ في عـــالَمٍ بِـــهِ أَسْـــعَدُ النَّـــاسِ مَـــنْ غَفَـــرْ

كلُّنـــا دُونَ ذَرَّةٍ مِـــنْ هَبَـــاءٍ وَمِـــنْ مَطَـــرْ

لم نُخَيَّـــرْ، وإنمـــا نَـــدَّعي الخُبْـــرَ والخَبَـــرْ

لـــيس لي غَيْـــرُ خَمْـــرَةٍ مِـــنْ جِـــراحٍ ومِـــنْ عِبَـــرْ!

محمود أبو الوفا

حينما تهتم أمة بتنظيم حياتها وتوفير أسباب نهضتها، فإنها لا تهمل أيًّا من العوامل المؤثِّرة في تنشئتها، سواء أكانت هذه العوامل مباشرة أم غير مباشرة، خطيرة أم هينة.

ولا ريب أن الآداب والفنون ليست بأهونِ هذه العواملِ، كما لا ريب في أن حسن استغلالها يعاون معاونة قيمة في تربية الأمة وإعدادها لخير ما تتمنى، ولا قيمة لهذه الآداب والفنون إذا لم تكن حرة منسجمة مع المبادئ الإنسانية العالية، وإلا بقيت لهوًا وتسلية واستحقت نعتًا آخر، وكانت مهربًا فحسب من مواجهة حقائق الحياة.

ولا يطالَب أي فنان بأكثر مما يستطيع جهده، أي بأفضلَ مما تسمح به طاقته أو ميوله، ولكن إذا كان في وسعه – غير مُتصنّع – أن يكيف نفسه، بحيث يستوعب المثل الإنسانية والمبادئ التقدمية في شعره مثلًا؛ كان بذلك مُسْدِيًا خدمة أجل للبشرية!

نسوق هذه المقدمة، ونحن جَذِلُون؛ إذ نهتم بالكتابة عن ملحمة «عنوان النشيد» للشاعر المصري المطبوع «محمود أبو الوفا» الذي يقول:

استمعْ لي: إنَّ مِنْ حَقِّ الحياهْ
لِلْفَتَى؛ إمَّا يَعِشْ عَيْشَ إلهْ
أو يَمُتْ كالصَّوْتِ لم يُسْمَعْ صَدَاهْ!

ففي هذه الملحمة التي بلغ عد أبياتها واحدًا وخمسين وثلاثمائة، وقد

أخرجتها مطبعة مصر بالقاهرة في ثوب أنيقٍ، زادت في رونقه الصور الخلفية الملونة التي رسمتها ريشة الفنان «لويس فلسطين»؛ نجد شاعرنا يطوع مواهبه للنداء الإنساني الذي ينطوي على الإصلاح التقدمي، فيغنم الأدب الإنساني؛ كما تغنم العربية من هذا المجهود الجديد الموفق، وليس هذا بغريب عن «محمود أبو الوفا» فإن البذور الأولى لتفكيره هذا ملموسة في ديوانيه السابقين «أنفاس محترقة» و«الأعشاب»، وهي بذور السخط على الفساد، وعلى الظلم الاجتماعي وغير الاجتماعي، وهي بذور الحرية و«حق تقرير المصير»، وهي بذور التسامي عن الدنايا؛ كيفما كانت بواعثها وألوانها!

«وأبو الوفا» أحد اثنين من شعراء القاهرة المترسِّلين، اللذيْنِ يكاد يكون شعرهما نثرًا، ولكنه نثر مصري الروح والسمات، وكلاهما شاعر مطبوع. أما الآخر فالأديب «مُحَمَّد رضوان أحمد» عضو نقابة الصحفيين المصريين، ومؤلف الكتاب الروائي الشعري النفحات «في جنة الفردوس مع سبعةٍ من زعماء الشرق»، ولكن حينما يُعْنَى «أبو الوفا» بالديباجة المصرية البحتة صاعدًا بعاميتها إلى الفصحى، أو على الأقل إلى ما تقبله قواعدها، نجد «رضوان أحمد» يزاوج بين العربية الجزلة، والسلاسة المصرية المترسلة فيقول:

ومَـــتَى سُـــئِلْتَ عـــن الـــبلا دِ	فَقُـــلْ: تَقَـــارَفَ كـــلُّ حُـــوبِ
تشـــكو مـــن الظلـــمِ الغريـــ	ـــبِ ومـا الظَّلُـومُ سِـوَى القريـبِ
عاثـــتْ بهـــا الجـــرذانُ واجــ	ـــترأتْ علـــى الأسَـــدِ الرَّهيـــبِ
حُرَّاسُـــــــــها سُـــــــــرَّاقُها	وحُمَاتُهَــــا عَـــــوْنُ الغريـــــبِ
لا يُحْسِـــــنوَن سِـــــوَى الخنُـــــو	ع وفي الخُنـــوعِ ردَى الشـــعوبِ

بُهُـــمْ بِمِـــلْءِ بُطونِهـــا غَفَلَـــتْ   عـــــن الخَطَـــــرِ القَريـــــبِ

مِـــــنْ نَبْـــأَةٍ تَـــــذَرُ الـــدِّيا   رَ إلى المَخـــــابئِ والـــــدُّروبِ

لا يَحْفِلُـــــونَ مِـــــن الحيـــــا   ةِ بغـــيرِ كـــأسٍ أو لَعُـــوبِ!

ولولا ديباجة «أبو الوفا» المصرية البحتة لخلنا هذه الأبيات الوطنية من نظمه. أليس «أبو الوفا» هو القائل عن روحه الهادي في «عُنوان النشيد»:

وبَـــدَا في الـــرُّوحِ روحُ الهَيَمَـــانْ

فهـــو لا يَنـــزِلُ في أيِّ مَكـــانْ

دونَ أن يَسْـأَمَ مِـنْ هـذا المكـان

ما لَـهُ – يا ليتَ شِعري – لِمَ طارْ؟

هـل تَـراه إذْ رَأَى الظُّلْـمَ استطارْ؟

وكـأنَّ الـدَّهرَ بالنـاسِ اسـتدارْ

فـأمورُ الخَلْـقِ في أيْـدِي الصِّـغارْ

وكـأنْ لم يَبْـقَ في الـدُّنيا كِبَـارْ

قـال: لا، لم يَبْـقَ لي إلَّا الفِـرارْ!

وهو الذي يُناجي ذلك الروحَ النازحَ الساخط على المجتمع بقوله:

أيُّهـذا الـروحَ هـل لي مِـنْ جَـوَابْ؟

هـل أَظَـلُّ العُمْـرَ أدعـو لا أُجـابْ؟

أي غـــابٍ أنا فيـــه، أيَّ غـــابْ؟

فتـــني يا رُوحُ مِـــنْ غَـــيرِ صِـــحابْ

للنُّمـــورِ الحُـــرْدِ، للأُسْـــدِ الغِضَـــابْ!

لِلْأفـــاعي الـــزُّرْقِ، أو زُرْقِ النّيـــابْ

والعجيـــبُ الآنَ في غـــابِ العُجـــابْ

أنَّ هـــذا الغـــابَ يُحْمَـــى بالكـــلابْ

الكِـــلابِ السُّـــودِ أشـــباهِ الـــذِّئابْ!

يدور هذا النشيد أو الملحمة حول تمجيد الفضيلة القوية، وهي وحدها القوة التي يحترمها الشاعر الذي يعتبر الضعف «فُضولًا» في هذه الأرض، ويرى أن «قانون البقاء»:

وهـــو مـــا في النَّـــاسِ يُـــدْعَى بالقَضـــاءْ

قـــــد رأى في هـــــؤلاء الضُّـــــعفاءْ

أنَّهـــم في النـــاسِ جـــاءوا دُخَـــلاءْ

كالطُّفَيْليَّـــاتِ في الـــزرعِ ســـواءْ!

وهو بروحه الشعرية يعتبر أن «آدم» نزل إلى الأرض مختارًا، وأنه سأل الله أن يهبه «حق تقرير المصير»، فاستجاب الله إلى دعوته، وهو ينعي على الإنسان ضعفه وتردده، وجهله بتثمير اقتداره ومواهبه؛ كما أنه يمجد أمنا الأرض إلى آخر بيتٍ في ملحمته؛ إذ يناجي روحه الهادي أو روح السماء، الذي فر من الأرض سخطًا على ما فيها من آثامٍ ومظالمَ، وراح شاعرنا يبحث عنه قارعًا باب ذي العرش المجيد، في بحثه ونشدانه الحق، ولا يفوته غير مرة أن يسخر من محتكري النفوذ ومن بهلوانيتهم في التغرير بالجماهير، فيقول على لسان ذلك

الروح السماوي الساخر:

وقُصـــارَى القَـــوْلِ، في أيِّ مَكَـــانْ!

كنـــتَ فيـــه كنـــتَ أنـــتَ البهلـــوانْ!

هـــو ذا يا صـــاح فـــنُّ الافتتـــانْ!

وهـــو في العِلْيَـــةِ فَـــنُّ اللمعـــانْ!

وهـــو ذا أعظـــمُ فَـــنٍّ في الزَّمـــانْ!

ومع أن في هذه الملحمة القيمة مقاطيعَ أو أبياتًا كان يمكن الاستغناء عنها؛ لأنها بمنزلة تكرار أو إشباع أو توكيد لا موجبَ له، ومع أن بعضها ضعيف النسج مثل مقطوعته عن تساؤل «آدم» ص١٠-١١ إلا أن فيها فرائدَ ممتازةً جديرةً بالتنويهِ بها، سواء أكانت مبتدعة أم مردَّدة؛ فمن هذه الأمثلة الجميلة قوله:

وتَغَـــنَّى الـــرُّوحُ لَحَنًـــا فأجـــادَهْ

قـــالَ: إنَّ الضَّـــعْفَ والقـــوَّةَ عـــادهْ

مَـــنْ يُوجِّـــهْ وُجْهَـــةَ الأمـــر اعتيـــادَهْ

يُصْـــبِح الأمـــرُ لـــه رَهْـــنَ الإرادَهْ

إنَّ فِي الإنســـانِ طاقـــاتِ اقْتِـــدارْ

آهِ لـــو يَعْرِفُهـــا كيـــف تـــدارْ!

آهِ لـــو يَقْـــوَى اعتـــدادًا وإرادَه!

لاســـتقلَّ الأرضَ أُفْقًـــا للسِّـــيادَه

أنــتَ يا إنســانُ لــلأرضِ الملِــكْ

كيـــف لا تحكـــمُ فيمـــا تمتلـــكْ

بينمــا الــدُّنيا جميعًــا هــي لَــكْ؟!

(آدَمٌ) قبلـــــكَ بالأرضِ افتــــتنْ

فاشـــتراها بائعًـــا فيهـــا (عَـــدَنْ)

يا ضـــعيفَ الـــرأي إياكَ تَظُـــن

أنـــه أَسْـــرَفَ في هـــذا الـــثَّمن!

إنَّـــه عـــن قـــوةِ الطَّبْـــعِ نَـــزَعْ

وللاســـتقلالِ بالملـــكِ ابتـــدَعْ

لم يكـــنْ (آدمُ) مســـلوبَ الجنـــانْ

يـــومَ لم يُـــذْعِنْ بســـلطانِ الجِنـــانْ

لـــيسَ يرْضَـــى رجـــلٌ حُـــرُّ الفُـــؤادْ

عـــن حيـــاةٍ مـــا لـــهُ فيهـــا جِهـــادْ

خـــيرُ مـــا في الـــنفس هـــذا الاعتـــدادْ

إنْ «آدم» في عرف المؤلف الشعري قد اشتاق حريَّته بأيِّ ثمنٍ، فابتهلَ إلى اللهِ قائلًا:

رَبِّ هَـــبْ لي حَـــقَّ تقريـــرِ المصِـــيرْ!

هـــــذه أُولَى وأُخْـــــرَى طِلْبَـــــتي

أعْطِـــــني حَقَّـــــيَ في حُـــــرِّيَّتِي

ثمَّ خُـــذْ مـــا شِـــئْتَه مـــن جَنَّـــتِي

ولــتكنْ مهمــا تكــنْ لي قِسْــمَتِي!

هكـــذا «آدم» مِـــنْ فـــوق الجنـــان

هـــبط الأرض علـــى رأس الزمـــان

وكـذا الإِنسـانُ قـد أرضَـى اعتـدادَهْ

وعلـى مُلْـكِ الثَّـرَى شـادَ عَتَـادَهْ!

ولكن شاعرنا لا يرضيه أن ينسى نسلُ «آدم» تقاليد جدهم الأول، الذي شُغِفَ بهذه الأرض، كما حسب الشاعر، ولذلك قال عن الإنسان:

ليتَـــه وجَّـــهَ لـــلأرْضِ الـــدُّعاءْ!

مِثْلمـــا وَجَّهَـــهُ نحـــوَ السَّـــماءْ!

غـــيرَ أنَّ الـــنفسَ لمَّـــا استرخَصَـــتْ

طِينَهـــا لم تُعْطِـــهِ حـــقَّ العِبـــادَهْ!

ولهـــذا فَقَـــدَتْ حـــقَّ السِّـــيادَهْ

دُونَ أن تَشْـــعُرَ، والأشـــياءُ عـــادَهْ

بينمـا الإنسـانُ لـو شـاءَ اسـتعادَهْ!

ومن أجمل مقطوعاته هذه التي يوحي فيها إلى الإنسان الثقة بذاته والعمل لمجده فقال:

آه لـــو آمَـــنَ إنســـانٌ بِذَاتِـــهْ

لأتَـــى في الأرضِ كُـــبرى مُعجِزاتِـــهْ

ربَّمـــا كـــان إلهًـــا في صِـــفاتِهْ

حَـلَّ منــه الـرُّوحُ في كـلِّ جهاتِـهْ

لــيس للإنســان إلَّا مــا سَــلَكْ

فهـــو إنْ شـــاءَ تَـــرَوَّى فَهَلــكْ

وهـــو إنْ شـــاء إلـــهٌ أو مَلَـــكْ!

ومن خير شعره الاجتماعي في هذه الملحمة قوله:

أيُّهـــا النَّـــاسُ! ألَا مَـــنْ يَخْـــتَرِعْ

اختراعًـــا واحـــدًا يَشْـــفِي الطَّمَـــعْ

ويُـداوي النـاسَ مِـنْ داءِ الجَشَـعْ؟!

اضْـــمَنُوا لي الآنَ هـــذا الاخْـــتراعْ

وأنا أضْـــــمَنُ إشـــــباعَ الجِيـــــاعْ!

ليـــتَ مَـــنْ نادَى بتحريـــر البِقـــاعْ

كـــانَ قـــد نادَى بتحريـــر الطبـــاعْ!

ومع ذلك تمنى في ختام ملحمته لو أن لقاءه بروحه الهادي روح السماء كان على هذه الأرض، وإذا كان ثمة رجاء فليكن في الأرض تحقيق الرجاء:

لا تَقُـــلْ لي في غـــدٍ عنـــدَ السَّـــماءْ　　　سوف تَلْقى الروحَ أو تَلْقَى الصَّفاءْ

ولمـــاذا لم يكُـــن هـــذا اللقـــاءُ هـــا هنـــا في الأرضِ إنْ كـــان لقـــاءُ؟!

وهكذا نجد «محمود أبو الوفا» في هذه الملحمة يسمو إلى منزلة الشاعر الوطني المصلح الرائد، بل الشاعر الإنساني الذي يحس فِطْرِيًّا بأنه وفَنَّه وفكرَه وَقْفٌ على خير البشرية، وأن الإنسان في ذاته أعظم ملحمة شعريةٍ على هذه الكرة الأرضية، وأن الحياة ليست مجرد أكل وشرب ولهو، بل هي تجارب شاملة منها وإليها، لا دربًا واحدًا ولا تجربة محدودة، وأن الشاعر ليس دون سواه من أقطاب الأمة في الرياد والإلهام نحو مثل أعلى، وعلى الأخص في البيئات التي أورثتها أزمنة الانحطاط السابقة روح التواكل والقدرية الخاطئة والتعلق بالأوهام وحب الاختباء في الكهوف، بدل الاندماج في موكب الحضارة والانتفاع بنور العلم، وهو في كل هذا لا يأتينا بحِكَمِ «زهَيْر بن أبي سُلمَى» ولا بإنسانيَّات «بوب»، وإنما يأتينا بما توحيه إليه بيئته المصرية وروح العصر الحاضر، ولذلك نَعُدُّ ملحمته هذه لبنة صالحة في بناء الشعر القومي الشريف الإنساني الصبغة.

شاعرة من مصر

حينما دعتني صديقتي الأديبة الفاضلة السيدة «مارجريت عبد الأحد» إلى الاشتراك في نقد ديوان «الأغنية الخالدة» «لصفية أبو شادي»، تذكرت على الفور نقدي جدها «محمد أبو شادي» «بك» منذ أربعين سنة في جريدة «المؤيد» الإسلامية، التي كان يرأس هو تحريرَها حينذاك، بين شواغله الوطنية والمهنية المتعددة، وكما كان ذلك النقد صريحًا، تُمليه حماسة الشباب سيكون هذا النقد نظيره في الصراحة تمليه حماستي للأدب الرفيع الذي أتحيَّز له وحده. وكما كان الجد عزيزًا لدي، فكذلك حفيدته، وإنها لعليمة بذلك.

إن ما أعرفه عن هذا الديوان هو أنه كان يدعى قبل طبعه «أوتار قلبي»، ولكن «رابطة الأدب الحديث» بالقاهرة، التي تولت رعاية نشره، آثرت التسمية التي اختارها له الأستاذ العلامة «محمد عبد المنعم خفاجي» أحد أقطابها، ولولا حماسته الأدبية لما رأى هذا الديوان النور؛ لأن صاحبته – وهي في العقد الثالث من عمرها – مجردة عن غرور الشباب، وقانعة بالتعبير عن عواطفها فحسب، وهذا الزهد الكامل في النشر يكاد لا يصدق، وها هو ذا ديوانها العاطفي بالإنجليزية لم يَرَ النورَ بعدُ!

وإذا استثنينا الشاعرة المصرية المطبوعة السيدة «جميلة العلايلي»، فلا ريب أن صفية أول شاعرة رائدة صريحة أنجبتها «مصر» وطنها الأول الشديد تعلُّقُها به، وهي مولعة بالشعر المنثور وُلوعها بالحرية؛ فكأنما ابتعادها عن النظم هو سلوك نفساني يمثل هذا الولوع ويتمشى مع صراحتها المتناهية المنسجمة مع شخصيتها القوية، التي يعرفها زملاؤها في جامعة الإسكندرية سابقًا وجامعة

«جورج وشنطن» حالًا، ومع أنها تخصصت في علم النفس وتزداد تخصصًا فيه، إلا أنها أكثر تعلقًا بالثقافة الأدبية بمعناها الأشملِ.

وما يجب أن يعنينا من أمرها هو مبلغ الأصالة في سلوكها وفي آثارها، فأما سلوكها فقد أشرت إليه في صراحتها المثالية حتى في أحلك الظروف التي حاقت بمصر، وأما آثارها التي يعتبر هذا الديوان باكورتها فتتميز بأصالة واضحة، وهذا غنم للأدب الحديث؛ إذ لا فائدة لنا من التكرار ولا من نهب الآثار السابقة أو المعاصرة، فإن التكرار أو المحاكاة أو السرقة لا نتيجة لها إلا الهبوط بأدبنا، حينما يضاف إليه كل جديد يزيده رفعة. ولصفية أن تكون هانئة الضمير لإسهامها في رفعة الشعر المنثور، بأصالتها وصراحتها الفطرية التي تكاد تقارب السذاجة.

وشاعرتنا لا تعرف أن تسجل سوى تجاريبها الخاصة، وعواطفها الخاصة، وتأملاتها الخاصة؛ وهذا أساس شاعريتها. وعبثًا حاولنا أن نطالبَها بالتعبير عن وطنيتها المتأججة وإنسانيتها الشاملة وخيالها الخصب في ألوان أخرى من الشعر؛ إذ كانت تدفع هذا الطلب بقولها: «إن نفسها وحدها صاحبة الحق في اختيار أساليب التعبير عن ذاتها وعن زمانه ومكانه، ولها وحدها أن يكون تعبيرها في أسلوب شعري أو في سواه حسب ذوقها.» وصفية شاعرة رومانسية رمزية محبة للطبيعة التي تقدسها في الأزهار والجداول والطيور، بل وفي ملكوت الله بأسره، فإذا فاتتها الطبيعة التمستها في الموسيقى، التي شُغِفَتْ بها منذ صغرها، ومن العجيب أنها لم تتأثر بأي شاعر أو شاعرة، لا من أسرتها ولا من غير أسرتها، وإن قرأت لكثيرات وكثيرين وأحبت في الإنجليزية خاصة «كيتس» و«شيلي» و«وردزورث» كما أحبت في الفرنسية «ألفريد دي موسيه» و«لامارتين» و«فيرلين».

أما عن نماذج شعرها المثالية: ففي طليعتها: «مملكة في السماء» و«حديث الشجر» و«الزورق الصغير» و«الأغنية الخالدة»، وجميعها وثابة الخيال، عليها تألق الشغف بالشعر ذاته؛ كأنما هو استجابة لقصيدة وجهها إليها زميلها الشاعر مُحَمَّد مصطفى بدوي في عيد ميلادها سنة ١٩٤٢، وقد جاء في أحد أبياتها بعد تنويهه بأدبها واختياره الشعر هديةً لها:

فاعْشَقِي الشِّعْرَ، فهو دُنْيا سَمَاءٍ   كُلُّ ما قَدْ حَوَتْ رفيعُ السَّنَاءِ

وقد عَشِقَت الشعر بجميع جوارحها، وإن كانت مقلة في تدوينه بالنسبة لقدرتها البيانية الشفوية. أما المسحة الدينية أو التصوفية فملحوظة في جميع شعرها، وهي دليل إيمانها العميق.

وبعد، فهذا الديوان وجداني شخصي في أغلب مظاهره، وكنت أتمنى لو كانت صاحبته التي أعرف وطنيتها وإنسانيتها قد عنيت برسم عواطفها العامة تلك شِعْرًا من هذا الطراز الجذاب، أو خدمت به الحركة النسائية التي تتحمس لها أي تحمس، ولكن وحي الشعر يأبى أن يسلك معها هذه المسالك، وهي لا تعرف التصنع الذي يلجأ إليه كثيرون، وتجد الغنى كل الغنى في الصدق وحده، ولا تَعتبر المحدودة من آفاقه ضيقة ولو حسبناها نحن كذلك.

الشاعر عزيز عبد السلام

«إيه يا «عزيز»! ... إن للميت نفسًا لا يبلغها الإحصاء ولا ينالها الحصر ولا يحدها المكان؛ فهي كثيرة على أنها واحدة، وهي تنزل في قلوب كثيرة في وقت واحد وعلى اختلاف الأوقات والأطوار والشئون. إني لأتحدث إليك، وإن قومًا غيري كثيرين ليتحدثون إليك ويسمعون منك في هذه الساعة، وإن شيخًا وقورًا كريمًا قد أقام في قرية من قرى الريف؛ ليتحدث إليك ويسمع منك في ساعات النهار كلها، وفي ساعات الليل كلها، لا يمنعه من ذلك أن يمس طائف النوم جفنه أو يلم به الزائرون، أو أن يقيم عنده الضيف فيطيل المقام، إنه ليأنس بك يا بُنَيَّ أنسًا حُلْوًا يملؤه الحب وتملؤه الوحشة، ويملأ نفسه هو أسى ولوعة وجزعًا.

إنك لتفهم عني هذا الحديث يا بني، فأنت شاعر تفهم كيف يكون الأنسُ مُوحِشًا، وكيف تكون الوحشة مؤنسة ... معذرة يا بني! ... إن الشعراء حين يستأثر الموت بأجسامهم، معرَّضون لكثير من المحن؛ شأنهم في ذلك شأن الكتَّاب والفلاسفة؛ حياتهم ليست ملكًا لهم، وإنما هي ملك للناس جميعًا، فشعرهم مهما يكن موضوعه خليق أن ينشر ويذاع؛ لأن للناس جميعًا حقًّا فيه.»

هذه نتف من مقدمة الكاتب المصري الحر الأستاذ الدكتور «طه حسين» لديوان «عزيز»، وهو مجموعة قصائد الشاعر المصري الشهيد الدكتور «عزيز فهمي»، وواضح من هذه المقدمة أن الدكتور «طه» كتبها بروح العطف الذي تفيض به براعة الأستاذ على تلميذه النجيب، وبإحساس الوطني الحر نحو مريد

عامل حر، افتقده الأدب كما افتقده الوطن!

أما إذا نظرنا إلى خطر هذا الديوان من نواحي قيمه الفنية والإنسانية والفكرية، فإننا لا نجده كبيرًا، وقد نحمِّل الدكتور «طه» مسئولية تقليد الشاعر الفقيد للقدامى، مذ شغله بالانغماس في القراءة لهم؛ «ليستقيم له مذهبهم ومنهاجهم» بدل أن يحثه على الاطلاع فحسب، ثم إرسال نفسه على سجيتها، وهي النصيحة الوحيدة التي تحترم مواهب الشعراء الأصليين، وتؤدي إلى إنصافها في نهاية الأمر، ومثل هذا الخطأ التوجيهي وقع فيه من قبل «مصطفى صادق الرافعي» و«أحمد حسن الزيات» و«مُحَمَّد صادق عنبر»، ولكن صدوره عن الدكتور «طه» أمر عجيب!

واعتقادنا أن هذا التوجيه الشائع في مصر قد أدى إلى تدهور الشعر المصري، بالنسبة إلى الشعر اللبناني أو العراقي أو الفلسطيني، بله الشعر المهجري.

وإنه ليحزننا أن نجد كثيرًا من الشعر المصري أصبح مجرد عرض جميل الصياغة لخواطر ومعان سبق إليها وترددت تكرارًا، في حين ينكر الابتداع.

ولا ريب أن الدكتور «طه» اجتذبته إلى التنويه بالديوان وصاحبه، وطنيةُ شاعرنا الفقيد، والأواصر المختلفة التي تربطه به، ولكن كم كنا نود لو أن الدكتور «طه» عُنِيَ مثلًا بالشاعر الوطني المصري الشاب «كمال عبد الرحيم» صاحب ديوان «إصرار»، الذي أبت وطنيته إلا أن ينشره في أحرج الظروف التي تتطلب الشجاعة وحسن القدوة، فتعرض ديوانه للمصادرة، ولكنه نال احترامنا كشاعر حرٍّ، حينما جَبُنَ سواه أو شُغِلَ بالانتهازية أو بممالأة الحاكمين بأمرهم، وليس بنافع أن يتقلب أولئك الآن، وأن يتلوَّنوا تلوُّنَ الحرباء.

فالشعراء الجديرون بهذه التسمية في أية أمةٍ من الأمم هم أولئك الذين يستلهمون الشعب، ويستلهمون الإنسانية، ويستلهمون مثالية رفيعة في آن واحد، ثم يصنعون من كل هذا سبيكة نورانية خالدة، وأما الشعر المتصنع — كيفما تبرَّجَ — فلن يعيشَ ولن يُحترمَ على مر الأجيال، وأما الشعر الأناني وإن ارتفع بخياله أو اختال بأبراده فلن ينال الإعزاز الشامل، الذي يناله مثل هذا الشعر من ديوان «إصرار»:

عيدُ ميلادي الذي أذكرهُ يومَ كافحتُ وأحببتُ الكفاحْ

وتحسَّسْتُ جراحي، وأنا في قيودي، فتحمَّلتُ الجراحْ!

وقد سبق لنا أن تناولنا بالنقد ديوان «إصرار» ذاكرين ما له وما عليه، وما له ليس بالقليل؛ لأنه يمثل روح الثورة الإصلاحية إبَّانَ الاضطهاد في أمة ران عليها الذل، وخفتت بينها أصوات الأحرار على ضآلة عددهم، وارتفع صخب الوصولية وتدهوَر الشعر أيما تدهور؛ إذ تردى في حَمْأَةِ النفاق النفعية، وشُغِلَ على أحسن تقدير بالعرَض البراق، وبطنطنة الألفاظ، وبالعزف الموسيقي؛ كأنما هو موكَّلٌ بِسِرْكٍ[1] للرياضة والتسلية، ولو على حساب الأخلاق والمبادئ ومصلحة الشعب الغبين المستعبَد العاني؛ ولذلك تدهور الشعر والأدب عامة في تلك البيئات، حتى جاز أن يُحكم عليه بالموت، وبناء على ذلك تدهورت المثالية العربية النزيهة، بل تزايلت في أقطار عِدَّةٍ.

فإذا ما قَدَّمَ صاحبُ «المعذبون في الأرض» لديوان «عزيز» وجب علينا، بحكم تداعي الخواطر، ألا نُغْفِلَ هذه النظرة إلى الشعر الوطني الحر الذي فاض عن إيمان قوي وشاعرية حية في أحلك الظروف، ولم يرهب صاحبُه عُقْبَى الصدق والصراحة في أداء رسالته، بل دفع عن طيب خاطر ثمن ذلك من سجن

ومصادرة، ولكننا لا نهتم بهذا الشعر لمثاليته فحسب، بل لطاقته الشعرية وروحه التجديدية أيضًا، فكلها تؤلف في نظرنا وحدة فنية جميلة خليقة بالإعزاز.

فما الذي نجده في ديوان «عزيز» من كل هذا، وقد عُنِيَ به الدكتور «طه» حينما لم يُعْنَ أقلَّ عنايةٍ بدواوينَ أخرى، وبكتب أدبية أخرى، أجلَّ قدرًا؛ سواء في طاقتها الشعرية أو في رفعتها، وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال ديوان «الجواهري» لشاعر العراق «محمد مهدي الجواهري» و«الفكر العربي الحديث» «لرئيف خوري» الأديب اللبناني الإنساني!

إننا لا نجد في ديوان «عزيز»، ذلك التجديد الجريء الفخم الذي يُسْعدنا في شعر «مطران» مثلًا، والذي شُغل به نقادُ العربية في جميع الأقطار،[٢] ولا نجد عبقرية كلاسيكية غنائية أصيلة كما نجدها في الممتاز من شعر «شوقي»، ولا نجد الوطنيات الرائعة التي تطل علينا من شعر «القروي» و«حافظ» و«محرم»؛ وإنما نجد محاكاة ورنينًا ولَمْلَمَةً معادة الصياغة، كما نجد في شعر «الأسمر» و«علي محمود طه» وكثيرين ممن تُسْتَعْذَبُ أشعارهم لصياغتها الحلوة المستوعبة لطرائفَ شتى، دون أن تُلْمَسَ فيها غالبًا أية أصالة قوية أخَّاذة.

ومع ذلك لا نقلِّب ديوان «عزيز» إلا وفي عيننا دمعة، وفي فؤادنا حرقة؛ إذ نجد الوطنية والإخلاص، تحاولان النهوض بشاعريته المحدودة، وبطبعه التقليدي، فتتحفاننا بما نحترمه ونحبه، وإن لم يكن أخَّاذًا بفنه، ولعل من أحسن شعره الوجداني المطبوع قصيدته «يا قارئ الكف» التي يقول فيها:

يا قــارئَ الكــفِّ، مــاذا أَضْــمَرَ القــدَر؟ ... ولا عليــــك إذا لم يصْـــــدق الخَبَـــــرُ

ومــا اهتمامُــكَ باسمـــي؟ هَبْــهُ «عنـــترة» ... وهَبْهُ «زيدًا» وجَدِّي «عَمْرو» أو «عُمَرُ»

عليــكَ بالكـــفِّ فـــاقرأْ بـــين أســـطُرِها	مـــاذا يـــدلُّ عليـــه الخــــطُّ والأثَـــرُ
أَطــــالِعُ الـــيُمْنِ أَنَّ الخَــــطَّ مُتَّصِــــلٌ	وآيـــــةُ الـــنَّحْسِ أنَّ الخَـــدَّ مُنْبَـــتِرُ؟
ومـــا الشِّـــيَاتُ علـــى جَنْـــبَيْ ثمانيـــةٍ	تَبْـــدُو كَوَشْـــمٍ وتَخفـــى حَوْلَهَـــا غُـــرَرُ؟
خَـــبِّرْ عـــن الفـــألِ، لا تجفـــلْ، فســـانحةٌ	عنـــدي كبارحـــةٍ، والشـــرُّ ينتظـــرُ
هــــلْ أنْسَــــأَ اللهُ في عُمْـــري إلى أَجَـــلٍ	يُلِـــحُّ فيـــه علـــيَّ الهَـــمُّ والكِـــبرُ؟
وهــــل أُبَلَّــــغُ آمــــالي؟ وأَبْعَــــدُهَا	عنـــــدي كأقربهـــــا، ناءٍ ومُحْتَضَـــــرُ
هَبْــــنِي ظَفِـــرْتُ بآمـــالي علـــى ظمـــأٍ	إذا ارْتَوَيْـــتُ فمـــاذا يَعْقُـــبُ الظَّفَـــرُ؟

ومهما يكن من شيء فهذا ديوان يقرؤه الدارس باحترام؛ لأنه خواطر إنسان شريف، سواء أتألَّقتْ فيها العاطفة والخيال فاستحالت شعرًا فنيًّا، أم بقيت على سذاجتها الغنائية بهجة للأسماع فحسب.

الهوامش

(١) تعريب Circus.

(٢) من أمتع البحوث في هذا الموضوع مقال تجديد خليل مطران للشعر العربي، بقلم الأب «روفائيل نخلة» اليسوعي، المنشور في المجلد السادس والأربعين من «مجلة الشرق» التي تصدرها عن «بيروت» جامعة «القديس يوسف».

الربيع المحتضر

للشاعر العراقي صالح جواد الطعمة

حينما نرجع بالذاكرة إلى خمسة وأربعين عامًا أو تزيد، ونحن نقرأ مع الأستاذ «محمد كرد علي» قصائد «الرصافي» و«الزهاوي»، التي كانا يوافيان بها مجلته «المقتبس» نماذجَ للتجديد الجريء في ذلك العهد، ثم نقابل بين تلك النماذج وحفيداتها التي يَطْلُعُ علينا بها شعراء الشباب في هذا العهد من بلاد الرافدين، تتملكنا الغِبطة – ولا نقول العجب – للتطور التقدمي البديع في الشعر العراقي.

وعهد بيننا وبين أنفسنا – كما أنه من حق الأدب والأدباء علينا – أن نتناول بالدرس نماذجَ ذلك الشعر جميعه، الذي تسعدنا الظروف بالحصول عليه، ولئن حال المجال دُونَ التوسُّعِ، فلن يحول استقلالُنا دون التقدير النزيه، والإنصاف، بل إنه لكفيل بهما.

أمامنا اليوم ديوان «الربيع المحتضِر» للشاعر العراقي «صالح جواد الطعمة»، وإنه ليسترعي انتباهَنا من بدايته بظاهرتين: أولاهما ثقة الشاعر الشاب برسالته فنًّا وموضوعًا، وهذه تتجلى في انطلاقه، ومزجه الأوزان، ومعالجته موضوعات فكرية، ووجدانية رفيعة. وثانيتهما: طاقته الشعرية المتأرجحة تأرجحًا بينًا، فهو يعلو حينما يتناول موضوعات الحرية والكرامة البشرية، مجاريًا ومنافسًا الشعراء الأحرار من بني قومه وغيرهم، وهو يهبط حينما يُضْطَرُّ إلى شعر المناسبات المألوف، وحينئذ لا نسمع منه إلا نظمًا هو

أقرب الأشياء إلى الخطب السياسية، ولكنه في هذا وذاك على السواء متأثر بالحركة التحررية العصرية في التعبير، وعلى الأخص بطابعها العراقي الجديد الجميل.

خذ مثلًا قصيدته الأولى الممتازة «ضلال الفنان»:

أيهـا المُطْـرقُ الكئيـبُ إلى اللوحـةِ تلهـو بالريشـة الحمـراءِ!

تَبعـثُ الفَجـرَ واليـنـابيعَ والزَّهـر وسـحرَ الظـلالِ والأشـذاءِ

وتُشـيعُ الحيـاةَ في المَيـتِ الـرُّوحِ، وتحنـو عليـه بالأنـداءِ

فتلـوحُ الرسـومُ مشـرقَة الألـوان تزهـو بـذائبِ الأضـواءِ

مِنْ سَنَى مُقلتيكَ – يا ضيعةَ العُمْرِ! وتمتصُّ منك زَهْوَ الدِّماءِ!

يا لَهَذَا الضـلالِ! كـم تُحْرِقُ الرُّوحَ وتُـذْوِي للفَـنِّ زهْـرَ شـبابكْ!

أتـرَى غـيرَ سُـخرياتٍ مـن النـاس وغـيرَ الإنكـارِ مـن أصـحابِكْ؟

فلمـنْ تَهجـرُ الحيـاةَ وسَـلواها وتَبقـى تلتـاعُ في مِحْرابـكْ؟

وقد ختمها بقوله:

لـيس يَهْنيـكَ غـيرُ أن تُـترِعَ الكـاسَ لصـادٍ تُلهيـه خفقـةُ آلِ!

وتُسـلِّي المجـروحَ بالـنَّغم الآسـي وتُـوحِي للنـاسِ بالآمـالِ

لسـتَ كالنـاسِ تَرْتَجـي لـك إكْرامًـا وتغريـكَ خِدْعـةُ الإجـلالِ

فـابْقَ في الهيكـل المعطَّـر بالفَـنِّ تُشـيعُ الحيـاةَ في لوحاتِـكْ

وتُغـنّي لـلأرضِ، للمـلأ المُضْـنَى فيَلْقَـى السُّـلوانَ في أُغنياتِـكْ

أنـتَ كـالزَّهْرِ، أنـتَ تأرجُ بالعطـرِ وحُلـوُ الرَّحيـقِ في زهراتِـكْ

ينْتشي الناسُ من شذاه، فتذوي وتَدُوسُ الأقدامُ زَهْرَ حياتكْ

حسبُكَ المجدُ أن تكونَ لهم زهْرًا وتُوحِي السُّرورَ من مَأساتِك!

وفي هذه القصيدة فكرة لا نقول إنها جديدة، ولكنه عبر عنها بعاطفة حارة، وقد يعاب عليها عدم التركيز وبعض الركاكة في قليل من التعابير، ولكنها في جملتها تتسم بالإخلاص والوحدة الفنية والموسيقى المقبولة!

وعلى الرغم من سمات الكآبة والوَجْدِ – في كثير من شعره – نرى أن شاعرنا لا يعيش لنفسه، وأن له لزفرات حارة من أجل المجتمع الإنساني، ومن أجل قوميته العربية.

ولعل يتيمة هذا الديوان قصيدته «أغنية زنجية»:

على الأفقِ طال انتظارُ العبيد إلى النور، في الأُفقِ الأَجهمِ

وأغنيـــةٌ مـــن وراءِ الظَّـــلامِ تُغـــنّي: تَقَـــدَّمْ ولا تُحجـــمِ

أمانيـــك كـــم داسَـــها الســـيّدُ المُـــذِلُّ عتـــوًّا ولم تَأثَمِ

وكم يُترِعُ الكأسَ ممَّا سَفَحْتَ! وما لكَ منه سوى العلقم

تَقَـدَّمْ! لقـد مَلَّنـا الغُـلُّ مـلءَ الرضـا والخضـوع، ألم تسْـأَمِ؟

أَعَـدْلًا تُفـدِّيهمو بالحيـاة، ومالـك في الأرضِ مـن مَغْـنَمِ؟

وظُلْمًـا إذا تَتـأبَّى الهـوانَ لتهنـا – مـن العُمـرِ – بالأنْعُـمِ!

تَقَدَّم – فديتكَ – لا يَرْهَبنكَ بَطْشُ الطُّغاةِ وسَفْكُ الدَّمِ

متى نَهِلَ المجدُ غيرَ الدِّماءِ وطابتْ حياةٌ بلا مَغْرَمِ؟

على الأُفْقِ طال انتظارُ العبيدِ؛ تقدمْ إليهم ولا تُحْجِمِ!

سنُطلِقُ في أوْجُهِ الآثمينَ زئيرًا من المَعْقلِ المظلمِ

فَتندكُّ أسوارُه البالياتُ وتنهارُ من ثورةِ النُّوَّمِ

سيكتسحُ العاصفُ المستثارُ مَغارسَ سيدك الأعظَمِ!

فَنَبْعثُها أُغْنياتِ ابتهاج ونَلْقى السِّتارَ على المأْتَمِ

فلا سيدٌ يَسْتَذلُّ قواكَ ويَرْوِي خَمائلَه مِنْ دمي!

ثم يختمها بهذه الأبيات المتجهمة، وقد تعثرت موسيقاها:

حرامٌ! متى كان يا عبدُ أن تغمرَ الأشقياءَ رُؤَى البَلْسَمِ؟

لتأسو جِراحَ الأرقاءِ مِنْ غُلِّهم كم طواهم بلا مَأثَمِ؟

وأغنيةٌ من وراء الظَّلامِ تحنُّ إلى النُّور أو لِلدَّمِ

يُردِّدُها، لا يَزالُ العبيدُ زئيرًا من المَعْقِل المُظلمِ!

فهذه القصيدة القوية الأصيلة في مجملها كان يمكن أن تشرف على الكمال لو أن شاعرنا عُنِي عنايةً أوفى بصقلها اللفظي والموسيقي، ولكننا نلحظ أنه أكثر إجادة في ديباجته حينما يكون أكثر انطلاقًا، كما نرى في قصيدته «العائد» التي تعد من عيون شعره ومن بدائع الشعر الرمزي الحديث:

لا زلت أذكر كيف عاد بي الطريق:

قَلِقَ الملامحِ، واجمَ اللحظاتِ يعبثُ بِي الذُّهولْ

وبَراعمُ الأحلامِ ينثرُها على الأرضِ الذُّبولْ

وتكاد أنفاسي تضيقْ

والذكرياتُ تُطِلُّ في ذُعرٍ من الماضي تُفيقْ

ماذا أثار الذكرياتْ؟

السُّحْبُ والأغصانُ عاريةٌ أم الحقلُ المَواتْ؟

أم مشْهَدُ الأكواخِ تُهْجَرُ خوفَ عاصفةِ الشتاء؟

والدَّوحةُ الزهراءُ أوحشَها الخريفُ فلا يَرِنُّ بها عفاء!

•••

لا زلتُ أذكرُ يومَ عادَ بِيَ الطريقْ

وأنا أَحِنُّ إليكِ، للسُّلوانِ، للقلب الرفيقْ

شَفتايَ دبَّ عليهما الصَّمْتُ الثَّقيلْ

وتنهداتُ الصدرِ تسأل عن حَنانْ

وفؤاديَ المذعورُ يَخْفِقُ، كان يَخْفُقُ كالجبانْ

لكنْ وجدتُكِ تَجهلينَ السِّرَّ، يَغْمُركِ الذُّهولْ

مذعورةً مثلي، وفي وَلَهٍ عليَّ تردِّدينْ:

ماذا دَهَاكْ؟

«لِمَ عُدْتَ واهي الصَّدْرَ، ما سِرُّ الأَنينْ؟»

وبقيتِ في إشفاقةٍ تتساءلينْ:

«لِمَ عُدْتَ؟ ماذا قد دَهاكْ؟»

•••

وشِفاهيَ الْوَلْهَى تَضِنُّ عليكِ بالسرِّ الحزينْ

لكنْ سمعتُ تنهُّدات الصَّدْرِ تَصْرَخُ في جُنونْ:

«لِمَ يَهجُرُ الكُوخَ الرُّعَاهْ؟»

وخمائلُ الرَّوْضِ المُظَلّلِ، كيف تَقْفِرُ مِنْ حَيَاهْ؟

والطيرُ؟ ماذا يُخْرِسُ الطيرَ المغردَ في مِرَاحْ؟

فيطيرُ عن وَكَنٍ يَعزُّ عليه مبتلَّ الجَناحْ

والريحُ تنْحِبُ في جُنونْ!

كانت تَضِنُّ عليكِ بالبَوْحِ الشِّفاهْ

لكنْ سمعتِ السِّرَّ من صَدْرِي ومن أَلَقِ العيونْ

فتألَّقَتْ عيناكِ بالدَّمعِ المضاعْ

تبكينَ زهرًا لا يُروِّيهِ بكاءٌ والتياعْ

فلقد مَضَى عنه الربيعُ

والناهلُ الأشذاءِ ولَّى، لم يَعُدْ زهري يَضوعْ!

إن الشاعر «صالح جواد الطعمة» من الأدباء الشرقيين القليلين الذين يحترمون النقد الأدبي بل وينشدونه، وممن يحترمون خاصة مقاييس النقد الأدبي الصارمة في الغرب، وهي التي تقضي على النفايات وعلى التقليد الأعمى،

وتشجع الابتكار وتُجِلُّ المواهب الأصيلة؛ ولذلك نرجو خيرًا لمستقبل هذا الشاعر الوجداني الوثاب، كما نهنئه بما قد أحرزه من توفيقٍ.

وبينما يُشغل بعض الكتاب باختيار النماذج المهلهلة أو الغنائية التي كلُّ مَيزتها – إن كانت تلك مَيْزةً – دلالة صَدْرها على عجُزها، وسهولة تعابيرها إلى درجة الابتذال، دون الالتفات إلى مبلغ أصالتها؛ اكتفاءً بما تجمَّعَ فيها من تعابيرَ حُلوة وأخيلة مُزَوَّقة منهوبة، لا يسعنا إلا التنويه بما هو أبقى من تلك، أي بما هو أكثر أصالة وألمعية، وبما هو أجدر بالتنويه به، سواء أكان صاحبه مشهورًا أم مغمورًا، ولدينا في ديوان «الربيع المحتضر» نموذج صالح لذلك.

من الشعر الغنائي العراقي

يلاحظ النقاد المستعربون أنه بينما لا تتجاوز منزلة الشعر في الأقطار الأوربية والأمريكية المستوى الفني الاسطيقي الذي يقترن بالصقل والتهذيب والترفيه في عصرنا الحاضر – شأنه شأن الفنون الأخرى – نجده لا يزال في الشرق ذا نفوذ متغلغل بتأثيره الاجتماعي والسياسي، وقد سبق كما لازم النهضات الوطنية والفكرية والاجتماعية.

ومن أحدث الأمثلة على ذلك شعر «مُحَمَّد حافظ إبراهيم» وأثره في النهضة الوطنية المصرية!

ومن تحصيل الحاصل أن يقال إن الشعر هو التعبير الكلامي الموسيقي عن الحياة بطريقة فنية أخَّاذة، وفي الحياة أشياء كثيرة تبدو للناقد السطحي تافهة أو عابرة، ولكنها ليست كذلك للشاعر إذا ما تأثر بها فِعلًا، فعبر عن عاطفته نحوها بحرارة وتَعَمُّق، فليس كلُّ معنى يخطر بالبال جديرًا بالحفاوة أو حَرِيًّا بالإهمال؛ بل الحكم في ذلك يرجع إلى مبلغ تأثر الشاعر بذلك الخاطر، وإلى درجة قدرته على التعبير الفني عنه بأصالة وطلاقة.

كذلك مِنْ تحصيل الحاصل أن ننبه إلى أن الروح الإقليمية في الشعر إذا جاءت فطرية فلا غبار عليها، وقد تكون من حسناته بالنسبة إلى خلق ألوان مُنَوَّعَةٍ منه، ولكنها قد تصبح من عيوبه إذا ما أدت إلى حصر آفاقه، أو أدت إلى خلق عصبيات، لا تمتُّ إلى روح الأدب السليم بصلة.

ومن تحصيل الحاصل أيضًا أن نقرر أن أسمى الشعر الذي يرتفع إلى مقام الخلود، ليس ما يحوم عاجزًا حول العابر المألوف، بل هو ما يحلق بموضوعه ––

ولو كان في ظاهره تافهًا – تحليقًا ينتظم الحقائق الأزلية في عَرْض فني ساحرٍ، لا تَذْهَبُ برونقه العصور ولا تطغى بضوضائها على حلاوة موسيقاه، وافتنان أخيلته، ووثيق اتصاله بالإنسانية جمعاء، لا بوسط أو بإقليم معين.

ولا يعني هذا بأي حال إصغارَ الشعر الليريكي العاطفي المحض؛ إذ له منزلته الفنية الخاصة، وقد يصعد بنفسه إلى طبقة أرقى من المستوى الشخصي؛ كما نرى في عاطفيات «ناجي» و«الصيرفي».

وأخيرًا نرى من البداهة بمكان أن نقول إن مبلغ الإنتاج الشعري لا علاقة له بالأصالة ولا بالطاقة الشعرية، وإنما الأمر يتعلق بالمواهب وحدها؛ فرُبَّ شاعرٍ مقلٍّ يكون مُسِفًّا، ورب شاعر مكثر يكون مُجيدًا، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، ومن الشعراء المكثرين اللامعين قديمًا «مهيار الديلمي»، وحديثًا «عبد الرحمن شكري»، فضَرْبُ المثل بحوليات «زهير» لا يساند فكرة سليمة، وما كانت «حوليات زهير» على أي حال بالمعجزات، ولو أنها نالت الحفاوة بها في زمنها.

نذكر هذا التمهيد توطئةً للحديث عن بعض النماذج من الشعر الغنائي العراقي، مقتصرين في هذه المناسبة على الشاعر الليريكي «عبد القادر رشيد الناصري»؛ فهذا شاعر مكثر، مجيد، عذب الموسيقى، يسبق نضوجه سنه.

ولئن انتسب إلى مدينة الناصرية، وجرى في عروقه الدم الكردي، فإنه من أولئك الشعراء الذين ينتسبون في الواقع إلى كل قطر، وإلى الإنسانية جمعاء، وله قصائد كثيرة شائقة تضمنتها مجلات شتى ومجاميع شعره، وكلها تنبض بحرارة عاطفية وبعذوبة غنائية فريدة لا نجدها في الشعر العراقي التقليدي، أو الكلاسيكي؛ كشعر «الرصافي».

ولئن كانت لشاعرنا نفحات طيبة من الشعر الوطني أو من الشعر الإنساني منذ إصداره ديوانه الأول «ألحان الألم»، الذي قدمت له الشاعرة المصرية «جميلة العلايلي» في سنة ألف وتسعمائة وسبع وثلاثين؛ فإن ما اشتهر به خاصة هو شعره الغنائي المأنوس، وقد ظهرت نماذج جميلة منه، وما تزال في «الأديب» و«الدنيا» و«الثقافة» و«الرسالة» وغيرها من المجلات الذائعة، وإنه ليشق علينا الاختيار من بين هذا الجيد الكثير، فبحسبنا أن ننظر في هذه القصيدة الغنائية القصصية الموسومة «شهرزاد مدريد»؛[١] لأنها جامعة بين قدرته التصويرية، وبراعته الليريكية، وسلاسته البيانية، التي لا تستطيع أن تنسبَها إلى قطر معين، وإن كانت اشتهرت عن مصر أولًا، ولكنها الآن عامة تحملها إليك «رسالة المغرب» و«الأنيس» في «مرَّاكش»، كما تحملها «المنهل» و«الحج» في الحجاز، بل وكل مجلة وصحيفة راقية في جميع أقطار العالم العربي، وهذه الأغنية من ذكريات «عيد الحرية» في باريس لشاعرنا في سنة ١٩٥٠م، وقد أهداها إلى أديبة إسبانية حسناء كانت برفقته في أثناء ما كانت «الكرنفالات» قائمة في كل مكان، قال:

عَبَـرَتْ بي وهـي شـقراءُ لهـا وجـهٌ صَبُوحْ[٢]

في مَســاءٍ تعبــقُ الفتنــةُ منــه وتَفُــوحْ

شـاعريُّ الظِّـلِّ مخضـلٌّ لـه النُّـورُ مُسُـوحْ

قلـتُ: يا ضـاحكةَ العينيْن، مـاذا لـو أَبـوحْ؟

أنا لـو تـدرينَ قلـبٌ بِهـوَى الغيـدِ جـريحْ

شـاعرٌ طـوَّفَ في الأرضِ فأَشـقاه النُّـزوحْ

سَـئِمَ القيـدَ «ببغـدادَ» وأَدْمَتْـهُ الجُـرُوحْ

فـأتى (باريـسَ) في ظِـلِّ الأمـاني يَسْـتَرِيحْ

فـرأَى حُلْـمَ لياليـهِ بِعينيـكِ فهَامَـا وتَسَـامَى نَغمًـا يُشْـرِقُ بالحُـبِّ ضـراما

•••

وَوَقَفْنَـا نَتَمَلَّـى «السِّـينَ» والليْـلُ سُـكونْ

الثَّـرَى سِـحْرٌ ونُـورُ القَمَـرِ الظَّـامِي حنـينْ

عُـرُسٌ، فـالوَرْدُ والأَنْسَـامُ رقـصٌ ولحُـونْ

وعَـذَارَى الشُّـهْبِ في حاشـيةِ الأفْقِ عُيـون

فَتعانقنـــا بِرُوحَيْنـــا وهزَّتنـــا الشُّـــجونْ

وَهَتَفْنَـا: لمـن الصَّـهباءُ واللحْـنُ الحَنُـونْ

هـا هُنـا يحلـو لِعُشَّـاقِ اللَّـذاذاتِ الجُنـونْ

فَهَلُمِّـــي نتعاطاهـــا فـــدُنيانا فتـــونْ

ما على مُغْتَرِبي دارٍ «بباريسَ» أقاما إن أحالا الليلَ جامًا والمسراتِ مُداما

•••

وانْتَحَيْنَــا حانــةً تَحْكِــي أســاطيرَ الليــالي

السَّــنَى في جوِّهــا الصــاخبِ شــرقيُّ المثــالِ

واندفعنا بين حَشْدٍ من نساء ورجالِ

يتساقوْنَ على نَخْبٍ ليالي «الكرنفال»

قلتُ: يا مُلهمتي الشعرَ ويا وحيَ خيالي

أترعيها مِنْ جَنَى «بوردو»(٣) ومِنْ تلك الدَّوالي

خمرةٌ تكشف للشاعرِ عن سِرِّ الجمالِ

ما علينا لو أذبنا الرُّوحَ في نارِ الوصالِ

أنتِ يا زهرةَ «مدريد» ويا زهوَ الدَّلالِ:

عيدُ أفراحي، وعِطرِي، ومُدَامي والنَّدَامى   قَرِّبي ثَغْرَكِ أسْكُبْ فوقَه رُوحي هُياما

•••

قالتْ: اشْرَبْ! قلتُ: سِنْيورَا اشْربي نَخْبَ لِقانَا

لا تقولي قد خلا الحَانُ ولم يَبْقَ سِوَانَا

الهَوَى العاصفُ لا يَعرفُ للنَّجوى مَكانَا

نحن أغرودة حُبٍّ ردَّدَ الدهرُ صَدانا

ما علينا لو ختمنا بدمِ القلبِ هَوانَا

حَسْبُنا أنَّا احترقنا في جحيمٍ من أسانَا

قَدَرٌ نادَى، وقلبانِ أجابا مَنْ دَعَانَا

فعســـى نبعــث ذكــرى (شـــهرزادٍ) والزَّمــانا

وتلاقـت شـفتانا سـاعةً كانـت مَنامَـا أَمَرَ الحُبُّ فكنَّا في فَـمِ الـدنيا ابتسـاما!

ولكن الذي ينظم هذا الشعر لم يرتفع إلى مستواه، حينما تناول موضوعًا سياسيًّا وطنيًّا، كما نرى في قصيدته «ذكرى الشهداء»[٤] في حين أنه ما من قصيدة غنائية له إلا وهي تنبض بأجمل الأنغام والصُّوَر العصرية المحبوبة المأثورة.

ومن أمثلة ذلك – دُونَ اختيار – قصيدتاه «حنين»[٥] و«مِنْ أغاني الوداع».[٦]

وشاعرنا يطل الآن على شرفة الثلاثين من عمره. ويخيل إلينا، وهو ما يزال في الدور الاستيعابي للجمال الفني الذي يعاصره، أنه سينتقل يومًا إلى الدور الابتداعي القوي، غير مكتف بهذه السلاسة المأنوسة والمعاني السائرة المعشوقة التي تذكرنا بلطائف «علي محمود طه» التي تغنى بها الفنانون، ولكن لم يسجد لها الشعراء الأصيلون ولا النقاد الحصيفون.

بيد أن قصيدة «شهرزاد مدريد» ذات إطار أصيل من التجربة والسرد والمقارنة، فلها إذن طرافتها الخاصة الشائقة، ويعجبنا منها التسلسل القصصي المطبوع وليونة تعابيرها، وعذوبة جَرْسِها؛ بحيث إنها في أخيلتها وموسيقاها تنافس أغنية «الجندول» «لعلي محمود طه».

وبعد، فهذا مثالٌ لما تنجبه العربية القياسية والتبادل الثقافي والفني بين الأمم العربية من تجانس الشعر الغنائي الفصيح أسلوبًا وأخيلةً وصُوَرًا، إلى درجة انتفاء الصبغة الإقليمية في كثير من الأحايين وتجلي روح العصر عليها جميعًا، وإن وجدت نماذج قليلة لشعراء يتميزون بابتكارهم؛ وكأنما لا يعيشون في القرن

الذي يحيون فيه، فهم جِدُّ غرباء عنه، وقد تعوزهم خصال وعناصر تحببهم إلى أهل زمانهم، فيلبثون في غربتهم هذه إلى أن يتبدل قراؤهم كما حدث «لمحمود حسن إسماعيل»، أو إلى أن يذهب الموت بما حولهم من حزازات وأحقاد كما حدث «لابن الرومي».

الهوامش

(١) مجلة «الرسالة» المصرية بتاريخ أول أكتوبر سنة ١٩٥١م.

(٢) الصواب «صبيح» إلا إذا تجوزنا واستعملنا هذا الاسم في موضع الصفة بمعنى خمري.

(٣) «بوردو» مقاطعة فرنسية، غنية بأعنابها وكرومها، وإليها تنسب الخمرة المسماة باسمها.

(٤) مجلة «الثقافة» المصرية بتاريخ السابع من يناير سنة ١٩٥٢.

(٥) مجلة «الدنيا» الدمشقية بتاريخ ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٥١.

(٦) مجلة «الدنيا» الدمشقية بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٩٥١.

من الشعر الأردني

بين الذكريات التي تحضرنا من أيام الصبا ولن تُنْسَى مذ كان لها أثر عميق في نفسنا؛ جلسة مع الأستاذ «خليل مطران»؛ إذ زاره أحد شعراء الشباب وعرض عليه قصيدة من نظمه معتذرًا عن قصوره الخيالي، قائلًا إن كل بضاعته تعبيره الصادق الحار عن عاطفته، وليس بوسعه أن يحلق في سماوات «مطران». فتأمل الأستاذ في شعر هذا الشاب، ثم قال له: «ولكن هذا هو الشعر! ... بحسبك هذا يا بُنيَّ! ...»

كان هذا منذ نيف وأربعين سنة، أيام كان الناس مفتونين بالرنين، وبمخارج الألفاظ، وبموسيقى يفرضونها فرضًا، أو يقدِّسون فيها التقاليد، دون استقلال يُجاري روح العصر أو يوائم بين فن الشعر والفنون الأخرى الإبداعية، وبذلك قضوا على نهضة الشعر العربي، لولا جهود «مطران» وبعض تلاميذه، كما قضوا على نهضة الموسيقى العربية ذاتها، ولم يفلت من قيودهم المصطنعة إلى حد ما سوى التصوير الفني بفضل «مدرسة وانلي» في «الإسكندرية». ولا نزال نجد – للأسف الشديد – طبعاتٍ عصريةً مزوقة لهذه القيود في مؤلفات ومقالات ودراسات لو أننا أخذنا بها لأخرجنا الشاعر المجيد «عيسى الناعوري» صاحب ديوان «أناشيد» من عداد الشعراء! كما حاول ذلك بعض الأدباء بيننا.

ولكننا لا نأخذ بهذه القيود المفتعلة وننظر نظرة واسعة يعززها شغفنا بفنون شتى واطلاعنا عليها وممارستنا عددًا من أهمها، وكل هذا يدعونا إلى أن نقف موقف الأسف، إزاء عجز المؤلفين والناقدين عن التخلص غالبًا من خزعبلات الأوهام القديمة، في الألفاظ والموسيقى، والموضوعات والملابسات، والأخيلة والتعبير

العاطفي، في قيود دكتاتورية جدِّ منافيةٍ لروح الفن الحر، ولو طبقنا أحكامهم على الفن التصويري مثلًا لأخرجنا «سيزان» و«ماتيس» و«رنوار» و«بيكاسو» والعديدين من الأعلام قديمًا وحديثًا من جنة الفن وألقينا بهم في الجحيم!

إن القاعدة الذهبية في تقدير الفن هي أنه تعبير خَلَّاقٌ، سواء أكان هذا التعبير رمزيًّا أم صريحًا، وليس تقدير الفن بذي صلة مطلقًا بإنتاج الفن الذي قد يندمج في ضروب شتى من الحياة لا أول لها ولا آخر، أو قد يقتصر على درب أو دروب قليلة منها، وقد يختار ألوانًا معينة أو ألحانًا بذاتها ويطوعها لموضوعاته، أو قد يزاوج بين الموضوعات والصبغات والألحان، فليست المواءمة المزعومة أمرًا معينًا حتميًّا وفاقًا لقواعدَ مفروضةٍ.

ونعود إلى التصوير؛ لأنه محسوس ومفهوم لدى الجمهرة الغالبة من المثقفين أكثر من الموسيقى مثلًا، فنستشهد بفن العبقري «بيكاسُّو» العظيم الإنتاج الكثير التنوع، ولو أخذنا بمقاييسِ أولئك النقاد لوجب أن نكافئ «بيكاسو» على خصوبة فنه كمية وتنويعًا؛ مكافأة العقاب، ولوجب أن نطرده من حظيرة الفن! وعندنا أنه ما لم يستبدل بتلك المقاييس العرجاء غيرها مما يقدرها عالم الفنون الحرة فسنبقى مسيئين إلى إمكانيات الشعر العربي – منظومًا كان أم منثورًا – في أبواب شتى، وسيبقى معظمه رهين القيود والقرون الماضية. كذلك لن تنصف المواهب، ولن يتبوأ الإبداع مكانتَه من الحفاوة والتقدير، إذا تجاهل الناقد المؤرخ مراحلَ الخلق الفني وخَدعته سلاسة الصانعين المقلدين الجامعين لمآثر غيرهم؛ إذ بذلك يضيع الماهدون المبدعون ويمجد المنتحلون الصانعون، وهو ما لا يزال راجحًا في عصرنا.

وعلى ضوء هذه المبادئ التي يحترمها الغرب، بل عالم الفن الحر، نحيي ديوان «أناشيدي» «للناعوري».

ولقد اشتهر صاحبه كأديب ناقد، وهو في رأينا جدير بأن يشتهر أيضًا كشاعر وجداني واقعي قوي العاطفة، يقول في مقدمته:

«هذا ديواني» أسميته «أناشيدي»، وقسَّمته قسمين: يشتمل القسم الأول منهما على عدد من القصائد الفلسطينية، أو التي أوحَتْ بها نكبةُ فلسطين. ويحتوي القسم الثاني على عدد صغير من القصائد التي غَنَّيْتُ بها أشياء من نفسي لنفسي. أما قسم القصائد الفلسطينية فقد دعوته «أغاني الدماء»، وهي تسمية ستجدها منطبقة أحسن انطباق على تلك القصائد. وأما القسم الثاني فقد احتفظت له بالتسمية العامة للديوان؛ أي «أناشيدي». قد تبحث يا قارئي العزيز في هذه المجموعة الصغيرة عن شيء من شعر الحب الذي اعتدت أن تجده في كل ديوان ولدى كل شاعر، فإذا كنت من عشاق هذا اللون من الشعر فاسمح لي بأن أعزيك عن فجيعتك سلفًا؛ فليس ناظم هذا الديوان من عشاق «الشعر الغرامي» ولا ممن يشجعون ظهوره في الصحف أو الكتب؛ لأنه شيء خاص بصاحبه، ولا حاجة للقراء إلى خصوصيات الكتَّاب والشعراء، وإنما القارئ في حاجة إلى الشاعر الذي يَهْمِسُ إليه بالحديث الذي يهمس به هو – القارئ – في نفسه، والشعور الذي يحسه في داخله ويتمنى أن يراه مُصَوَّرًا أمامَه. فإذا كنتَ يا قارئي العزيز من رأيي في هذا، فأنا سعيد بأنني استطعت أن أجد فيك المشجع الكريم، وبأن أكون في شعري قد دخلت إلى قدس أقداسك، وإلا فثقْ بأنني لن أغضب مهما تظن بي من سوء، فأنت حر في أن ترى ما تشاء، وتعجب بما تشاء، أو تستنكر ما تشاء، وأنت على الحالين مشكور.

وإذا كنا نؤمن بأنه:

لولا المحبَّةُ ما تحركَ شاعرٌ ... ولَما غدا حَوْلَ السماكِ يَطيرُ

وبأن شعر الحب من أجمل ما تتغذى به العواطف الإنسانية، فلسنا بمن يستطيع موافقة شاعرنا الفاضل على ما ذهب إليه، ولكنه حر في اختياره. ومعاذ الله – ونحن ننشد الحرية للفن – أن نملي عليه أو على أي إنسان أي نوعٍ من القيود. نحن نريد التنويع تبعًا للطبائع والميول الفنية، وهيهات أن نحكم على قدرِ أيِّ أثر بكميته، وإلا كنا كالتجار الخاضعين لقانون العرض والطلب، وهذا حال الجمهور غالبًا، ولكنه ليس حال الصفوة من ذوي الثقافة الواسعة، وعلى الأخص من تذوقوا الفن ومارسوه.

وكذلك الحكم على الأساليب والتناول الفني، فإن طرائقه شتى لا عدَّ لها، ومعاذ الله مرة أخرى أن نقول: هذه تصلح وتلك لا تصلح! كذلك ضروب الشعر عديدة، وغنى الأدب بهذا التعدُّد، ونحن في الواقع بحاجة إليها. ولكننا يمكننا أن نستغني، بل يجب أن نستغني عن شعراء التقليد والتصنع والانتحال، الذين لا يضيفون إلى ثروتنا جديدًا، وإن بهرجوا وزوَّقوا القديم المنهوب واستباحوا بعد ذلك وضْعَ الغار على رءوسهم، كأنما الأصالة الخلاقة والطاقة الشعرية القوية، والتفنن الجريء، والاندماج الشامل في الحياة؛ لا قيمة لها بجانب الروتين الذي يستهوي العامة.

إن فلسطين التي أنجبت من الشعراء الموهوبين أمثال «مصطفى وهبي التل» و«إبراهيم طوقان» و«عبد الرحيم محمود» و«وفَدْوَى طوقان» وغيرهم؛ قد نفحتنا كذلك بشاعرنا «عيسى الناعوري»، الذي يَعدُّ نفسه خَطَأً ناقدًا أكثر منه شاعرًا، ولكن الواقع في رأينا عكس ذلك؛ لأنه في الوسط الذي يعيش فيه – على الرغم من قراءاته – لا يزال متأثِّرًا بمقاييس ذلك الوسط، حتى فيما ارتضاه من الشعر المهجري، ولكننا لا نجزم بأنه لن يتطور في آرائه وأحكامه على مر السنين، بل ربما رجَّحنا العكس، وقد نرى مستقبَلًا كتابًا له جدَّ مختلف

عن كتابه «الجديد في الأدب العربي» الذي نوَّهنا به من قبل، وإن يكن كتابًا طريفًا شائقًا جديرًا بالإقبال عليه.

إن «عيسى الناعوري» شاعر حساس كلاسيكي الأسلوب غالبًا، وقصائده في نكبة موطنه الأصلي «فلسطين» من أروع الشعر الوطني الجياش بالعاطفة القوية، التي تهز القلوب وتغرورق لها العيون، وإننا لنتحاشى عمدًا الاقتباس منه في هذا المقام، ونكتفي – وربما لا يُغني الاكتفاء – بهذه الأبيات الساحرة من قصيدته «عند سرير طفلي» نموذجًا لمذهبه الشعري:

إغفـــاءةُ الـــوردةِ في مُقلتيـــكَ

وموكـــبُ النـــور في وجنتيـــكَ

ونَســـمةُ الفجـــر علـــى ثغركـــا

ونفحـــةُ الفـــردوسِ في طُهْرِكـــا

تخَفِّـــفُ الآلامَ عـــن والـــديكَ!

•••

يا بَســـمةً في أُفقـــي العـــابسِ

وكوكبًـــا في ليلـــيَ الـــدامسِ

نَمْ يابـــنِ، يا أنشـــودتي الغاليـــةْ

نَمْ يا مُـــنَى رُوحـــي وآماليَـــةْ

وخلِّـــني أرعـــاكَ كالحـــارسِ!

رباعيات عمر الخيام

مترجمة عن الفارسية

القسم الأول: في «الخمرة» على البحر الذي استعمله الخيام نفسه

(١)

إنَّما الفُلْكُ[1] قَصْدُهُ كلُّ سُوءٍ بِكِلَيْنَا، مُبَدِّدًا رُوحَيْنا

فارقَأ العُشْبَ واشرَبِ الخمرَ واغنمْ قبلَ يومٍ يَنْمُو على تُرْبَيْنا

(٢)

تَعْدِلُ الكأسُ ألفَ قلبٍ ودِينِ وتُسَاوِي جميعَ مُلْكِ الصِّينِ

ليس في الأرضِ أيُّ مُرٍ يُسَامي ألفَ حُلْوٍ سوَى الشَّرَابِ الثَّمينِ!

(٣)

انْظُرِ الكأسَ فَهْيَ حُبْلَى بِرُوحٍ تُشْبِهُ الياسَمِينَ في حَمْلِ وَرْدِ

بل مِن اللطْفِ قد تَبَدَّتْ كماءٍ ضَمَّ في نَفْسِهِ مُذَابًا لِوَقْدِ!

(٤)

سوف أضْفُو على المُحَيا الجميلِ ما استطعتُ النَّعيمَ في قرْب نَهْرِ

حَيْثُ زَهْرٌ وخمرةٌ أحتسيها مِثْلَ عَهْدٍ مَضَى وعَهْدٍ سَيَجْرِي

(٥)

عــادتي أَشْــرَبُ السُّــلافَ فــأَلْهُو ثم دِيــني نِسْــيانُ كُفْــر ودِيــنِ

وخَطَبْــتُ الــدُّنيا العَــرُوس فقالــتْ «مـا صَـداقي إلَّا هَـوَى المفتـونِ!»

(٦)

طـابَ رَهْـني بالـدَّنِّ ثَـوْبَ صـلاحِي وتَيَمَّمْــتُ مِــنْ ثَــرَى الحــاناتِ

راجيًــا أنْ أَرَى لَــدَيْها ببــابٍ ضــائعًا في مَــدَارِسٍ مِــنْ حيــاتي!

(٧)

أنا لا أســتطيعُ عَيْشًــا بِعِــبْء هــو جِسْــمِي بغــير راحٍ تَشِــيعُ

مــا أَلَــذَّ الأوانَ إذْ يُقْبِــلُ السَّــا قــي بِكَـأْس أُخْـرَى فـلا أسـتطيعُ!

(٨)

إنَّمَــا الأصْــلَحُ السُّــرورُ بكــأْسٍ مِـنْ حُمَيَّـا، لا ذِكْـرُ مـا قـد يكـونْ

أوْ بمــا كــانَ، بــل نُحَــرِّرُ أروا حًـا مِـن العَقْـلِ في قُيـودِ السُّـجُونْ

(٩)

إنْ سكَبْتَ السُّلافَ فَوْقَ ثَرى الطَّوْ دِ تَبَــدَّى برَقْصِــه بَسَّــامَا

والــذي ذَمَّهــا حقــيرٌ، فهــل تَــدْ عُو إلى الثَّوْبِ وهي تُسْمِي الأنامَا؟!

(١٠)

مُنــذُ عَهْــدِ السَّــماءِ بالبَــدْرِ والزُّهـْ ــرَةِ لم نَلْــقَ مــا يَفــوقُ العُقَــارَا

عَجَـــبي مِمَّـــنْ يبيعونَهـــا! مـــا ذا سَيشْـــرُونَ مـــا يَـــرُدُّ الخَسَـــارَا؟!

(١١)

لا يَجـــوزُ الوُضُـــوءُ في الحـــانِ إلَّا بِسُـــلافٍ، ومـــا أُبالي بِسُـــمْعَهْ

اسْـــقِينَها فقـــد تَمَـــزَّقَ سَـــتْرٌ لعفـــافي، فلـــيس يَقْبَـــلُ رَقْعَـــهْ!

(١٢)

يا رفـاقي هَبُـوا مـن الخَمْـرِ قُـوتًا وأَحيلُـــوا وَجْهِـــي بهـــا ياقـــوتا

واغسِـلُوني بهـا مَـتَى مُـتُّ بِـرًّا ومِـــن الكَـــرْمِ هيِّئُـــوا التَّـــابُوتا!

(١٣)

اشْـــرَب الـــرَّاحَ! إنَّ منهـــا بَقَـــاءً سَـــرْمَدِيًّا، وصَـــفْو ذُخْـــرِ الشَّـــبابِ

هـو عَهْـدٌ لِلْـوَرْدِ والصَّـحْبِ في سُكْـ ـــرٍ، فَطِـبْ بالحيـاةِ وَقْـتَ الشَّـرابِ

(١٤)

في مَـدَى اليَـوْمِ وهـو عَهْـدُ شـبابي أَشْـــرَبُ الخَمْـــرَ ناهِـــلًا لَـــذَّاتي

لا تَعيبـوا المحمـودَ مـن طَعمِهـا المـُـ ـــرِّ فهـــذي مَـــرارةٌ مِـــنْ حيـــاتي

(١٥)

طالمـا كنـتُ صـاحيًا لـيس عِنـدي طَـرَبٌ، والشَّـرابُ نَقْـصٌ لِفِكْـري

غـــيرَ أني أَرَى التوسُّـــطَ حـــالًا بَـــيْنَ صَـــحْوٍ وسَـــكرةٍ أُنْـــسَ عُمْـــري

(١٦)

نالَ سَمْعــي في الحــانِ فَجْــرًا مُنــادٍ: «يا ظريفًـــا بنـــا المدلَّـــهَ أَمْسَـــى

قُــمْ وبادرْ لِلْكَــأْسِ مَــلْآى فَتَحْظَــى قبْــلَ مَــنْ يَصْـنَعُون طِينــكَ كَأْســا!»

(١٧)

لـــيس لي الفُلْـــكُ بالمطيـــع إذا لم أُسْـــقَ مِـــنْ راحـــةِ الحَبيـــبِ شـــرابي

قِيـلَ: «تُـبْ للإلـهِ! قـد حـانَ تَـوْبٌ!» قُلْـتُ: «لكــنْ لم يُــوحِ ربِّي مَتــابي!»

(١٨)

قَبْـــلَ أن تُمْسِـــيَ الهُمـــومُ فَنَـــاءً لـــكَ مُـــزْهُمْ أَنْ يُتْحِفـــوكَ بِخَمْـــرِ

أنْــتَ لَسْــتَ الإبريــزَ يا أيُّهــا الجــا هِــلُ حــتَّى تُعــادَ مِــنْ بَعْــدِ قَــبْرِ!

(١٩)

قيــلَ لي: «الطَّيبــانِ حُــورٌ وخُلْــدٌ» قلــتُ: «بــل طيــبُ ســائلِ العُنقــودِ

ذاكَ مـالٌ فخُذْهُ، واترك وعُودًا حيث أَشْـــهى الطُّبـــولِ صـــوتُ البعيـــدِ!»

(٢٠)

اغْـنَم الوقــتَ حيــث ســوفَ تُــوَلِّي لـــك رُوحٌ خلـــفَ الســـتارِ الإلهـــي

واشـــرب الخمْـــرَ حينمـــا لســـتَ تَـدْري لــكَ مَبْـدًا ولا مَـآلَ التنــاهي

(٢١)

إنْ تكــن حاذقًــا فنفسَــكَ حاسِــبْ عَــنْ مَـدَى مـا جَلبْـتَ أو مـا أَخَـذْتا

قلتَ: «لا أحْتسي فعقبايَ موتٌ!» سوف تمضِي شَرِبْتَ أم قد عَففْتَا!

(٢٢)

إن تكن مَنْ أَبَى مُعاقَرَة الخمـْـ ـرِ، فجانبْ طَعْنًا على شاربيها

وَفَّقَ اللهُ لي المتابَ، ولكنْ أنتَ جاوزتَ حَدَّ إثْمِ ذويها!

(٢٣)

أيُّها القَلْبُ لستَ كالأذكياءِ لِمُعَمَّى الألغاز تُدْرِكُ سِرًّا

فاجعل الأرضَ جَنَّةَ الخمرِ والكا سِ فلستَ الضَّمينَ مَيْلًا لأُخْرَى

(٢٤)

يا ابنَ دُنيا، ويا ابنَ سَبْعِ سماوا تٍ إلَامَ التَّفكُّرُ المُرُّ فيها؟

اشْرَبِ الخمرَ! كم نَصَحْتُكَ أن تعـْـ ـلَمَ أنْ لا مَعادَ سوفَ يَليها!

(٢٥)

ليتَ شِعْري! متى أَفُضُّ اكتئابي بسؤالي عن ائتناسِي وذُخْري؟

املأ الكأْسَ! إنَّني لستُ أَدري أتنالُ الحياةُ زفرةَ صَدْرِي!

(٢٦)

جاءَ في الحانِ ليلَ أمسِ حبيبي كجزاء لصِدْقِ عهدي وحُبِي

قال: «خُذْها واشربْ!» فقلتُ: «حرامٌ!» قال: «فاشربْ – عُدِيتَ – من أَجْلِ قلبي!»

(٢٧)

لا تُضِـعْ في المحَـالِ رأْسَـكَ واشْـربْ مُتْرَعــاتِ الكئــوس طــولَ الليــالي

عِـشْ برَغـدٍ مـع ابنـةِ الكَـرْمِ إنَّمـا فهــي خــيرٌ مــن أُمّهــا في حَــلَالِ!

(٢٨)

أتُقَضّــي الحيــاة كالعابــدِ النَّفــ ــسَ، وفي الفِكْــر في شَـئونِ الحيـاةِ

اشْــرَب الخمْــرَ فالحيــاةُ إلى المــو تِ فَدَعْها في السُّكرِ أو في السُّباتِ!

(٢٩)

يا رفــاقي! مــتى اجتمعــتم بِأُنــسِ فــاذكروا للصــديقِ قِسْــمَةَ أُنْسِــي

وإذا مــا حســرتم الخَمْــرَ حــتَّى نَــوْبَتي فــاقْبِلوا هُنالــكَ كَأسِــي!

(٣٠)

أَشْــرَبُ الخَمْــرَ في جَـدَارةِ حــاس لا يَــرَى أنَّــه علــى الشُّــرْبِ زلا

كــان ربِّي يَــدْري قــديمًا بحــالي فــإذا لم يكــنْ فقــد شَــامَ جَهْــلَا

(٣١)

أَشْــرَبُ الخمــر – لا أَمــدُّ يمِيــني لِسِـوَى الكـأسِ – في كرامـة حِسِّـي

أفتَــدْرِي لِمَــا عَبَــدْتُ سَــنَاهَا؟ ذاك كــيْلَا أَصــيرَ عابــدَ نفســي!

(٣٢)

إنْ أبَى النــاسُ لي السَّــلامَ فمــا لي غــيرُ حَـرْبٍ، وإنْ تَنَـلْ مِـنْ فَخَـارِي

هــا هــي الخمــرُ أرجوانيَّــة الكــأْ   سِ، وراسُ العفيــــفِ للأَحجــــارِ!

(٣٣)

نحــن أَتْقَــى منــكَ يا أيُّهــا المُفــْ   ـتِي وأَصحَى بـرغم سُكْرِ الشَّرَابِ!

شـاربٌ أنـت مِـنْ دَمِ النـاسِ، لكـنْ   مِــنْ دَمِ الكَــرْمِ شُــرْبُنا دُونَ عــاب

(٣٤)

عادت السُّحْبُ في بكاءٍ على العُشْ   ـــبِ، وفي الخَمْــرِ مــا يَــرُدُّ شَـجَانا

ذاكَ مَـرْأَى لنــا، فيــا ليـتَ شِـعْرِي   حينمـــا نفتديـــه مَـــنْ ذا يَـــرَانا؟!

(٣٥)

كُنْــتُ في حانَــةٍ سـأَلتُ عــن المــا   ضـينَ شـيخًا مُسـتغرقًا في الشـرابِ

قـال: «دَعْهُـمْ واشْـربْ! فكـم مـن   أُناسٍ مثلنـا قـد مَضَـوْا لغـيرِ مـآبِ!»

(٣٦)

هُــــمْ يقولـــون ثَمَّ جَنَّـــةُ حُـــورٍ   شَـــهْدُها كَـــوْثرٌ بِخَمْـــرٍ مَرِيئَـــه

عاطِنيهــا علــى ادِّكــارٍ، فكــاسٌ   هــي عِنْـدِي تفـوقُ ألـفَ نسِـيئَه [٢]

(٣٧)

إنَّ خَيْـرًا مـنْ جَنَّـةٍ ووُعـودٍ كـأسُ   خَمْـــرٍ في رَوْضَـــةٍ جَنْـــبَ ســـاقِ

فاجْتَنِبْ ذِكْرَها![٣] فَمَنْ ذا الذي جَا   ءَ مِـنَ الخُلْـدِ أو مَضَـى لاحـتراقِ؟!

(٣٨)

أَيهــذا الحبيــبُ خُــذْ لــك إبْرِيــ ــقًا وكأسًـا، وطُـفْ بـروضٍ ونَهْـرِ

فكثـيرًا مـا حَـوَّلَ الفُلْـكُ مِـنْ قـَ ــدٍّ جميـلٍ كأسًـا وإبريـقَ خَمْـرِ!

(٣٩)

بِــكَ أوْلَى نَبْــذُ المعــارفِ طُــرًّا فَتَمَثَّــلْ بِشَــعْرٍ حَسْــنَاء أُنْسَــكْ

وامْـلأْ الكـأسَ مِـنْ دِمَـاءِ الأباريـ ــقِ قُبَيْـلَ الزَّمَـان يُهْـرِقُ نَفْسَـكْ!

(٤٠)

مُنْــذُ مَيَّــزْتُ راحــتي عــن رحيلــي غَــلَّ لي الفُلْــكُ راحــتي فَشَــقِيتُ

لَهْـفَ نفسـي بـلا رحيـقٍ وحُـبٍّ حـين يُحْصَـى هـذا كَعُمْـرٍ حَيِيـتُ!

(٤١)

أَسْـعِد الـنَّفْسَ أيُّهـذا الحبيـب واشْـرَب الخمـرَ في ضـياءِ البَـدْرِ

ليس مِنْ ضامن غدًا، وكثيرًا سَوفَ يَبْـدُو،[٤] لكـنْ بنـا لـيس يَـدْرِي

(٤٢)

ذاكَ سَـيْرُ الحيـاةِ – قافلـةُ العُمـْ ـرِ – عجيـبٌ، فـاغنمْ حُبـورًا بأَرْضِ

يا نَـديمي! مـاذا تخـافُ مِـنَ البَعـْ ـثِ؟ ألَا هاتِهـا! فَـذَا الليْـلُ يَمْضِـي

(٤٣)

بَعَثَــتْ بالصَّــباحِ شمــسٌ وأَوْفَ مَلِــكٌ للنَّهــارِ في الجــامِ صَــبًّا

فاشرب الرَّاحَ! ذاكَ صوتُ المنادِي		داويًا، ناصـــحٌ إلى الـــدَّهْرِ شُـــرْبا

(٤٤)

حَرَّمُـــوا الخمــــرَ عـــاجلينَ لأنَّا		ســنُلاقى شــهْرَ الصــيامِ الــدَّاني

قلــتُ: «أمَّــا أنا فسُــكْرِي بشــعبا		نَ، فأصحُوا في العيـدِ، لا رَمضـانِ!»

(٤٥)

خُذْ نصيبًا مِنْ مُتْعةِ الدهرِ واطرَبْ		بحُمَيَّـــا في الكَـــأْسِ بـــين يَـــدَيْكا

غَــنِيَ اللهُ عـــن خُضـــوعٍ وذَنْـــبٍ		أَفَتَنْسَـــى إذَنْ نعيمًـــا لَـــدَيْكا؟!

القسم الثاني: في «الكوز»

(٤٦)

قُــمْ إلينــا: تَعَــالَ! واصْــدَعْ بِحُسْــنٍ		لــكَ مــا نَشْــتَكِي مِــن المُشــكِلاتِ

أعْطِـني الكُـوزَ مِـنْ سُـلَافٍ فـأُرْوَى		قبلمـــا يَصْـــنَعُونَهُ[٥] مِـــنْ رُفَـــاتِي!

(٤٧)

ذلــك الكُــوزُ أكــان مِثْلِــي مُضْــنًى		عاشقًا فَرْعَ غادةٍ حسناءِ

حينمــا العُــرْوَة[٦] الــتي هــيَ فيــهِ		يَدُهُ فَوْقَ هذهِ الجَيْدَاءِ!

(٤٨)

هُـــوَ جَـــامٌ أَحَبَّـــهُ العَقْـــلُ حَـــتى		لَـــثَمَ الـــرأسَ مِنْـــهُ مائـــةَ مَـــرَّهْ

بعـدَ هـذا الاتْقـانِ يَرْمِـي بـه الكَـوَّا		زُ على الأرْضِ حيثُ يُحْدِثُ كَسْرَهْ!

(٤٩)

كُنْتُ بالأمْسِ عند مَصْنَعِ كَوَّا   زٍ وقد لُحْنَ في جُمُوعٍ كِثَار

ولِكُلٍّ سؤالُ صَمْتٍ ونُطْقٍ:   «أينَ ربِّي، وبائعي، والشَّاري!؟»

القسم الثالث: في «التذمر»

(٥٠)

أيها الفلكُ إنما البؤسُ آثا   رٌ لحقدٍ مؤَصَّلٍ مثلِ غدرِكْ

حينما أنتِ أيها الأرضُ تحويـ   ـنَ – إذا ما فُتحتِ – كنزًا بصدركْ

(٥١)

علم اللهُ عندما جعل الطينـ   ـة خلقًا ما سوف يصدر منَّا

ما ذنوبي إذن بغير رضاه!   فلماذا أُسَامُ حَرْقًا وغبنا؟

(٥٢)

كم دماءٍ قد أهرقَ الدهرُ   عسفًا وأزاهيرَ بُعثرتْ بعدَ نَشْرِ

لا يغرَّنكَ الصِّبا وجمالٌ   كم براعيمَ قبلَ نشرٍ لِنَثْرِ

(٥٣)

حينما ركَّبَ الإلهُ الطِّباعَا   كيف لم يَجْعَل الكمالَ مَدَاهَا؟

إنْ يكن خصَّها به فلماذا   هَدَّها؟ أوْ هَوَتْ، فمن ذا بَوَاهَا؟

(٥٤)

جئـتُ في مَبْـدَئي رفيـقَ اضـطرابٍ وحيـــاتي زادتْ كـــذاك احتيـــاري

قـــد ذهبنـــا كـــالمكرَهين ولا نَـــدْ رِي معـــــاني المجـــــيءِ والإِدبار!

(٥٥)

أسَـفًا! قــد مَضَــتْ ذخـيرةُ مــالٍ بيـــدِ المـــوتِ مُـــدْمِي الأكْبَـــادِ

لم يَعُـدْ راحــلٌ مـن الخُلْـدِ كـي يَخـ ـــبرَ عَمَّـــنْ مَضَــوْا لغـــيرِ مَعَـــادِ!

(٥٦)

قـد ذَهَبْنَـا والـدهرُ يَعجـبُ، لكـنْ مـــا ثَقَبْنَـــا مـــن مائـــةٍ غـــيرَ دُرَّهْ

فتبقَّــى مــن الــدِّقاقِ المَعَــاني كــلُّ ألــفٍ تَخْشَــى لَــدَى الحمْــقِ ذِكْــرَهْ

(٥٧)

لم يَـزِدْ نَفْـعُ ذلـك الفُلْـكِ مِـنْ عَيـْ ـشِي، ولا ازداد جاهُـه مِـنْ ذَهَـابي

حـــين أُذنايَ لم تَنـــالَا جـــوابًا مُعْلِنًـــا ســـرَّ مَقْـــدَمِي وإيابي

(٥٨)

ليـتَ شِـعري إلامَ أَعـرضُ جَهْلـي؟ ضـاقَ قلـبي مِـنْ كـلِّ هـذا السَّـقامِ

ليتـــني كـــالمجوسِ صـــاحبُ زُنَّا رٍ فمِلْئـــي الحَيَـــاةُ مـــن إســـلامي

(٥٩)

بـين سُـكْرٍ مـن خَمْـرَةٍ للْمَجُـوسِ واتِّهـــامٍ بالكُفْـــرِ والوَثَنِيَّـــةْ

كثــرتْ حــولي الظنــونُ، ولكــنْ أنا حُــرٌّ ومِلْــكُ نَفْسِــي الأبيَّــهْ

(٦٠)

لــو حكمــتُ الأفــلاكَ في قُــوَّةِ اللهِ لَهَــدَّمْتُها، وأنشــأتُ أُخْــرَى

كــي ينـال الإنسـانُ فيهـا الـذي را مَ قريــرًا ومــا تمنَّــاهُ دَهْــرًا

(٦١)

لـن ينـال الإنسـانُ في هـذه الدُّنــ ــيا سِـوَى الهَـمِّ والعـذابِ وُجُـودَا

فهنيئًــا لمــن يُعجِّــلُ عنهــا في رحيــلٍ أم لم يَجِــئ مَوْلُــودَا

(٦٢)

مِثْـلَ خَـدِّ الحسْـنَاءِ أشـرقتَ يا ور دُ، ويا خمــرُ طبــتِ لي ياقــوتا

حينمـا أنـتَ أيُّهـا الحـظُّ لي خَصـْ ـمٌ وإنْ تَــدَّعِ الوَفــا مَقُــوتا

(٦٣)

أيُّهـا الفُلْـكُ لسـتُ مـن دَوَرَاتِـكْ مُنعمًا، فـانطلقْ – ودعْني – لحِالِـكْ

لسـتُ أهـلًا للقيـدِ، لكـن إذا كنــ ـتَ تُحِـبُّ الحَمْقَـى فحـالِي كـذلِكْ

(٦٤)

علــمَ اللهُ لســت بالفلســفيّ ذاك زَعْـمٌ لِلْخَصْـمِ غـيرُ مُـوَاتِ

هــل كثــيرٌ إذا وُجِــدْتُ بــدنيا مِحْنَــةٍ فاجتهــدتُ أعــرفُ ذاتي؟

(٦٥)

رغمَ ما لي من حُسْنِ لَوْنٍ وعَرْف　　مُسْتَطَابٍ ومن مُحيَّا «الشَّقِيقِ»

وقوامٍ كالسَّرْوِ، ما زلتُ لا أَدْ　　ري مَرَامَ النقَّاشِ من تَزويقي!

(٦٦)

ليتَ مَثْوًى لنا نَرَى عنده الرا　　حةَ أو غايةَ الطريقِ البعيدِ

ليتنا نأملُ المَعادَ كعُشْبٍ　　نابتٍ بعد ألفِ قرنٍ جديدِ!

(٦٧)

إنَّ هذي الأفلاكَ في وضعِنَا تُعْـ　　ـطِي لنا الهَمَّ بعدَ نَهْبٍ جرىءْ

ولوَ انَّ الذينَ لم يَقْدُموا بَعْـ　　ـدُ دَرَوْا بُؤْسَنَا لعافوا المجيء

(٦٨)

هَمَسَ الوردُ: «ليس وجهٌ كوجهي　　في جمالٍ فاستقطرُوه بِظلْمِي»

فأجابَ الهَزارُ: «مَنْ ذا الذي فا　　تَ بكاءَ الشهورِ من ضَحْكِ يَوْمٍ؟»

(٦٩)

لهفي! قد طوى مَهاد الشَّبابِ　　وربيعُ السُّرورِ أَمْسَى شِتاءَ

لستُ أدري متى مَضَى ذلك الطا　　ئرُ – طيرُ الشبابِ – أو حِينَ جاءَ؟!

(٧٠)

انْظُر القصرَ – حيث (جمشيدُ) بالأمـ　　ـسِ قريرٌ بكأسه – صار قَفْرَا

بل مآلُ الوحوشِ، وانظرْ «لِبَهْرَا مَ» الـذي صـادَهَا فقـد صِـيدَ قَبْـرَا!

(٧١)

مـا أصـابَ الإنسـانُ في هـذه الدنـ ـــيا ذاتِ البــابيْن إلا المُصـــابا

فهنيئًـا لمـن قَضَـى – لم يَعِـشْ سـا عَـة عُمْـرٍ، أو لم تَلِـدهْ – فغـابا

(٧٢)

قـــد أتينـــا إلى الوجـــودِ أخــيرًا وانْحَطَطْنـــا عـــن رُتبـــةِ الإنســـانِ

قـــد سَـــئِمْنا عُمْـــرًا بغـــيرِ هـــوانا ليتَـــه يَنْقَضِـــي بغـــيرِ تـــوانِ

(٧٣)

أيُّ نفــعٍ مــن المجــيءِ وَعَــوْدٍ؟ مــا سُــدَى خَــيْط عُمْــرِنا في الزَّمــانِ؟

كــم تَلَظَّــتْ بــلا دُخــانٍ عزيــزا تُ رءوسٍ، وَأَرْجُــــلٍ للحِسَــــانِ!

(٧٤)

أيُّهــا الفُلْــكُ أنــتَ في كُــلِّ وقْــتٍ هاتــــكٌ لِلسُّــــرورِ بي جِلبــــابا

كــم جَعَلْــتَ النَّســيمَ نارًا لقلــبي وجعلــتَ النمــيرَ عِنْــدِي تُــرابا!

القسم الرابع: في «**العظمة والأخلاق**»

(٧٥)

كــان قبلــي وقبلــك الليــلُ والنــو رُ ولِلْفُلــكِ كــان في الجــري مَرْمَــى

خفِّــف الــوطءَ! إنَّ مــا أنــتَ تمشــي فوقَــه كــان عــينَ حســناء قِــدْمَا!

(٧٦)

تــركتْني أيامُ عمــري القِصــارُ مثــلَ ... مــــاءِ الـــوادي وريــــحِ الفَـــلاةِ

لســت أُعْــنَى باثنــيْن يــوم تَقَضَّــى ... وأخــــوه الـــذي قريبًـــا سَـــيَاتِي

(٧٧)

الغريـــبُ الـــوفيُّ عنـــدي قريـــبٌ ... والقريــبُ النَّفــورُ عنــديَ خَصْــمِي

وإذا السُّــــمُّ راقــــني كــــان دِريا ... قًــا، وكــان الــدرياقُ في الكُــرْهِ سُمِّــي!

(٧٨)

إنمــا الحســـنُ أن تُعامِـــلَ بالحُســـْ ... ـــنَى ســـــواءً مُجَانِبًـــا ورَفِيقـــا

إنْ خــذلتَ الصــديقَ صــار عَــدُوًّا أو ... خَـــدَمْتَ العَـــدُوَّ صـــار صَـــدِيقا

(٧٩)

أيهــا القلــبُ هــبْ جميــعَ مُــنَى الدُّنــْ ... ــيا توالَـــتْ لـــديكَ في أفـــراحِ

أنــت كالطــلِّ فــوقَ عُشْــبٍ نضــيرٍ ... فــارقَ العُشْــبَ في انــبلاجِ الصَّــبَاحِ

(٨٠)

لا تَسَــلْ عــن شــئون عهــدٍ ســيأتي ... لا، ولا عـــن مُصـــابِه فهـــو فـــانِ

فــاغنم الســاعةَ الــتي أنــتَ فيهــا ... واتـــرك الفكـــرَ في بعيـــدٍ ودانِ

(٨١)

فــوقَ بُسْــطِ الثُّــوابِ أبْصِــرُ أقــوا ... مًـــا رُقـــودًا وتحتَـــه مُخْتَفِينـــا

وأرَى – كلَّمـــا تأمَّلْـــتُ صـــحرا ءَ الغنـــاءِ – الغـــادينَ والرَّائحينـــا

(٨٢)

لا تَضَــع في الفــؤادِ أحــزانَ دُنيــا لــزوالٍ، وطِــبْ بصــفوٍ لــدَيْكا

إنْ يكـــن طبعُهـــا الوفـــاءَ لَمـــا با نــتْ عــن الآخــرينَ نقــلًا إليكــا

(٨٣)

أَفَلَسْـتَ الخَجُـولَ مـن ذلـك الطَّيـْ ـشِ ومِـنْ نَبْـذِ كُـلِّ أمـرٍ لخَـيْرِكْ

هَـبْ ملكـتَ الـدنيا العريضـةَ جَمْعًـا هـل مـآلٌ سـوى افـتراقٍ كغـيرِكْ؟!

(٨٤)

هَـبْ جميعَ الـدنيا جَـرَتْ مثلمـا تَهْـ ـوَى، فمـا بعدُ؟ ثم مـا بَعْدَ عُمْرِكْ؟

هَـبْ حيـاةً تَعيشُـها طُـولَ قـرنٍ في نعـيمٍ، فمـا الـذي بَعْـدَ يُسْـرِكْ؟

(٨٥)

كُـلُّ مـا ظُـنَّ ذَرَّةً مِـنْ تُـرابٍ كـان جُـــزْءًا مـــن وجـــهِ حســـناءَ رُودِ

فَبِرِفْـــقٍ إذَنْ أَزِلْ مـــا تَـــرَاهُ مِـــنْ غُبـــار بوجـــهِ حُسْـــنٍ جديـــدِ!

(٨٦)

انظـر الـوردَ مَزَّقَـتْ ذيلَـه الرِّيــ ـحُ وغَـنَّى الهَـزَار صَـفْوًا بِحُسْـنِهْ

وبظـــلٍّ لـــه تَمَتَّـــعْ فكـــم فـــا رقَ هـــذا الثـــرَى وعـــادَ لِدَفْنِـــهْ!

(٨٧)

القُـــدَامَى والمُحْـــدَثونَ ســـواءٌ   كـــلُّ آتٍ لــــه بـــدور ذَهـــابُ

لـن تَـدُومَ الـدُّنيا لِفَـرْدٍ، فكـم جـا   ءُوا وغـابوا، وبَعْـدُ جـاءوا وغـابُوا!

(٨٨)

كـم إلى العطْـرِ أنْـتَ تصـبو وللـوْ   نِ، وخلـفَ القبـيحِ والحُسْـنِ تَعْـدُو!

ســـوف تَمْضِـــي في باطـــنِ الأرضِ   حـــتى إن تكـــنْ للحيـــاةِ مـــاءً يُـــوَدُّ

(٨٩)

يا فـــؤادي قــــد غَمَّــــكَ الـــدهرُ   بينا هـذه الرُّوحُ سوفَ تَمْضِي لِرَبِّكْ

فارقـــا العُشْـــبَ ناعمًـــا بعـــضَ أيا   م عليــه مِــنْ قَبْــلِ نَبْــتٍ بِتوْبــكْ!

(٩٠)

قـــــد يُسَـــــاوِي محقِّـــــقٌ بـــــين   حُسْـــنٍ وسِـــواهُ وبـــين خُلْـــدٍ ونارِ

مِثْــلَ مَيْــتٍ سَــاوَى ثمينًــا بِــبَخْسٍ   ومُحِـــبٍّ غـــافٍ علـــى الأحجـــارِ!

(٩١)

لا تَضُـــرَّنَّ مـــا اســـتطعتَ بإنســـا   نٍ، ولا تُجْلِـــس امـــرءًا فـــوقَ نارِكْ

وإذا شـــئتَ دائـــمَ السَّـــلْمِ فَلْتَقــْ   ـــبَلْ أَذَى النـــاسِ لا أذاةً لجـــارِكْ

(٩٢)

لـيس فيمـا أَحْـرَزْتَ شـيءٌ، ولا نَقـْ   ـــصٌ ولا صَـــدْعَ في مَـــدَى المفقـــودِ

لــكَ أن تَفْــرِضَ الوجــودَ فنــاءً وكـــذاكَ المعـــدومُ كـــالموجودِ

(٩٣)

أو تَــدري لمــا يَنــوحُ لــك الديــ ــك دءوبًا في فجــرِ كــلِّ صــباحِ؟

هــو يُنْبِيــك أنَّ ليلــةَ عمــر لــك ولَّــتْ ولســتَ في وَعْــيِ صــاحي

(٩٤)

كــان قــبلًا دمًــا لأهــلِ عُــرُوشِ نَثْـرُ هـذا «الشـقيقِ» في الصَّـحْرَاءِ

وكــذا تتقــي «بنفســجةُ» الــرَّوْ ضِ لخـــالٍ في وجنـــةِ الحَسْـــنَاءِ

(٩٥)

كــنْ حِمــارًا مــعَ الــذين لجهــلٍ يـــدَّعون انفِـــرَادَهُمْ بالعلـــومِ

كــلُّ مَــنْ لم يكــنْ حِمــارًا عظيمًــا مِـــثْلَهم حمَّلـــوه كُفْـــرَ الأثـــيمِ!

(٩٦)

قَسَّـــمَ الـــرزقَ عـــادلًا خـــالقُ النـــــا س إلى ذرَّةٍ بِدَقَّـــــةِ وَازِنْ

فاسْــتَرِحْ مــن جميــع مــا هــو فَــانٍ وتحــرَّرْ مــن كــلِّ مــا هــو كــائنْ!

(٩٧)

بعـــد مـــوتٍ يَبْنُـــون آجُـــرَّتَيْنِ كانَتَـــا مِثْلَنَـــا لِقَـــبْرِي وقَـــبْرِكْ

ثم يَغْـــــدُو ترَابُنـــــا آجـــــرًا آ خــرَ يُبْــنَى لقــبرِ غــيرِي وغــيرِكْ!

القسم الخامس: في «الحكمة والشك»

(٩٨)

لا تَقُــلْ في السَّــماءِ أصْــلٌ لخــيْر ولِشَــرٍّ، وأَصْــلُ بِشَــرٍّ وحَسْــرَهْ

إنَّ هــذا القضــاءَ أعجــزُ حَقًّــا مِــن قُصُــورٍ خَبرتَــهُ ألــفَ مَــرَّهْ!

(٩٩)

لــو دَرَى المــرءُ سِــرَّ هــذي الحيــاةِ لغــدا عارفًــا بمــا بَعْــدَ فَــوْتِ

فــإذا كنــتَ رَغْــمَ صُــحْبَتِكَ النَّفــْـس جَهُــولًا بهــا فكيــفَ بِمَــوْتِ؟!

(١٠٠)

هـــؤلاء الـــذين عُـــدُّوا بعرفـــا نٍ مَصــابيحَ لِلهُــدَى قــد هَــامُوا

ما استطاعوا الخُرُوجَ مِنْ بُهْمَةِ الليْــلِ فَفَضُّــوا حــديثَهم ثُمَّ نَامُــوا!

(١٠١)

إنَّمــا العَقْــلُ صــاحبُ الرُّشْــدِ لِلْخَيــْـرِ يُنــادي في اليــومِ مائــةَ مــرَّهْ

فاغنم الوقْتَ، ليس مِثْلُكَ كالسكُوْ راتِ ينمــو بــرغمِ حصــد لِنَفْــرَهْ

(١٠٢)

كــم تمــادَوْا لِعْبًــا بهــذا الــتُّرابِ وأخــيرًا قــد أَنجــزوا تَصْــوِيرِي

أنا لــن أســتحيلَ أفضــلَ مِــنِّي حيــث أُفْرِغْــتُ هكــذا مِــنْ كُــورِي!

(١٠٣)

بــين ديــنٍ ومَــذْهَب فِكْــرُ قَــوْمٍ حينمــا غَيْــرُهمْ حَيَــارَى فَضَــلُّوا

وإذا صــائحٌ تَجلَّـى يُنــادِي يا حيــارَى! كِــلا الطَّــرِيقَينِ جُهــلُ!

(١٠٤)

أنــتَ مِثْلـي في الجهـل بالأزلِ المَخـْ ــفيِّ عــنِّي وعنــكَ ســرًّا ولُغْــزا

مـا قـرأناه، بلـى ولـو رُفِـعَ السَّتـْ ــر لَغِبْنـا ولم نُصِـبْ منـه مَغْـزَى

(١٠٥)

نحــنُ مَــنْ نَشْــتَرِي كِـلا الخَمـرَتيْنِ وبِــبَعْضِ الشَّــعِيرِ بِعنــا الخُلُــودْ!

عـن ذَهـابي مِـنْ بَعْـدِ مَـوْتِي سَـأَلتَ هـاتِ لي الخَمْـرَ وامْـضِ حيث تُرِيـدْ!

(١٠٦)

لا ابتــداءٌ ولا انتهــاءٌ لِــذِي الــدا ئــرة الكُبْــرَى جَيئنــا والــذَّهَابْ

مـا أصـابتْ أُذنايَ مـن أحـدٍ ذِكـْ ــرًا لِمَبْــدًا لنــا ولا لــلإِيابْ

(١٠٧)

مـا عَرَفْنـا مَبْـدًا لِـدَوْرَةِ هـذا الــ ــكَوْنِ بالعقـلِ وهـو عَـوْن القيَـاسْ

لا ولا غايــة الخَــرَابِ المُــوافِي لِبنَــاءٍ لــه متــينِ الأســاسْ

(١٠٨)

إنَّ تلـكَ النُّجـومَ مَـنْ زانـت الفلـ ــك مـرارًا أتَـتْ وراحَـتْ وباءَتْ

وبِـذَيْلِ السَّـماءِ في جَيْـبِ ذي الأَرْ   ضِ شـعوبٌ كـذاكَ ماتَـتْ وجـاءتْ!

(١٠٩)

إنَّ مــــن أحســـنوا الـــتَّفَهُّمَ   قـالوا في جَـلالِ الإلـهِ قـولًا كثـيرَا

مـــا دَرَى واحـــدٌ حقيقـــةَ سِـــرٍّ   لَغَطُـــوا أوَّلًا وأغفــــوْا أخـــيرا!

(١١٠)

هـــم يقولـــون ثَمَّ جَنَّـــة خَمْـــرٍ   وشـــهادٍ ودار حُـــورٍ عَجيبَـــهْ

فَـــدَعُونا إذَنْ لِنعْبُـــد جَهْـــرًا   دُونَ لَـــوْمٍ خَمْـــرًا لنـــا وحَبيبَـــهْ

(١١١)

قَـــدْ دَعَـــا لِلْقـــرارِ ممـــا سَـــبَانِي   يَزْجُـــرُ الـــنفسَ حينمـــا يَغْوِيهـــا

كـان مِثْلَ الـذي يقـول: اقلب الكأ   سَ وحـاذرْ سَـكْبَ الـذي هـو فِيهـا!

(١١٢)

كُنْـتَ عـن ذلـكَ المجـازِ بِـنَقْشٍ   تَسْـأَلُ الشَّـرْحَ حـين ذاكَ يطـولُ

إنمـــا كـــان مِثـــلَ فُقَّاعَـــةٍ تَبـــْ   ـــدُو بوجـــهِ لِلْبَحْـــرِ ثمَّ تَحُـــولُ!

القسم السادس: في «العشق»

(١١٣)

هـــو عُنـــوانُ دَفْـــتَرٍ للمعـــاني   لشـــبابٍ وبيـــتُ شِـــعْرٍ حَكـــاه

أيُّهـا الجاهـلُ الـذي مـا دَرَى العِشـْ   ـقَ تعلَّـمْ فمـا الحيـاةُ سِـوَاهُ!

(١١٤)

في مَشِيِي قد صادَني عِشْقُكَ السا ... حرُ حَتَّى أخذتُ كأسَ المُدَامِ!

يا حبيبي سَلبتَ توبةَ عقلي ... مثلَ صَبْوٍ أَبْلَتْ يدُ الأيَّامِ

(١١٥)

خَبَرٌ إن سَمَحْتَ قلتُ، وإنِّي ... أُوجِزُ القولَ عنه في لَفْظَتَيْنِ

سوف أمضي إلى الترابِ وعِشْقِي ... وإذا ما بُعِثْتَ عادَ وكَوْني!

القسم السابع: «**فيما خاطب به الله**»

(١١٦)

أنا دومًا والنفسُ في حربِ آلا ... مي وحزني الدفين من أعمالي

هَبْك كُنْتَ الكريمَ عَفْوًا، ... فَهَمِّي بجيائي مما رأيتَ حيالي

(١١٧)

قلت لا بُدَّ من عذابكَ! لكنْ ... لم تَزِدْ خَشيتي ولا تَنْبِيهي

ما مكانٌ حَلَلْتَ فيه عذابٌ ... ثم أين المكانُ لم تَحْيَ فيهِ؟!

(١١٨)

أنا ذاك العبْدُ العَصِيُّ فأين الصـ ... ـفْحُ؟ قلبي الدَّاجي فأين الضِّياءُ؟

إنْ تَهَبْنا بالطَّاعةِ الخُلْدَ كالبيـ ... ـعِ فأين النَّدَى وأينَ العطاءُ؟

(١١٩)

أَنــتَ كــوَّنْتَني مــن المــاءِ والطِّيــ ـــنِ كما قـد غَزَلْـتَ صُـوفَةَ عَقْلِـي

وكتبــتَ الــذي علينــا مــن الحَــظ فمـــاذا يكـــون تأثـــيرُ فِعْلِـــي؟

(١٢٠)

أيـن ذاكَ الـذي تُـرَى عـاشَ مَعْصو مًـا مـن الـذنب لا يُـدنِّسُ كونَـكْ؟

إنْ تكـن مـن يُكـافئُ السُّـوءَ بالسو ءِ فمـا الفـرقُ ثَمَّ بَيْـنِي وبَيْنَـكْ؟!

(١٢١)

كـم وَضَـعْتَ الأشْوَاكَ مِـلْءَ طريقـي ثم أعلنـــتَ في مَســـيرِي هلاكـــي

أنــتَ مــلءُ الوجــودِ ذو جــبروتٍ قـــاهرٍ ثم تَـــدَّعي إشـــراكي

(١٢٢)

إنَّ إثباتَـــكَ المُحَـــال لِعَقْلِـــي فالمُناجـــاةُ مُنْتَهَـــى إثباتِـــكْ

لســتُ أدري مـا كُنْـهُ ذاتِـكَ حَقًّـا لــيس إِلَّاكَ عــارفٌ كُنْـه ذاتِـكْ

(١٢٣)

إنْ أكــن ذلــك المُقَصِّـرَ في الطَّـا عَــةِ والوَجْــهِ في غُبــارِ التَّــدَنِّي

فــأنا مِــنْ نَــداكَ لســتُ بيــأسٍ حينمــا الفَــرْدُ لم أَصِــفْه اثنــيْنِ

(١٢٤)

ذاكَ صَــدْرِي فارحَمْــهُ مــن أَلَمٍ فــا ضَ، وقلـبي الموثـوقَ هَمًّـا بنفسـي

ثم رِجْلــي الــتي تَمَشَّــتْ إلى الحــا نِ، وأيضًــا يــدًا تغالــتْ بكــأسِ

(١٢٥)

لاجـــتلاءِ الـــذي وراءَ السِّـــتارِ		كم نُفوسٍ ذابتْ وكم من قُلوبِ!

إيــه يا مَــنْ يَطِـيشُ عقلـي لديــه		أنــتَ في الكَــوْنِ ثمَّ شِـبْهُ جَنِيــبِ

(١٢٦)

أنا ذاك الـــذي ظَهَـــرْتُ اقتـــدارًا		مِنــكَ حَقًّــا وفي نَعيمِــكَ دُلِّلــتْ

سَـوْفَ أَقْضِـي قـرنًا بـذنبي وأغلُـو		لِأَرَى مــا الأَجَــلُّ ذَنْـبِي أم أَنْــتْ!

القسم الثامن: في «مطالبَ شتى»

(١٢٧)

لا تظــنن أنَّــني مَــنْ يَخـافُ النــ		ــاسَ أو قســوةَ المنيــةِ أَخْشَــى

لستُ أخشى حقيقةَ الموتِ، لكنْ		أنا أخشــى أني أَســأْتُ العَيْشَــا

(١٢٨)

«أنـتِ دَوْمًـا سَـكْرَى وفي كُـلِّ آنٍ		لـكِ خِـلٌّ» – أهـابَ شَـيخٌ بِمُـومِسْ

فأجابـت: «حقًّـا كمـا قُلْـتَ حـالي		كيف حالٌ لديكَ للنَّاسِ والنَّفْسْ؟»

(١٢٩)

إنَّ هـذي السـماءَ كالطاسِ في العَكْـ		ــسِ فَيَلْقَــى المَذَلَّــةَ الأذكيــاء

انظــروا الــودَّ بــين كــأسٍ وإبريــ		ــقٍ فبــينَ الشــفاهِ تجـري الـدِّماء

(١٣٠)

خَبَــرٌ مــنْ حياتِنــا ذلــكَ الفُلــْـكُ، و(جَيحـونُ) مِـنْ نَـدِيِّ العُيـونِ

وشَــرارٌ مــن جُهْــدِنا تِلْكُــم النَّــارُ وما الخُلْـدُ غـيرُ بعـضِ السـكونِ!

الهوامش

(١) يريد بالفلك: الدهر.

(٢) النسيئة: عكس النقد: أي الدفع المؤخر.

(٣) أي الوعود والجنة.

(٤) أي البدر.

(٥) أي الكوز.

(٦) الإبريق مقبضه: أي أذنه.

رابندرانات تاجور[1]

ما استمتعت مرة بقراءة «خطبة الجبل» للسيد المسيح عليه السلام، وهي في رأيي لب تعاليمه النورانية؛ إلا تخيلت صورة جميلة لطلعته، وصوته، ونفسيته الحلوة؛ وكأني سعدت برؤيتها عيانًا سنة ألف وتسعمائة وست وعشرين، حينما كلفت رسميًّا بصحبة الشاعر العالمي «رابندرانات تاجور» في أثناء زيارته بمدينة «بورسعيد»، التي اجتذبت إليها من قبل شعراء مهتدين، على رأسهم شاعر النيل «مُحَمَّد حافظ إبراهيم»، فإن نفسيته الحلوة وصوته الحنون، ووجهه المشرق، انطبعت في ذهني وفي قلبي انطباعًا قويًّا حبيبًا، لا يمكنني أن أنساه ما حييت، وقد نشرت مجلة «الزهراء» منذ ربع قرن آثار ذلك الانطباع، كما نُشِرَتْ في الجزء الأول من كتابي «مسرح الأدب».

ومنذ عشر سنوات انطفأ ذلك الكوكب الوهاج، بعد أن ملأت أشعته الكون وطافت وما تزال تطوف بأرجائه، فهي غير مشهودة في شخصه، ولكنها محسوسة في جميع آثاره القائمة على الحب والسلام والجمال.

والآن حينما تتحدى القوة الغاشمة حرية الناس باسم الحرية ذاتها، وحينما يتشح الذئب بثوب الحمل، لا تجوز أن تفوتنا ذكرى ذلك الإنسان العظيم، الذي قال: «حيثما كان الذهن عديم الخوف، والرأس مرفوعًا، والمعرفة عامة، وحيثما كانت الكلمات تأتي من عمق الحقيقة ... ففي هذه السماء دع بلادي تستيقظ!» والذي قال أيضًا: «إن التحرر من قيود الهجوع هو الحرية التي أطلبها لك يا وطني؛ التحرر من فوضى القدر، الذي تخضع أشرعته عاجزة لأجنحة عمياء ... التحرر من رحمة الإقامة في عالم للدمى ... فحيثما كان الذهن حرًّا، والرأس مرتفعًا في سماء الحرية، دع بلادي تستيقظ!»

وكما كان «بوذان» «والمسيح» «ومُحَمَّد» بين الأنبياء والرسل، ماهدين للإخاء البشري؛ جاء «تاجور»؛ كما جاء «غاندي» «وولز» برسالة قرينة لروح أولئك الأنبياء والرسل الكرام!

إن مثل «تاجور» لم يكن رجل «البنغال»، أو رجل «الهند» فحسب؛ بل رجل البشرية عامة، وما مدرسته التي أسسها منذ نصف قرن، حينما كان في الأربعين من عمره، في أحضان الطبيعة، والتي تحولت إلى جامعة في سنة ١٩٢١م، وبادرت حكومة «الهند» المستقلة إلى الحفاوة بها – شأن كل حكومة تحترم نفسها نحو نوابغها وآثارهم؛ وما هذه المدرسة – كما دل اسمها الأول عند تأسيسها – إلا هيكلًا للسلام وحب الطبيعة والجمال والتآخي الإنساني، وقد رمي من ورائها إلى ثلاثة أهداف:

أولها: محاولة التوحيد بين الثقافات الشرقية.

وثانيها: درس الثقافات الغربية، وعلى الأخص ما كان منها ذا صلةٍ بالثقافات الشرقية.

وثالثها: تحقيق الانسجام العلمي والثقافي بين الشرق والغرب، والعمل على خلق الوحدة الفكرية الروحية بين الناس. فهي بصورتها هذه أرقى من «الأكاديمية» التي أنشأها «أفلاطون» في حديقة «أكاديموس»، ومن «مدرسة المشائين» التي أنشأها «أرسطو».

كان «تاجور» المتصوف المؤمن بوحدة الوجود يؤمن ضمنًا بوحدة البشرية، وقد أجاد نقل مبادئه ورسالته الروحانية إلى اللغة الإنجليزية نثرًا ونظمًا، مستمدًّا من أجمل ما أوحت به البرهمية، وشاعريته الصوفية ونزعته القصصية الفائقة التي لا تهمل شيئًا من صور الحياة مهما تكن ساذجة، ووطنيته النقية المنسجمة مع إيمانه بالتعاون العالمي الكامل.

وما تزال مدرسته التي دشنت في سنة ألف وتسعمائة وواحد، باسم «مهبط الأمان»، كعبة يحج إليها عشاق هذا الشاعر المتصوف الفيلسوف في قرية «بلبور»، فيستوحون منها كما يستوحون من مؤلفاته العديدة كل معاني الجمال والسلام والرفق والإخاء، وهي القيم الوحيدة الباقية لنا من هذا الوجود وتجاريبه.

وإن ننس لا نَنْسَ اهتمام «تاجور» بالعرب وآدابهم وبالثقافة الإسلامية، وكيف عُنِي بالدعوة إلى إنشاء كرسيٍّ لها في جامعته، فلم يجد مجيبًا من بين أغنيائنا. ولا ننس أنه كشاعرٍ تمنى حياة أقوى للشعر العربي المعاصر، حيثما اطلع على مترجمات شهيرة منه. ولئن جاملَ بتلبية زيارات، فصراحته في مذهبه الفني، لم تكن تعرف المجاملة إطلاقًا، وكذلك تقديره للحرية الإنسانية، وأظهرُ تقديرِه للشعراء الشيوخ العرب اتجه إلى «خليل مطران»، بعد أن وقف على مترجمات من شعره الرومانطيقي الإنساني، التي زخر بها الجزء الأول من ديوان «الخليل»، وهو وحده الذي كان مطبوعًا في ذلك الحين، ولئن رحل «تاجور» الآدمي عنا، فما تزال جامعته الحرة الإنسانية التعاليم قائمة، وما تزال ترحب بكل ما يستطاع إهداؤه إليها من آثار الأدب العربي قديمه وحديثه، وبتدريس الأدب العربي فيها.

ولئن شُغِفَ «تاجور» بالشعر الوجداني الغنائي، وكان أحب أعلامه لديه «شيللي» «وكنتيس» في الإنجليزية، فإن أجمل ما نضح قلمه في آثاره العديدة، هو روحه الإنسانية الفذة، وقد سمعته يقول:

إننا في الواقع اعتمدنا على الطبيعة للتغلب عليها بوسائلها ذاتها في الماديات، وقد كسبت الإنسانية من وراء ذلك، فلماذا لا نبلغ نظيرة هذه المرتبة في الروحيات.

لماذا لا نكبح جماح الشهوات ما دمنا نعلم أن الاسترسال في الشهوات يسيء إلى الإنسانية؟

كما سمعته يقول:

إن مفسدة العالم في الأنانية الاستقلالية؛ إذ لو أدرك كل إنسان أنه في الواقع أعظم من أن يحد بجسده، وأنه متصل بإخوانه في الإنسانية؛ لَعَطَفَ عليهم العطفَ كله، وأحس بإحساسهم، ولنفى البغضاء والتحاسد، والميل إلى النزاع والمشاحنة من نفسه.[٢]

وخير ما نختم به هذا الحديث في الذكرى العاشرة لوفاته قوله المأثور دفاعًا عن حرية الشعوب المضطهدة:

في العالم قانون أدبي يطبق على الجماعات كما يطبق على الأفراد، وليس لكم أن تهاجموا هذا القانون بصفتكم شعوبًا، وأن تجنوا ثمراته بصفتكم أفرادًا!

الهوامش

(١) Rabindranath Tagare.

(٢) كتاب «مسرح الأدب» ج١ ص١٤.

صورة من الشعر القديم

في طليعة الشخصيات الشامخة في الشعر العربي شخصية «الشريف الرضي»، وإنها لبرهان آخر على أن الأدب الأصيل الصادق العظيم، لا يمكن فصله عن الشخصية العظيمة اللامعة فهما شيء واحد، يترجم عن كِيانه بتعابيرَ شتى ما بين أعمالٍ وأفكارٍ وعواطفَ.

كان «الشريف الرضي» في سلوكه مثالًا لعزة النفس وشرفها، وكان جد حريصٍ على العدل، واشتهر كذلك برجاحة عقله وبتأملاته في فلسفة الأخلاق، وبنظراته الاجتماعية الدقيقة، كما نبغ في الشعر منذ طفولته وجاء هذا الشعر صادقًا مطبوعًا، كامل التصوير لنفسيته؛ كأنه لوحات فنية عظيمة، ثم جاء نثره البليغ الجزل آية في الفخامة، حتى نُسب إليه تأليفًا – لا جمعًا فحسب – كتاب «نهج البلاغة» المحتوي كلام «علي بن أبي طالب» أو معظمه، وتميزت له تصانيف جليلة في مجازات القرآن ومعانيه، تمت عن تضلعه في علوم اللغة، وفوق هذا وذاك كانت له – كما جاء في «عمدة الطالب» – «هيبة وجلالة، وفيه ورع وعفة وتقشف، ومراعاة للأهل والعشيرة ... كان أحد علماء عصره، قرأ على أجلَّاء أفاضل»؛ كما كان معلِّمًا جليلًا أحبه طلبته وأعزوه، والتفوا حوله في مدرسته التي أسماها «دار العلم»، وكان يتبرع لهم بعلمه وبحاجاتهم. كل هذه الشمائل الأدبية والخلقية التي انصهرت في سبيكة واحدة هي التي ترتكز عليها شهرة «الشريف الرضي»!

يصف «الثعالبي» «الشريف الرضي» بأنه «أشعر الطالبِيِّين؛ مَنْ مضى

منهم ومن غَبر، على كثرة شعرائهم المفلقين»، ثم لا يتردد في أن يذكر: «ولو قلت: إنه أشعر قريش، لم أبعد عن الصدق.» كما يذكر: «ولست أدري في شعراء العصر أحسن تصرفًا في المراثي منه.»

وكما كان مترسلًا في النثر يصح أن يعد نظمه من الطراز ذاته، حتى إنه ليقارن بنظم «البحتري» في الصياغة المطبوعة السمحة، ولكن شعر «الشريف الرضي» يمتاز بتعبيره الفخم النبيل عن نفسٍ نبيلةٍ، وبالترفع عن كل ما يَشين، وأبت نفسه الشامخة إلا أن يخاطب الخليفة القادر بالله، بقوله:

عطفًا أميرَ المؤمنينَ! فإنَّنا ... في دَوْحَةِ العَلْيَاءِ لا نتفرَّقُ

ما بيننا يومَ الفخار تَفَاوتٌ ... أبدًا، كِلانا في المعالي مُعْرِقُ

إلَّا الخلافةَ مَيَّزَتْكَ، فإنَّني ... أنا عاطِلٌ منها، وأنتَ مُطَوَّقُ!

قد يشتهر شاعر بقصيدةٍ واحدةٍ سكب فيها عصارة قلبه، فليس من الضروري إذن أن يكون الشاعر المجيد مكثرًا، كما أنه ليس من الواقع أن كل شاعر مقلٍّ مجيد، ولكن بين فحول الشعراء مَنْ جمع بين الإكثار والإجادة في آنٍ واحد؛ لأن ذلك طابع عبقريته، وهؤلاء قلة نذكر منهم في العربية على سبيل المثال «مهيار الديلمي» و«ابن الرومي» و«ابن حمديس» و«الشريف الرضي».

وإذ نحن بصدد «الشريف الرضي»، فلنا أن نقول إنه برع في جميع فنون الشعر العربي التي كانت معروفةً في زمنه، ولو كان أدب الملاحم الإغريقية وسواها معروفًا عند العرب حينئذ لكان «للشريف الرضي» – لا ريب – جولات موفقة فيها، ولكن غلته تقاليد بيئة المحافظة وجهلها بالشعر الإغريقي أو صدوفها عنه؛ لتوهمها إياه خطرًا على التوحيد.

ونقرأ عن شاعرنا وأديبنا الجهير أنه «لم يقبل من أحد صلة ولا جائزةً، حتى بلغ من تشدده في العفة أن رد ما كان جاريًا على أبيه من صلات الملوك والأمراء! واجتهد «بنو بويه» أن يحملوه على قبول صلاتهم فما استطاعوا ... وقد أكبر الناس رثاءه «لأبي إسحق الصابي»؛[1] لأن المرثيَّ كان «صابئيًّا»، ونقرأ أنه «في أواخر عمره تغير عليه الخليفة القادر بالله؛ لاتهامه عنده بالميل إلى العلويين الفاطميين، فصرفه عن الأعمال التي اعتادها، فعاش «الشريف الرضي» عيشَ القانع العفيف حتى وافته منيته». وكل هذا خلق هالة نورانية حول اسمه وسيرته.

علينا بعد هذا أن نأتي ببعض الشواهد الدالة على فخامة شعره وعبقريته، وإننا بالفعل لنجد أنفسنا في حيرةٍ حول ما نختار منها وما نترك. ولأمرٍ ما – ولعله طابع الوفاء المؤثِّر – تجتذبنا مراثيه، وإنها لفي الذروة من حرارة العاطفة، ومن ذا الذي يمكن أن ينسى مرثيته «لأبي إسحق الصابي» التي يقول فيها:

أعلمتَ من حَمَلُوا على الأعوادِ؟	أرأيتَ كيف خَبَا ضِياءُ النَّادي؟
جَبَلٌ هَوَى، لو خَرَّ في البحر	اغتدَى مِنْ وقْعِه مُتتابعَ الإزبادِ
ما كنتُ أَعْلَمُ قبلَ حَطِّكَ في	الثَّرى أنَّ الثَّرى يَعلُو على الأَطوادِ!
بُعْدًا ليومِكَ في الزَّمانِ فإنَّه	أقْذَى العيونَ وفَتَّ في الأعضادِ
لا يَنفدُ الدمعُ الذي يُبْكَى	بِه إنَّ القلوبَ له من الإمدادِ

ومنها:

إنَّ الدموعَ عليكَ غيرُ بخيلةٍ	والقلبُ بالسلوانِ غيرُ جوادِ

سوَّدتَ ما بين الفَضاء وناظري　　وغَسَلْتَ مِنْ عينيَّ كلَّ سوادِ

يا ليتَ أنِّي ما اقتنيتُكَ صاحبًا　　كم قنْيَةٍ جلبتْ أسى لفؤادي!

ليس الفجائعُ بالذخائر مِثْلَها　　بأماجدِ الأعيانِ والأفرادِ

ضاقتْ عليَّ الأرضُ بَعْدَكَ　　كُلُّها وتركْتَ أضيقَها عليَّ بلادي!

ولا تَقِلُّ روعةً عن هذه القصيدة مراثيه الأخرى؛ مثال ذلك رثاؤه لوالدته الذي يقول في مستهله:

أبكيكِ لو نقعَ الغليلَ بُكائي　　وأقولُ لو ذهبَ المقالُ بدائي

وأعوذُ بالصَّبر الجميل تَعزِّيًا　　لو كان بالصبرِ الجميلِ عزائي

طورًا تُكاثِرني الدُّموعُ، وتارةً　　آوِي إلى أكرومتي وحيائي!

ومنه:

كيف السُّلُوُّ، وكلُّ مَوقع لحظةٍ　　أَثَرٌ لِفضلِك خالدٌ بإزائي؟!

رُزآن يزدادانِ طُولَ تَجَدُّدٍ　　أَبَدَ الزَّمانِ: فَناؤُها وبقائي

ذَخَرَتْ لنا الذكرَ الجميلَ إذا　　انقضى ما يَذْخَرُ الآباءُ للأَبْناء

كم آمرٍ لي بالتَّصَبُّر هاج　　لي داءً، وقدَّر أنَّ ذاكِ دوائي

آوي إلى بَرْدِ الظلالِ كأنَّني　　لِتَحَرُّقي آوِي إلى الرَّمضاءِ

وأَهبُّ مِنْ طِيبِ المنامِ تَفَزُّعًا　　فَزَعَ اللَّديغ نَبَا عن الإِغفاءِ

لو كان يُبلغكِ الصَّفيحُ رسائلي　　أو كان يُسْمِعُكِ التُّرابُ ندائي

لسـمعتِ طـولَ تأوُّهـي وتَفَجُّعـي وعلمـتِ حُسْـنَ رعـايتي ووفـائي!

ومثله رثاؤه المؤثر لوالده الذي يقول فيه:

قد كنتُ أَعْذُلُ قبلَ موتِكَ مَنْ بَكَى فـاليومَ لي عَجَـبٌ مـن المتبسِّـمِ

وأذودُ دمعـي أن يَبُـلَّ مَحـاجري فـاليومَ أُعلمـهُ بمـا لم يَعلـمِ

لا قُلـتُ بعـدكَ للمـدامعِ كفكفـي مِـنْ عَـبرةٍ ولـوَ انَّ دَمعي مِـنْ دَمـي

هَتـفَ الحِمـامُ بـه فكـان وَصَـاتَه بَـذْلُ الرغائـبِ واحتمـالُ المغـرمِ

هـل يُـورثُ الرجـلُ الكـريمُ إذا مَضَـى إلّا بَـوَاقِيَ مِـنْ عُـلًا وتكـرُّمِ

يَأْبَى النَّـدَى تـركَ الثـراءِ علـى الفَـتَى ويَقـلُّ مـيراثُ الجـوادِ المُـنْعِمِ

مَـلَأَتْ فضـائلكَ الـبلادَ ونَقبـتْ في الأرضِ يَقْـذِفُها الخبـيرُ إلى العَمِـي

فكـأنَّ مَجْـدَكَ بارقٌ في مُزْنَـةٍ قِبَـلَ العُيـونِ وغـرَّةٌ في أَدْهَـمِ

أَنعـاكَ للخيـل المُغـيرةِ شُـزَّبًا خَـبطَ المَغَـارُ بهـنَّ مَـنْ لم يُجْـرِمِ

كالسِّـرْبِ أَوْجَـسَ نَبـأَةٍ مـن قـانصٍ فمضَـى يَلُـفُّ مُـؤخَّرًا بِمُقـدَّمِ!

ومثله رثاؤه البليغ «للصاحب بن عباد»، وفيه يقول:

يا آمـرَ الأقـدار كيـف أطَعْتَهـا؟! أوَمَـا وَقـاكَ جلالُـكَ الآجـالا؟!

ألَّا أقالَتْـكَ الليـالي عَثْـرَةً يا مَـنْ إذا عَثَـرَ الزمـانُ أقـالَا؟!

واهًـا علـى الأقـلامِ بعـدكَ، إنَّهـا لم تَـرْضَ غَـيرَ بَنَـاتِ كَفِّـكَ آلَا

دَفَـعَ الزمـانُ لـكَ النوائـبَ دَفْعَـةً وتَصَـوَّبَ الـوادي إليـكَ فسـالَا!

ومثله رثاؤه الوفي للخليفة «الطائع بالله»، وقد توفي في مجلسه وهو مخلوع، وكان في خلافته شديد الميل إليه؛ وفي هذا الرثاء يقول:

وكـــذا الأيامُ مَـــنْ قارعَهـــا ... تركـــتْ فيـــه علامـــاتِ النِّـــزالِ

نَتَجُـــوا في المجـــدِ مـــا أَلْقَحْتَـــهُ ... رُبَّمـــا أوقـــدَ نارًا غـــيرُ صَـــالي

وإذا أَغْلَـــى الـــوَرَى أكرومـــة ... وَجَـــدُوا عنـــدكَ أثمـــانَ الغـــوالي

كـــلُّ مأســـورٍ يُرَجَّـــى فكُّـــه غَيْـــرَ ... مَـــنْ أصـــبحَ في قَيْـــدِ الليـــالي!

وأقرب إلى الرثاء تفجعه لخلع ذلك الخليفة في قصيدتين من عيون شعره!

فإذا انتقلنا من الرثاء وجدنا أبوابًا أخرى عديدة تستهوينا دواعيها وفرائدها؛ سواء في الشعر الوصفي التصويري، أو في الزهد، أو في النسيب، أو في الإخوانيات، أو في الفخر، أو في شكوى الزمان، أو في غير ذلك من أبواب الشعر الكلاسيكية، دع عنك حجازياته المشهورة.

ومن أوصافه الرائعة: وصف «إيوان كسرى»، ووصف «بيوت النار بيوم الشعانين»، و«وصف الليل»، و«وصف الحيرة»، و«وصف الأسد»، و«وصف القلم». وديوانه الضخم الواقع في نيفٍ وتسعمائة صفحةٍ من القطع المتوسط، والحاوي آلافَ الأبيات السِّرِّيَّةِ؛ هو ثروة كلاسيكية للأدب العربي لا تقدَّر بثمن؛ وإذ كنا نزور حديثًا مجموعة لوحات «رامبرانت» في متحف «المتروبوليتان» للفن بنيويورك، اتفق أن كان بصحبتنا ديوان «الشريف الرضي»، فكان إحساسنا قويًّا بالشبه بين ما بيدنا وبين ما رأينا، ومهما يكن التطور في الأذواق والأساليب في الشعر أو التصوير أو في غيرهما من الفنون الجميلة؛ فما تزال للشعر الكلاسيكي عظمته، وما تزال لشعر «الشريف الرضي» عظمة خاصة.

ولم يقل ناقد منصف إن خصوبة فنه أو سرعة إنتاجه انتقصته بأي حال؛ فإنتاج «المعري» الهائل لم يكن مظهر إفلاسه، كذلك لم تكن آثار «شيكسبير» العديدة ولا آثار «هومير»، كذلك لم تكن سرعة «روسِّيني» مثلًا الذي وضع «حلاق إشبيلية» في أقلَّ من ثلاثة أسابيع، أو سرعة خاطر «أبي نواس» المتألق في شعره الصافي.

ولكن الناس عادة عبيد الحسد، قلما يعرفون قيمة الرجل العبقري إلا بعد وفاته، وهم على خير تقدير عبيد المألوف، وخصوم المتميز:

لا يعــرف القــومُ الفــتى إلا مــتى   ولَّى فيعطَــى حقــه تحــت الثــرى!

وهذا كان حال «الشريف الرضي» على ما أوضحه فقيد الأدب الدكتور «زكي مبارك» في كتابه الممتاز «عبقرية الشريف الرضي».

ولسوء حظ الأدب لم يعمَّر «الشريف الرضي» أكثر من سبع وأربعين سنة هجرية؛ فقد ولد في «بغداد» سنة ٣٥٩هـ، وتوفي «بالكرخ» سنة ٤٠٦هـ؛ حيث دفن بداره أولًا؛ ثم نقل إلى مشهد «الحسين» «بكربلاء»، فدفن عند أبيه. ومع ذلك أعطى الأدب العربي في هذا العمر المحدود كنزًا عظيمًا من الشعر والحكمة والنقد الاجتماعي والمثاليات الأخلاقية العليا.

ويقول لنا المؤرخون إنه نشأ في حجر والده ودرس العلم في طفولته، فبرع في الفقه والأدب واللغة والنحو، وبدأ يقرض الشعر في سن العاشرة، وألَّف وعلَّم، وضرب المثل للشعراء والأدباء في الترفع بآثارهم، وفي ابتداع مثاليات لهم، متنزهًا عن العبث والمجون، كما تنزه عن قبول صلةٍ أو جائزةٍ من أحدٍ، وكان آية الصدق والحزم والأمانة في عمله، وكل هذا نراه متجليًا في مرآة أدبه. كان يقيم في مدينة «سُرَّ مَنْ رَأَى» معظم حياته العملية، وبعد ما تولى نقابة

الأشراف الطالبيين أخذ يتولى أيضًا النظر في المظالم والحج بالناس كما كان يفعل والده، إلى أن انصرف عنه الخليفة «القادر بالله». وآثار كل هذه الحياة الشريفة نحسها في ديوانه بلغة الفكر والعاطفة والفن، يحسها ويفْتَن من يُعنى بنشدانها؛ لأنها أرفع من مستوى الدهماء، على حد قوله:

أنا النُّضَـــار الـــذي يُضَـــنُّ بـــه   لـــو قلبتـــني يمـــين منتقـــد!

يصف الدكتور «زكي مبارك» الشريف الرضي بأنه «الجندي المجهول»؛ وذلك لأن جلَّ شعره غيرُ مدروس، ويكاد لا يردد إلا شعره السياسي؛ لأن شاعرنا كان ضالعًا – فيما يقال – مع الفاطميين ضد العباسيين، ومن أجل ذلك اشتهرت قصيدته اليائية التي يُعرض فيها بحكومة الخليفة «القادر بالله»؛ كما اشتهرت قافيته التي يقول فيها:

عَطْفًـــا أمـــيرَ المـــؤمنينَ فإننـــا   في دَوْحَةِ العَلْيَاءِ لا نتفرَّقُ!

ولولا ذلك الاعتبار السياسي لما تحدث عنهما أحد. كذلك لولا الثورة على كتاب «نهج البلاغة» والشك في صحة نسبته إلى «الإمام علي»؛ لما تردد اسم «الشريف الرضي» مرة أخرى؛ ذلك لأن شعره الخالد العظيم هو شعر فكرٍ ومثالية وعاطفة في آن واحد، فهو شعر من النسق العالي الفذ؛ وذلك لأنه لم يتكسَّبْ بشعره، ولم ينزل به إلى مصاف الدهماء وإلى منزلة المجون والعبث والتسلية الجوفاء؛ وذلك لأنه شعر المثقفين الواعين، وليس شعر الجهلاء وأنصاف الجهلاء السطحيين، وقد أدت النهضة الفكرية العربية أخيرًا إلى الحفاوة الكاملة بشعر «الشريف الرضي»، فأعزَّته جميعَه، ولم تهمل منه شيئًا، كما أهملت نظمًا كثيرًا للشعراء الوصوليين المذبذبين المتصنعين، ولو كانوا من المشهورين.

وخير ما نختم به هذا الحديثَ العامَّ عن أدب «الشريف الرضي» هذه

اللآلئ من شعره، نقدمها دون تعمُّد الاختيار، وإنها لمرآة لشاعريته ولحكمته ولعاطفته مجتمعةً.

يَغُرُّ الفَتَى ما طال مِنْ حبْلِ عُمْرِهِ وترْخي المنايا بُرهَةً ثم تَجْذِبُ

...

كلُّ حَبْسٍ يَهُونُ عند الليالي بَعْدَ حَبْسِ الأرواح فِي الأجسادِ

...

يَنالُ الفَتَى مِنْ دَهْرِهِ قدرَ نفسهِ وتأْتِي على قَدْر الرجالِ المكايدُ

...

يُعَرِّفكَ الإِخوانُ كلٌّ بنفسهِ وخيرُ أخٍ مَنْ عَرَّفَتكَ الشدائدُ

...

ليس الغريبُ الذي تنْأَى الدِّيارُ بهِ إنَّ الغريبَ قريبٌ غيرُ مودَودِ!

...

ما الفقرُ عارٌ وإن كَشَّفْتَ عَوْرتَهُ وإنَّما العارُ مالٌ غيرُ محمودِ

...

إذا الشَّمْس غاضَتْ كلَّ عينٍ صحيحةٍ فكيف بها في هذه المُقَلِ الرُّمْدِ؟

...

قالوا على قَدْرِ الرَّجاء وإنما يُرْوَى على قَدْرِ الأوامِ الصَّادِي

...

إذَا قَيَّــدَ الليْـــلُ خَطْــوَ المُــــنَى مَشَـــى النَّــوْمُ فِي مُقْلَــةِ السَّـــاهِرِ

...

لَحَـــا اللهُ دَهْـــرًا كثـــيرَ العَـــدُ وِّ حـــتى الظَـــلامُ يُعـــادِي النَّهـــارَا

...

مـا كـلُّ نَسْـلِ الفَـتَى تزْكُـو مَغَارِسُـهُ قـد يفجَـعُ العـود بالأوراقِ والثَّمَـرِ

...

إذا تَنـــــاءَتْ بنـــــا قلـــــوبٌ فـــــلا تَـــــدَانَتْ بنـــــا ديار

...

ولـــيسَ كـــلُّ ظَـــلامٍ دامَ غَيْهَبـــهُ يَســـرُّ خابطَـــهَ أن يَطْلـــعَ القَمَـــر

...

بالجـدِّ لا بالمسـاعي يُبْلَـغ الشـرفُ تمْشـي الجـدود بأقـوامٍ وإنْ وَقَفُـوا

...

وضَـيوفُ الهُمـومِ مُـذْ كُـنَّ لا يَنـْ ـزِلْنَ إلَّا علـى العظـيمِ الشـريفِ!

...

أراكَ تَجْـزَعُ للقـومِ الـذين مَضَـوْا فهل أَمِنْتَ على القَوْمِ الذين بَقُوا؟!

...

وإذا الحلـيمُ رَمَـى بِسِـرِّ صـديقهِ عَمْـدًا فـأَوْلَى بالـوِدَادِ الأَحمـقُ!

...

ولا تَزْرَعُــوا شَــوْكَ القَتَــادِ فــإنكم جــديرون أن تُــدْمَوْا بــه وتشَــاكوا

...

ولــيسَ يَأْتَلِــفُ الإحســانُ في مَلِــكٍ حــتى يؤلِّــفَ بــينَ القــولِ والعمَــلِ

...

وأَوَّلُ لُــــؤْمِ المـــرء لـــؤمُ أصــــولِه وأولُ غَــدْرِ المــرءِ غَــدْرُ خليـــلِ

...

الـــنَّفسُ أدْنىَ عَـــدُوٍّ أنـــتَ حـــاذرُهُ والقلـبُ أعظـمُ مـا يُبْلَـى بـه الرَّجُـلُ

...

ومَـوْتُ الفَـتَى خَيْـرٌ لـه مِـنْ حياتـهِ إذا جــــاورَ الأيامَ وهــــو ذليــــلُ

...

ومَــنْ مــات لَمْ يعْلَــم وقــد عــانقَ الثَّرى بَكـاهُ خليـلٌ أم سَـلاهُ خليـلُ

...

ومــــا شَـــــرَرٌ تَطـــاوحَ عــــن زِنادٍ بمُنْتَقَـــــدٍ إذا بَقَـــــيَ الضِّــــــرامُ

...

كالغيـــثِ يَخلفــه الربيـــعُ وبعضـــهم كالنـــارِ يَخْلُفهَـــا الرَّمـــادُ المُظْلِـــم!

...

هُبُّــــوا فقــــد تَـــــيَقَّظُ الـــــ أجْــــــدَادُ لِلقَــــــوْمِ النِّيــــامِ!

...

لا يَـــذْخَرُ الضَّـــيْغَمُ مـــن قُوتِـــهِ		مــا يَــذْخَرُ النَّمــلُ مِــن المَطْعَــمِ!

...

قــد يَبْلُــغُ الرجــلُ الجبــانُ بمالــهِ		مــا لــيس يَبلغُــه الشُّــجاعُ المُعْــدِمُ

...

تَشِــفُّ خِــلالُ المــرءِ لي قبــلَ نُطْقِــهِ		وقبلَ سُؤالي عنه في القَوْمِ: ما اسْمُهُ؟!

...

يَمْضِــي الزَّمــانُ ولا نُحِــسُّ كأنَّــه		ريــحٌ تَمُــرُّ ولا يُشَــمُّ نســيمُها

...

فليــتَ كــريمَ قــومٍ نال عِرْضِــي		ولم يَــدْنَسْ بــذمٍّ مِــنْ لئــيمِ

تُمْلــي المقــاديرُ أعمــارًا وتَنْسَــخُها		ويَضْــرِبُ الــدَّهْرُ أيامًــا بأيامِ

...

ومَنْظَــرٍ كــان بالسَّــراءِ يُضــحكني		يا قُــرْبَ مــا عــاد بالضَّــرَّاء يُبكيــني

...

هيهــات أغــترُّ بالسُّــلطانِ ثانيــةً		قــد ضَــلَّ وَلَّاجُ أبــوابِ السَّــلاطينِ!

...

لا تَخْلُــدَنَّ إلى أَرْضٍ تَهُــوُن بهــا		بالــدَّارِ دارٌ وبالجــيرانِ جــيرانُ

...

يا قــومُ إنَّ طويــلَ الحِلْــمِ مفســدةٌ ... وربمــا ضـــرَّ إبقــاءٌ وإحســـانُ

...

ومــا خَيْـــرُ عَــيْنٍ خَبَــا نورُهــا ... ويُمْـــنَى يـــدٍ جُـــذَّ منهــا البَنــانُ

...

إذا المــرءُ لم يَحْفَـظْ ذِمامًــا لقومِــهِ ... فــأَحْج بــه أنْ لا يَفــي بضَــمانِ

...

وَسِــــعْتُ أيامــــي ولم تَسَـــــعْني ... أفْضَــلُ عنهــا وتَضِــيقُ عـــنِّي!

...

لا تَجْعَلَـــنَّ دليـــلَ المـــرء صُـــورَتَه ... كـم مَخْبَرٍ سَمِـجٍ عـن مَنْظَـرٍ حَسَـن!

...

ومــن عَجَــبٍ صُــدُودُ الحَــظِّ عنَّــا ... إلى المُتَعَمِّمـــينَ علـــى الخَـــزَايَا

أَسَـــفَّ بِمَـــنْ يَطـــيرُ إلى المَعـــالي ... وطـــارَ بمـــن يَســـفُّ إلى الـــدَّنايا!

وقد تساءل الدكتور «زكي مبارك»: ليت شعري متى يجيء العهد الذهبي الذي تسمو فيه الآراء بفضل ما فيها من قوة الصدق، لا بفضل من يحرسها من الجنود؟! وقد تساءل الشاعر «الناعوري» في «الثقافة»: لماذا هذا يروج وذاك لا يروج؟ والجواب عن ذلك أدلى به الدكتور «زكي مبارك» في فاتحة كتابه القيم ص٤٥، ولعلنا الآن على عتبات العصر الذهبي الذي كان يحلم به، رحمه الله ورحم «الشريف الرضي» رحمة واسعة، ورحم «الإمام عليًّا» الذي قال: «السبب الذي أدرك به العاجز بغيته، هو الذي أعجز القادرَ عن طِلْبَتِهِ.»

الهوامش

(١) حينما لامه بعض المتطرفين في الدين لرثائه من عدوه كافرًا، قال: «إنما رثيت فضله!»

الفهرس